مشاهدات
لسان الدين بن الخطيب
في بلاد المغرب والأندلس
(مجموعة من رسائله)

الأستاذ الدكتور
أحمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة
بجامعة الكويت والإسكندرية سابقاً

١٩٨٣

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ الإسكندرية

اهـــداء

الى ذكرى استاذى وعمى المغفور له عبد الحميد العبادى ، أقدم هذا الجهد المتواضع .

أيها الراحل الكريم العزيز :

لن أنسى عطفك فقد اختلط بدمى ، ولن أنسى تشجيعك إذ هو رائدى ، كما لن أنسى حديثك الذى نقش فى صدرى ،

" يسير معى حيث استقلت ركائبى .·. وينزل إذ أنزل ويدفن فى قبرى "

ابنك

أحمد مختار العبادى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ – ٧٧٦هـ = ١٣١٣ – ١٣٧٤م) وزير ملوك بنى الأحمر بغرناطه ، شخصية من أصحاب الثقافة الموسوعية المعروفة فى ميادين العلم والسياسة . كتبت حوله بحوث عديدة ، كشفت النقاب عن بعض مواهب هذا العبقرى الداهية . وقد سبق لى أن أسهمت فى هذا المضمار بمجهود متواضع[1] ، وهأنذا أعاود الكرة مرة أخرى محاولا تناول هذه الشخصية العظيمة من زاوية أخرى ، وهى دراسته كرحالة عظيم ، وذلك على ضوء ما قدمه لنا من أوصاف دقيقة ، ومشاهدات صادقة ، للبلاد الأندلسية والمغربية التى زارها بنفسه .

والواقع أن الظروف العلمية والسياسية التى تقلب فيها ابن الخطيب ، أتاحت له الفرصة فى الطواف بانحاء مملكة غرناطه وبلاد المغرب الأقصى .

فمن المعروف أنه فى أثناء صباه ، تلقى العلم على شيوخ تلك البلاد ، وان كانت هذه الفترة الأولى من حياته يكتنفها الغموض من حيث حركاته وسكناته . غير أن المصادر المعاصرة تشير الى أسماء شيوخ له من كافة أنحاء المغرب والأندلس ، فليس بمستبعد أن يكون ابن الخطيب قد زار هذه البلاد فى شبابه سعياً وراء العلم والاتصال بعلماء عصره كما كان يفعل مواطنوه . وكيفما كان الأمر ، فالذى يعنينا هنا ، أن ابن الخطيب حينما تولى الوزارة ،

---

(١) أنظر (مختار العبادى : لسان الدين بن الخطيب ونزعاته الاقتصادية – مجلة لسان الدين ، الجزء التاسع والعاشر ، سبتمبر – أكتوبر سنة ١٩٥٤) وقد تفضل أستاذى المستشرق الاسبانى الكبير غرسيه غومز ، فترجم هذا المقال الى اللغة الاسبانية فى مجلة الأندلس ، تحت عنوان : (Los móviles económicos en la vida de Ibn Al Jatib — Al Andalus 1955, Vol. XX fasc. I) .

رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الأول فى رحلته التفتيشية بمقاطعات غرناطة الشرقية عام ٧٤٨هـ ، كذلك زار ابن الخطيب بلاد المغرب الأقصى كسفير لسلطان غرناطة فى عامى ٧٤٩ و٧٥٥هـ (١) . ثم التجأ اليها مرة ثالثة عند ما نفى مع سلطانه المخلوع محمد بن يوسف بن نصر ، الغنى بالله ، عام ٧٦٠هـ . ولقد استمرت مدة النفى ما يقرب من الثلاث سنوات عاد بعدها ابن الخطيب مع سلطانه الى مقر حكمه مرة أخرى .

على أن المهم هنا ، هو أن ابن الخطيب طوال مدة النفى هذه ، لم يقبع فى مدينة فاس عاصمة بنى مرين كما فعل سلطانه وبقية الحاشية واللاجئون السياسيون ، بل عكف على زيارة البلاد المغربية لمشاهدة آثارها ولقاء العلماء والصالحين فيها (٢) .

---

(١) يجدر بنا أن نشير بصدد هذه السفارة الأخيرة ، إلى أن سلطان المغرب أبا عنان فارس ، دعا ابن الخطيب إلى حفل رياضى ليشاهد الحرب بين الثور والأسد ، على ما جرت به عادة الملوك . وقد وصف ابن الخطيب هذه المصارعة فى احاطته ج ٢ ص ٧٦ (طبعة القاهرة ١٣١٩هـ) وقد أشار إلى أن هذا الصراع بين الوحشين قد انتهى بانتصار الثور وجرح الأسد . عندئذ خرجت طائفة من الرجال المسلحين أخذوا يناوشون الأسد الجريح إلى أن قتلوه بعد أن أردى بعضهم .

ولم يكن الصراع مع الوحوش قاصرا على المغرب ، بل كان منتشرا أيضاً فى الأندلس . ومن العجيب أن ابن الخطيب فى موضع آخر من كتاب الاحاطة (نسخة الاسكوريال لوحة ٤٤١) يشير إلى انتشار مصارعة الثيران بين علية القوم من أهل غرناطة . وهذا أقدم نص وجدناه عن هذه المصارعة المشهورة الآن فى أسبانيا وأمريكا اللاتينية . وكانت الطريقة كما يصفها ابن الخطيب هى أن يطلق الثور (أو البقر الوحشى كما كان يسميه) ثم تطلق عليه كلاب اللان المتوحشة ، فتأخذ فى نهش جسمه وأذنيه متعلقة بها كالأقراط . وهذا العمل التمهيدى كان الغرض منه هو الحد من قوة الوحش وتهذيب حركته ، وهو مايقوم مقامه اليوم عمل رماة السهام Banderilleros وطاعن الرمح Picador وذلك تمهيدا للقاء المصارع . وكان المصارع الغرناطى كما يصفه ابن الخطيب ، فارساً مغوارا يصارع الثور وهو ممتط فرسه المدرب ثم يقتله فى النهاية برمحه . وهذا النوع من المصارعة ، لايزال موجودا إلى اليوم ، ويسمى الفارس المصارع باسم رخونيادور Rejoneador نسبة إلى الرمح القصير الذى يستعمله فى قتل الثور واسمه رخون Rejón .

هذا وتنبغى الاشارة إلى أن هذا النص العربى القديم لم يرد ذكره فى الموسوعة الكبرى التى ألفها خوسيه ماريا قوسيو عن الثيران . أنظر (José maria Cossio: Los Toros, 3 Tomos)

(٢) أنظر (المقرى : نفح الطيب ج ٥ ص ٢٣٧ – ٢٣٨ ، طبعة محيى الدين عبد الحميد)

ولقد سجل ابن الخطيب كل ما رأته عيناه ، وسمعته أذناه في جميع هذه الرحلات ، فأعطانا بذلك مادة خصبة يرجع اليها الفضل الأول في كل ما نعرفه عن حضارة الغرب الاسلامى فى تلك الفترة .

ومشاهدات ابن الخطيب التى دونها ، نشر بعضها نشراً جزئياً غير كامل بوساطة بعض المستشرقين ، أما البعض الآخر فلم ينشر بعد وهو الذى يعنينا أمره فى هذا الكلام . ولكن نظراً لأن المنشور من هذه الرسائل متفرق فى أماكن متعددة كما أنه ليس فى متناول يد القراء والباحثين لندرته وقدمه ، فقد آثرت لتعميم الفائدة وتوحيد الفكرة ، اضافته الى الرسائل الأخرى غير المنشورة ، مع ابداء الملاحظات والتعليقات والشروح اللازمة ، على ضوء ما استجد من أبحاث فى الفترة الطويلة التى تلت هذا النشر والتى تقدر بنحو قرن من الزمان .

ولدينا الآن أربع رسائل كتبها ابن الخطيب فى هذا المضمار ، وهى :

١ — خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف .

٢ — مفاخرات مالقه وسلا .

٣ — معيار الاختبار فى ذكر المعاهد والديار .

٤ — رحلته التى دونها فى كتابه نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب .

وقد راعيت فى ترتيب هذه الرحلات ، التسلسل التاريخى والزمنى لها بقدر الامكان .

أما بخصوص الرسالة الأولى وهى المقامة المسماة « خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف » فقد أورد خطأ كل من الغزيرى وبروكلمان ودرنبورج ، أن هذه الرحلة كانت فى بلاد المغرب ، غير أنه واضح من نص الرسالة أنها كانت رحلة رسمية قام بها سلطان غرناطه ، أمير المسلمين أبو الحجاج يوسف بن نصر (٧٣٣ — ٧٥٥هـ = ١٣٣٣ — ١٣٥٤م) ومعه وزيره ابن الخطيب لتفقد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطه .

ولقد نشر هذه الرحلة المستشرق الألمانى ماركوس جوزيف مولر فى كتابه المعروف باسم نخب من تاريخ المغرب العربى[1].

غير أن مولر اعتمد فقط فى هذا النشر على النسخة التى وردت ضمن كتاب « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب »[2] لابن الخطيب ، ولكننا عثرنا على نسخة أخرى لهذه الرحلة فى المخطوط رقم ٤٧٠ بمكتبة الاسكوريال باسبانيا . وهذا المخطوط عبارة عن مجموعة من الرسائل المختلفة لعدة مؤلفين من بينها هذه الرحلة التى تقع فى تسع عشرة ورقة من الحجم المتوسط (رقم ٥١ الى ٦٩) وكل ورقة تحتوى على خمسة عشر سطراً ، وهى مكتوبة بالخط المغربى . ونظراً لوجود بعض الاختلافات بين النسختين ، آثرنا نشرها من جديد وذلك بعد المقابلة بين النصين والتنبيه الى الفروق بينهما معتمدين فى ذلك على نسخة المخطوط رقم ٤٧٠ كأصل نظراً لأن تاريخها يبدو أقدم من الأخرى وعباراتها أصح وفقراتها أكثر ، وان كان المقرى للأسف ، لم يشر اليها اطلاقاً بينما أشار الى نسخة الريحانة فى كتابه نفح الطيب[3].

وقد رمزنا لهذه النسخة الأصلية بالحرف « ا » ولنسخة الريحانة بالحرف «ب» .

ونص الرحلة يشير الى خروج الركب السلطانى من العاصمة غرناطه فى يوم الأحد ١٧ محرم عام ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) تتقدمه الألوية والبنود الحمراء شعار دولة بنى الأحمر . ويصل الركب الى مدينة وادى آش أو وادى إيش Guadix فى شمال شرق غرناطه ، وهناك يستقبلهم الأهالى استقبالا رائعاً بملابسهم البيضاء وهو الزى التقليدى لأهل الأندلس عموماً منذ أيام الأمويين .

(١) Marcus J. Muller: Beiträge Zur Geschichte Der Westlichen Araber, I, pp. 15-40, (Munchen 1866).

(٢) مخطوط بمكتبة الاسكوريال رقم ١٨٢٥ ، والرحلة تشغل فيه ثمان ورقات من الحجم الكبير (لوحة ٢٢٠ – ٢٢٧) .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ٣٠٦

ثم تواصل الرحلة سيرها شرقاً مارة ببعض المدن والحصون الهامة مثل بسطه Baza وبرشانه Purchena . ويشير ابن الخطيب الى أن هذه البلاد الشرقية كانت تعانى قحطاً شديداً نتيجة لغارات الأعداء وسيول الأمطار التى اجتاحت أراضيها . وقد صور ابن الخطيب هذه الحالة فى اطار مستملح طريف ، ومثال ذلك وصفه للدجاجة التى أهداها لهم قاضى احدى هذه المدن فيقول : « ... وتقدم بها أعوانه يزفونها ،كالعروس فوق الرؤوس ... قلت يا قوم ، ظفرتم بقرة العين ، فقد ذبح لكم غراب البين .. » .

ثم يواصل الركب السلطانى سيره الى أن يبلغ أقصى الحدود الشرقية وهى مدينة بَيْرَه Vera ، « الثغر الأقصى ، ومحل الرباط الذى أجر ساكنه لا يحصى » . وقد أشار ابن الخطيب الى قلق سكان هذا الثغر ، وترقبهم لغارات الأعداء المفاجئة ، كما أشار الى صعوبة موقع المدينة ووعورة مسالكها وطرقها لدرجة أنهم اضطروا الى اتخاذ دليل ماهر ليقودهم وسط الجبال والوهاد الى الطريق الصحيح .

ثم يعود المرتحلون ادراجهم عن طريق آخر مارين بثغر المريه Almeria وهنا يشير ابن الخطيب الى استقبال رجال البحرية للسلطان بملابسهم الجميلة وأبواقهم وطبولهم ، والى استعراض قطع الأسطول الغرناطى فى الميناء .

كذلك يشير الى استقبال رجال الجيش وكيف كانوا يحملون على أعناقهم قسى الفرنج . وفى هذه العبارة الأخيرة دليل واضح على مدى تأثر مملكة غرناطه بالنظم الحربية للبلاد المسيحية المجاورة مثل قشتاله وأراجون. هذا ومن المعروف أن مملكة غرناطه كانت تستورد أسلحة من فرنسا ولا سيما من مدينة بوردو (برذيل) [1] لاستخدامها الى جانب أسلحتها الخاصة التى كانت تصنعها فى مدينة المريه بالذات .

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٨) .

كذلك يشير ابن الخطيب الى الجالية المسيحية المقيمة بثغر المريه ، وكان أفرادها يشتغلون بالتجارة والاستيراد والتصدير بطبيعة الحال . ومن كلامه نلاحظ أنهم ساهموا فى الترحيب بالسلطان بأن نشروا فوقه مظلة كبيرة من الحرير لتحجب عنه أشعة الشمس .

ثم يتكلم ابن الخطيب عن صعود السلطان الى قلعة المدينة لتفقد حصونها الدفاعية ، ومشاهدة آثار الأولين الذين ساهموا فى تأسيسها ولا سيما خيران العامرى الصقلبى والمعتصم بن صمادح وهما من ملوك الطوائف الذين حكموا هذه المنطقة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)[١] . ثم بعد ذلك يغادر السلطان وصحبه مدينة المريه مارين ببعض المدن الهامة مثل بجانه Pechina ومرشانه Marchena وفنيانه Finana ، وينتهى بهم المطاف مرة أخرى الى مدينة وادى آش ومنها الى العاصمة غرناطه ، مقر الحكم والسلطان .

وينبغى أن نشير فى هذا الصدد الى عبارات أوردها ابن الخطيب فى سياق النص تشير كلها الى خروج النساء فى جماعات كبيرة واختلاطهن بالرجال للمشاركة فى استقبال السلطان ، فمن ذلك مثلا قوله : « ... واختلط النساء بالرجال ، والتقى أرباب الحجا بربات الحجال ، فلم تفرق بين السلاح والعيون الملاح ، ولا بين حمر البنود وحمر الخدود » .

ويبدو من هذا النص وأمثاله ، أن نساء غرناطه كن أكثر تحرراً من نساء العالم الاسلامى فى ذلك الوقت . ولعل هذا ناتج من تأثير الجوار بالبلاد المسيحية المحيطة بهذه المملكة الصغيرة من كل جانب . وهناك شواهد أخرى كثيرة تؤيد هذا الكلام الا أنها مع الأسف الشديد وردت فقط

---

(١) أنظر Antonio Prieto y Vives : Los Reyes De Taifas (Madrid 1926)
أنظر كذلك (مختار العبادى : الصقالبة فى أسبانيا ، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية ، مدريد ١٩٥٣) .

فى المصادر المسيحية وحدها [1] . وهذا يجعلنا رغم قلة المصادر العربية ، لا نستطيع ابداء حكم صريح فى هذا الموضوع .

والرسالة الثانية التى ألفها ابن الخطيب فى هذا الموضوع أيضاً ، رسالته المعروفة باسم « مفاخرات مالقه وسلا » وهى كما يتضح من العنوان ، مفاضلة بين المدينة الأندلسية وأختها المغربية فى مختلف النواحى الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية ... الخ .

ومن العجيب أننا نلاحظ أن ابن الخطيب رغم حبه لبلاد المغرب ولمدينة سلا بالذات التى لجأ اليها فى أوقات محنته ، الا أن شعوره الوطنى جعله يتغاضى عن كل هذه الاعتبارات ويتحيز الى المدينة الغرناطية مالقه ، فيجعلها المفضلة على طول الخط . وقد يرجع هذا الشعور الى روح المنافسة التقليدية القديمة التى كانت سائدة بين الأندلسيين والمغاربة والتى تظهر أيضاً بوضوح فى رسالة الشقندى قبل قرن من الزمان [2] .

نشر رسالة ابن الخطيب العالم الألمانى مولر السالف الذكر فى نفس كتابه المذكور [3] ثم جاء المستشرق الهولندى دوزى Dozy ، فاختصر هذه الرسالة فى المجلة الألمانية ZDMG (XXp.616) ، كما استغل الفاظها فى معجمه المعروف : Supplément aux Dictionnaires Arabes . وجاء المستشرق الأسبانى سيمونيت Simonet ، فاستعان بهذه الرسالة أيضاً فى مقالاته التى كتبها تحت عنوان Mālga Sarracénica (أو مالقه العربية)

---

(١) أنظر على سبيل المثال Pérez de Hita: Guerras Civiles de Granada. I, P. LXXV] (Prólogo) & Lafuente Alcantara: Historia de Granada III, P. 166-167 & Fernandez y González: Mudejares de Castilla p. 229] & Menendez Pidal: Poesia Juglaresca y Juglares (Colección Austral, n. 300).

(٢) راجع نص رسالة الشقندى فى فضل الأندلس فى (المقرى: نفح الطيب جـ ٤ ص ١٧٧ وما بعدها) راجع كذلك الترجمة الأسبانية لهذه الرسالة تحت عنوان Al-Šaqundi, Elogio] del Islam español (Risala fi fadl al Andalus) traduccion española por Emilio García Gómez (Madrid 1934)].

(٣) أنظر (M. G. Muller: Op. Cit. pp. 1/13) .

التى نشرها فى المجلة الغرناطيه La Estrella de Occidente (نجمة الغرب) فى أغسطس ١٨٨٠ . ولقد استفاد من هذه الأبحاث المؤرخ المالقى Guillen Robles جلين روبلس ، عند ما كتب كتابه المعروف بمالقه المسلمة Malaga Musulmana

وأخيراً جاء أستاذنا العالم الأسبانى المعروف غرسيه غومز E. García Gòmez فترجم رسالة ابن الخطيب الى اللغة الأسبانية وعلق عليها بمعلومات قيمة (١) ، أفدت منها فى معظم ما أوردته من حواشى وتعليقات على هذه الرسالة .

أما الرسالة الثالثة التى كتبها ابن الخطيب عن مشاهداته ، فهى مقاماته المعروفة باسم « معيار الاختبار فى ذكر أحوال المعاهد والديار » . وهى عبارة عن وصف لأهم مدن المغرب الأقصى ، مع وصف ٣٤ مدينة من مملكة غرناطه ، ويتخلل هذا وذاك ذكر محاسن وعيوب كل مدينة .

وقد نشر الجزء الخاص ببلاد غرناطه ، المستشرق الاسبانى فرنسسكو سيمونيت F. Simonet فى آخر كتابه المعروف باسم Descripciôn del Reino de Granade, (Madrid 1860) أى وصف مملكة غرناطه . أما الجزء الخاص بمدن المغرب فقد نشره جوزيف مولر فى كتابه السابق الذكر ، مع اضافة تصويبات لأخطاء وقع فيها سيمونيت فى الجزء الذى نشره (٢) . هذا ولم يحدد كل من الناشرين تاريخ تأليف هذا الكتاب ، بينما يروى ابن الخطيب فى كتاب آخر له ، أن تدوين معيار الاختبار كان فى أثناء المدة التى قضاها فى المنفى بمدينة سلا (٧٦٠ — ٧٦٣هـ) (٣) .

الرحلة الأخيرة التى سجلها ابن الخطيب لم تنشر بعد ، وكانت فى ربوع المغرب الأقصى فى عهد دولة بنى مرين . وذلك ، كما أشرنا من قبل ،

---

(١) أنظر (E. García Gómez : El Parangón entre Malaga y Salé, Al Andalus II, 1934, fasc. I)

(٢) أنظر (M. J. Muller : Op. cit. pp. 47-98) .

(٣) أنظر (ابن الخطيب : نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب لوحة ٦٧) .

عند ما عزل سلطان غرناطه محمد الغنى بالله بواسطة أخيه اسماعيل فى عام ٧٦٠هـ ، واضطر الى الفرار الى المغرب صحبة وزيره ابن الخطيب وبعض أفراد حاشيته ومماليكه . وقد دون ابن الخطيب هذه الرحلة فى كتابه المعروف باسم :

" نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب "[1]

هذا الكتاب يعتبر من مؤلفات ابن الخطيب الجليلة ، وقد نص على ذلك هو نفسه فى متن هذا الكتاب[2] ، وفى بعض مؤلفاته الأخرى[3] ، كما أشار بذلك أيضاً بعض المؤرخين القدامى والمحدثين ممن سيأتى ذكرهم فيما بعد ان شاء الله . على أن ابن الخطيب لم يحدد التاريخ الذى دون فيه كتابه هذا ، وقد ورد فى كتاب الاحاطة للمؤلف نفسه ، عبارة (فى آخر لوحة ٥٠٠)[4] لا أشك أنها من وضع الناسخ ، يقول فيها : « ... من كتاب نفاضة الجراب لابن الخطيب المذكور رحمه الله ، الذى ألفه بالعدوه (أى عدوة المغرب) بعد صرفه عن الأندلس واستقراره بالعدوة بآخرة من عمره وقرب وفاته ، ولذلك سماه نفاضة الجراب » . وواضح من هذه العبارة أن ناسخ الاحاطة يريد أن يقول ان تأليف نفاضة الجراب حدث ببلاد المغرب فى الفترة التى بين ٧٧٣ — ٧٧٦هـ وهى الفترة الأخيرة من حياة ابن الخطيب التى انتهت بمقتله هناك . غير أن شواهد الأمور تدل دلالة قاطعة على أن تأليف هذا الكتاب كان فى فترة أخرى متقدمة قضاها ابن الخطيب بالمغرب أيضاً حينما نفى مع سلطانه المخلوع محمد الغنى بالله ، وهى الفترة التى بين ٧٦٠ الى ٧٦٣هـ . والأدلة على ذلك كثيرة نكتفى منها بالآتى :

---

(١) مخطوط بالاسكوريال رقم ١٧٥٥

(٢) نفاضة الجراب لوحة ١٥٩

(٣) الاحاطة جـ ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٩ ، جـ ٢ ص ٢١٦ (طبعة القاهرة ١٣١٩هـ) ؛ الاحاطة نسخة الاسكوريال لوحات ٣٤٦ ، ٤٣٣ ، ٥٠٠ ؛ أنظر كذلك (اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص ٩١) .

(٤) نسخة الاسكوريال رقم ١٦٧٣

(أولا) جميع حوادث هذا الكتاب سواء أكانت تاريخية أو أدبية أو اجتماعية لا تتعدى نطاق بلاد المغرب فى هذه المدة بالذات ، أو بعبارة أخرى ، هذا الكتاب يعد بمثابة مذكرات شخصية للمؤلف عن المدة التى قضاها منفياً بدولة بنى مرين قبل عودته ثانية الى غرناطه لتسلم مهام منصبه من جديد .

(ثانياً) ابن الخطيب فى كتابه المعروف باسم « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » يشير الى أنه بدأ تدوين هذا الكتاب فى منفاه بالمغرب وانتهى منه فى أول عام ٧٦٥هـ ، ثم ينصح القارئ بالرجوع الى كتابه « نفاضة الجراب » للاستزادة من التفاصيل والأخبار [١] . وهذا يدل على أن تأليف النفاضه كان قبل عام ٧٦٥هـ أى خلال الفترة التى أشرنا اليها آنفاً .

هذا عن تاريخ تأليف الكتاب أما عن عدد أجزائه ، فابن الخطيب يشير فى آخر النسخة التى لدينا ، أن الكتاب يقع فى ثلاثة أسفار[٢] ، ولكنه يعود فيناقض نفسه فى كتاب الاحاطة فيقول : « ونفاضة الجراب فى أربعة أسفار جليلة »[٣] . ولقد أيد هذا العدد الأخير من جاء بعده من المؤرخين سواء أكانوا قدامى أو محدثين نذكر منهم المقرى فى كتابيه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب[٤] ، وأزهار الرياض فى أخبار عياض[٥] كذلك نذكر المستشرق الهولندى دوزى فى كتابه عن بنى عباد ملوك أشبيلية[٦] ، وكذلك العالم الأسبانى بونس بوجس Pons Boigues فى المعجم الذى أفرده للمؤرخين والجغرافيين العرب فى أسبانيا[٧] .

---

(١) أنظر (ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩١ ، ١١٣ ، ١١٩) .

(٢) نفاضة الجراب لوحة ١٥٩

(٣) الاحاطة فى أخبار غرناطة لوحة ٤٣٢ (نسخة الاسكوريال) .

(٤) الجزء التاسع ص ٣٠٤

(٥) الجزء الأول ص ١٨٩

(٦) أنظر (R. Dozy: Loci de Abbadidis, Tome III, p. 167) .

(٧) راجع (Francisco Pons Boigues : Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Géografos Aràbigo - Españoles, p. 343)

وكيفما كان الأمر فى عدد أجزاء هذا الكتاب ، فالمهم هنا أن ما وصلنا منه هو جزء واحد فقط وهو الجزء الثانى باعتراف المؤلف نفسه فى آخر كتابه اذ يقول : « انتهى ، ويليه الجزء الثالث » .

والجزء الذى وصلنا نسخة وحيدة بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٧٥٥ وتقع فى ١٥٩ ورقة من الحجم الكبير ، كل ورقة تحتوى على تسعة عشر سطراً مكتوبة بخط مغربى لا يقرأ بسهولة .

وكان الراهب اللبنانى الغزيرى قد سبق أن أشار فى فهرسه المكتوب باللاتينية عن الكتب العربية بالاسكوريال ، الى وجود الجزء الثالث من نفاضة الجراب تحت رقم ١٨١١[١] .

ولقد تبعه فى هذا الرأى العالم الأسبانى بونس بويجس[٢] والمستشرق الألمانى بروكلمان[٣] . ثم جاء المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال فى الجزء الخاص الذى أفرده لكتب التاريخ فقط بالاسكوريال مكملا فى ذلك فهرسة درنبرج Derenbourg فقال : ان نسخة نفاضة الجراب التى تحمل رقم ١٨١١ غير موجودة اطلاقاً ، وأن النسخة الموجودة من هذا الكتاب هى التى تحمل رقم ١٧٥٥ فقط[٤] .

ثم جاء الراهب الأسبانى ملتشور انطونيا Melchor Antuña الذى كان مديراً لمكتبة الاسكوريال ثم قتله الشيوعيون فى الحرب الأهلية الأسبانية منذ عشرين سنة ، فاستبعد فكرة الغزيرى بخصوص الجزء الثالث وقال بأنه من المحتمل جداً أن يكون هذا الجزء نسخة مكررة للجزء الثاني الموجود حالياً بالمكتبة ، خصوصاً وأن وصف الغزيرى للنسختين كان واحداً تقريباً[٥] .

---

(١) أنظر (Casiri: Bibliotheca Arabico-hispana Escurialensis, II, Matriti 1760-1770

(٢) راجع (F. Pons Boigues: Op. cit. p. 343)

(٣) أنظر (Brock.: Gesch. der Arab. Lit., II, p. 262)

(٤) راجع (Lévi Provençal: Les Manuscrits Arabes de l'Escurial, p. 261)

(٥) أنظر (P. Melchor Antuña; El poligrafo granadino Ibn al Jatib. en la Real Biblioteca del Escorial p. 30-31, Imprenta del Real Monasterio 1926)

ثم يأتي المدير الحالى لمكتبة الاسكوريال وهو الأب موراتا P. N. Murata، فيتكلم عن هذه النسخة المفقودة التى تحمل رقم ١٨١١ ، وينفى وجودها نفياً باتاً ويقول ان هذا الرقم لم يوجد بمكتبة الاسكوريال فى يوم من الأيام بناء على الجرد الشامل الذى قام به لمختلف السجلات والمخطوطات[١] .

وأخيراً وليس آخراً نذهب الى دائرة المعارف الاسلامية ، فنجد أنها لم تشر الى كتاب نفاضة الجراب اطلاقاً وذلك فى المقال الذى أفرده المستشرق زيبولد Seybold عن ابن الخطيب[٢] .

ويبدو أن اختفاء هذا الكتاب قد حدث فى الفترة التى تلت وفاة ابن الخطيب مباشرة . ولعل النكبة التى حلت بهذا المؤرخ الكبير ، لم تكتف بقتله ومصادرة أملاكه ، بل امتدت أيضاً الى مؤلفاته مما دعا بعض الناس الى اخفائها . ويدلنا على ذلك ما رواه أحد المؤرخين المعاصرين لابن ا .. وهو الأمير العلامة أبو الوليد اسماعيل بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر[٣] . يقول هذا الأمير :

---

(١) هذه العبارة موجودة بخط يده باللغة الاسبانيه على هامش مقال انطونيا السالف الذكر وفى العدد المحفوظ بالمكتبة نفسها .

(٢) انظر (Enc. Islam. Art. Ibn al-Khatib)

(٣) هذا الأمير من سلالة بنى الأحمر ملوك غرناطه . خدم فى بلاط بنى مرين بمراكش وتوفى بفاس سنة ٨٠٧ هـ وقيل فى سنة ٨١٠ هـ . كتب مؤلفات عديده نذكر منها :

١ — نثر الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان .

٢ — البقية والمدرك من شعر ابن زمرك .

٣ — روضة النسرين فى ملوك بنى مرين .

أما عن الكتاب الأول فلا يزال مخطوطا وتوجد منه نسخه بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٦٣ —أدب . أما عن الكتاب الثانى ، فلا أعلم عنه سوى ما رواه عنه المقرى فى أزهار الرياض حـ ٢ ص ١١ — ١٢ ؛ أما عن الكتاب الثالث فقد نشره :

G. Marçais, Gh. Bouali: Rawdat En-Nissin. Paris 1917

ثم عثر ليفى بروفنسال على نسخ أخرى من هذا الكتاب الأخير . أنظر

Levi Provençal: Deux nouveau manuscrits de la Rawdat an-Nisrin d'Ibn al Ahmar. Journal Asiatique Oct.-Dec. 1923.

« ونفاضة الجراب فى أربعة أسفار ، وهو من أحسن تآليفه ، ولم أزل أكثر البحث فى هذا التاريخ عنها فلم أقف على عين ولا أثر الا عدة أوراق متفرقة . وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيت بعضها »[1] .

وكيفما كان الأمر فالذى الاحظه جيداً أن المؤرخين المتأخرين أمثال المقرى وابن القاضى والسلاوى قد استفادوا من هذا الكتاب ونقلوا منه بعض أجزائه مع الاشارة الى ذلك صراحة . وبمقابلة هذه الأجزاء المنقولة على نسخة نفاضة الجراب التى لدينا ، لاحظنا أن جزءاً كبيراً منها منقول منها حرفياً[2] ، أما الجزء الآخر فغير موجود أصلا مما يدل على أن هذا النقل قد جاء من بعض أجزاء الكتاب الأخرى التى تعد الآن فى حكم المفقودة[3] .

---

(١) المقرى : ازهار الرياض (حـ ١ ص ١٨٩) .

(٢) الواقع ان ما نقله هؤلاء المؤرخون من نسخة نفاضة الجراب التى لدينا ، كثير جدا خصوصا ماورد منها فى كتاب نفح الطيب للمقرى ، بحيث يضيق المقام هنا عن حصرها . ولهذا آثرت أن اشير الى ذلك فى حينه عند نشر النص ذاته .

(٣) أورد المقرى فى نفحه (حـ ٨ ص ٣١٦ - ٣١٩) وصفا قيما لمدينة مكناسة الزيتون مشيرا الى أنه من كتاب نفاضة الجراب . غير أننا بعد مراجعة هذا النص على النسخة التى لدينا لم نجده مدرجا فيها . وفى موضع آخر من نفح الطيب (حـ ٧ ص ٢٧١) تكلم المقرى عن قاضى مدينة مكناسة أبو محمد عبد الخالق بن سعيد بن محمد وقال إن ابن الخطيب ذكره فى نفاضة الجراب وقال إنه لقيه بمكناسة الزيتون عام ٧٦١ هـ . ولكننى بعد المراجعة أيضا لم أجد ذكرا لاسم هذا القاضى فى النسخة التى معى . كذلك كان الحال بالنسبة لابن القاضى فى كتاب جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس حيث أورد فى ص ٧٨ ترجمة وشعرا للعالم المكناسى احمد بن محمد ابن ابراهيم الأوسى كما أورد فى ص ١١١ ترجمة للفقيه الحسن بن عثمان التجانى وذلك نقلا عن نفاضة الجراب ، ولكننى بعد البحث أيضا لم أجد هذه الترجمات وإلى جانب ذلك فهناك شعر كثير نظمه ابن الخطيب بمدينة فاس فى ذلك الوقت وأورده المقرى فى نفح الطيب نقلا عن نفاضة الجراب ولكننى لم أجد له ذكرا فى النسخة التى لدينا . انظر (نفح الطيب حـ ٨ ص ١٧٨ ، حـ ١٠ ص ١٦٠ - ١٦١) .

من كل ماتقدم يتضح لى أن المقرى نقل الكلام السابق الذكر من الجزء الأول (المفقود) من نفاضة الجراب حيث يصف ابن الخطيب بداية رحلته من العاصمة فاس ثم يتجه جنوبا إلى مدينة مكناسه عام ٧٦١ هـ حيث يتصل بعلمائها ، ثم يواصل رحلته جنوبا إلى أن يصل إلى جبل هنتاته فى اقليم أطلس وهو بداية الجزء الثانى الذى وصل إلينا .

هذا ونلاحظ كذلك أن معظم ما نقله المؤرخون المتأخرون من نفاضة الجراب التى لدينا كان مقصوراً على بعض القصائد الشعرية والرسائل الأدبية . أما النصوص التاريخية فلا زالت جديدة وفى حاجة الى نشر ودراسة. ومن ضمن هذه النصوص التاريخية القيمة ، وصف الرحلة التى قام بها المؤلف فى بعض نواحى المغرب الأقصى خلال فترة منفاه كما سبق أن أشرنا .

وانى أقتصر الآن على نشر هذا النص فقط حرصاً على وحدة الموضوع ، راجياً أن أتمكن فى المستقبل من نشر بقية النصوص على شكل دراسات تاريخية مستقلة ، ان شاء الله .

أما بخصوص هذه الرحلة ، فتجدر الاشارة هنا الى أن ابن الخطيب كان يعتبر الكتاب كله رحلة بل أنه كان يسميه فى بعض الأحيان كتاب الرحلة (١) . والواقع ان اطلاق كلمة رحلة على جميع أجزاء الكتاب فيه شئ من المبالغة والتعميم لأن الكتاب كما هو واضح من عنوانه (نفاضة الجراب) عبارة عن خليط عجيب من النثر والشعر والتاريخ . أما وصف الرحلة فى حد ذاته فيقع فى الواحد وعشرين ورقة الأولى من هذا المخطوط .

ويلاحظ من بداية هذا الوصف أن الرحلة ناقصة غير كاملة . اذ أنه يبدأ ، وبدون مقدمات ، بالصعود الى جبل هنتاته ، وهو جبل ناء بمنطقة جبال أطلس . فلا شك أن بداية هذه الرحلة تقع فى الجزء الأول المفقود من هذا الكتاب .

ومهما يكن من شئ ، فالنص الذى لدينا يبدأ كما قلنا بصعود ابن الخطيب الى جبل هنتاته نسبة الى قبيلة هنتاته (بكسر الهاء أو فتحها) التى كانت تسكنه ، وهى فرع من قبائل مصموده الضاربة فى غرب اقليم أطلس (٢) .

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطه لوحة ٣٤٦ (نسخة الاسكوريال)

(٢) انظر (J. Leon Africano: Descripción de Africa p. 10, Tetuan 1952)

وفى هذا الجبل يصف ابن الخطيب المكان الذى توفى فيه السلطان المرينى أبو الحسن على ، بعد أن ثار عليه ابنه أبو عنان فارس . كذلك يصف معيشة شيوخ قبيلة هنتاته وأنواع المآكل والمشارب التى قدموها له ، وهو وصف على جانب كبير من الأهمية .

ويواصل ابن الخطيب رحلته الى مدينة أغمات ، وهنا يتكلم عن محاسن هذه المدينة وسذاجة أهلها وعن شخصياتها وآثارها . ومن بين ذلك ما ذكره عن مسجدها ومئذنته المخروطية الشكل وهو نص عظيم الأهمية من الناحية المعارية الأثرية . وقد زار ابن الخطيب فى هذه المدينة قبر[1] الملك الشاعر المعتمد بن عباد ملك أشبيلية وأحد ملوك الطوائف الذى نفاه المرابطون الى هذا المكان بعد أن استولوا على الأندلس فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وقد مدحه ابن الخطيب بقصيدة جميلة نشرها وترجمها المؤرخ الهولندى المعروف دوزى ضمن النصوص التى قدمها عن أسرة بنى عباد[2] .

بعد ذلك يعود ابن الخطيب الى مدينة سلا ماراً فى طريقه بمدن مختلفة مثل دكّاله وأزمور وآسفى ومراكش . فأخذ يصف هذه المدن وما فيها من مساجد ومدارس ومكتبات وجبانات ، كما أشار الى من اتصل به من علمائها وشيوخها . وأخيراً ينتهى به المطاف الى مدينة سلا Salé على ساحل المحيط الأطلنطى بأقصى المغرب . وهناك استقر ابن الخطيب فى ضاحيتها المعروفة باسم شاله Chella ، حيث الجبانة الملكية لبنى مرين[3] .

(١) انظر (E. Garcia Gómez; El supuesto Sepulcro de Mu'tamid de Sevilla en Agmat; Al Andalus XVIII, 1953)

(٢) انظر (R. Dozy; Loci de Abbadidis, T. II, pp. 222-223)

(٣) انظر (Henri Basset et Levi Provençal: Chella: Une nécropole merenide p. 157 (Paris 1922)) .

يقول المقرى فى هذا الصدد : « وفى شاله سلا رابط ابن الخطيب بجوار أضرحة ملوك بني مرين سائلا لهم من المولى عز وجل الرحمة والغفران »[1] .

ولقد عاد عليه هذا العمل بخير جسيم ، اذ تفضل السلطان المرينى أبو سالم فأمر بأن يصرف له من مجبى مدينة سلا مرتب شهرى له ولولده مبلغ خمسمائة دينار ، وأن يعفى من كل مغرم أو ضريبة ، وأن يرفع الاعتراض فيما يجلب له من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه فيما يستفيد خدامه من عنب وقطن وفاكهة وخضر ... الخ[2] .

وهكذا تنتهى رحلة ابن الخطيب ، ونلاحظ أن أسلوبه الكتابى فيها ، وفى كتاب نفاضة الجراب بصفة عامة ، يختلف عن أسلوب رحلاته الأخرى ، بمعنى أنه لم يتخذ طابع فن المقامات المعروف بالسجع والتقفيه ، بل كان كلاماً مرسلا جزلا فى غالب الأحيان[3] . غير أن أسلوب ابن الخطيب ، سواء فى هذا أو ذاك ، نراه بصفة عامة بادى التكلف ، مليئاً بالصنعة اللفظية والمحسنات البديعية التى كانت سائدة فى العالم الاسلامى فى ذلك الوقت .

هذا وقبل أن نختم الكلام فى هذا الموضوع ، ينبغى أن نشير الى أن ابن الخطيب كان يزمع القيام برحلة الى بلاد المشرق لتأدية فريضة الحج والاتصال بالأوساط العلمية فيها . غير أن أعباء منصبه — كما يقول هو — قد حالت دون تحقيق مأربه . الا أن ابن الخطيب قد نفّس عن هذه الرغبة المكبوتة بأن أرسل ابنه أباالحسن على الى المشرق ليأخذ العلم على علماء عصره

---

(1) المقرى : نفح الطيب (ج ٨ ص ٣٢٢) .

(2) المقرى : نفح الطيب (ج ٨ ص ١١٧ – ١١٨) .

(3) المقرى : نفح الطيب (ج ٨ ص ٣١٦).

هناك ، كما أرسل كتبه [1] وأمواله [2] الى القاهرة ليستفيد بها طلبة العلم هناك .

وبعد فمثل هذه الروح النشطة ، والحيوية المتدفقة ، ثم هذه الدقة فى الملاحظة التى امتازت بها جميع أوصافه ومشاهداته ، تدل جميعاً على أن ابن الخطيب رحالة من الطراز الأول .

ولا يسعنى فى ختام هذه المقدمة الا أن أوجه خالص شكرى الى صديقى الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، اذ تفضل بمراجعة بعض نصوص هذا الكتاب مبدياً من الملاحظات والنصائح ما دل على غزارة علمه وسمو أخلاقه ...

يناير ١٩٥٨ — احمد مختار العبادى

---

(١) ومثال ذلك كتاب الاحاطة فى اخبار غرناطه وكتاب روضة التعريف بالحب الشريف . والأول لازالت توجد منه نسخة برواق المغاربة بالأزهر والثانى موجود بالمكتبة الظاهرية بدمشق. راجع كذلك (المقرى : نفح الطيب حـ ١٠ ص ١٦٤ — ١٦٥) .

(٢) انظر (المقرى : نفح الطيب حـ ٩ ص ٣١١) .

الرسالة الأولى

خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه

خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف

للكاتب والأديب الناظم الناثر ذى الوزارتين

أبى عبد الله بن الخطيب

تغمده الله برحمته بمنه وكرمه(١)،(٢)

[لوحه ٥١] نحمد الله حمد معترف بحقه، ونشكره على عوائد فضله ورفقه، الذى جعل لنا الأرض ذلولا نمشى فى مناكبها، ونأكل من رزقه، ونصلى على سيدنا ومولانا محمد خيرته من خلقه، ونستوهب للمقام المولوى اليوسفى النصرى سعداً يتلألأ نور أفقه، ونصراً يتلى بغرب المعمور وشرقه. (ونقول)(٣)

وقائلة صف لى فديتك رحلةً ... عنيت بها يا شقّة القلب من بعد

فقلت خذيها من لسان بلاغة ... كما نُظِّمَ الياقوتُ والدُّرُ فى عقد

---

(١) تتفق نسخة المخطوطه رقم ٤٧٠ التى رمزنا لها بحرف (ا) مع نسخة الريحانه (ب) فى عباراتها ومعانيها وروحها مما لا يثير شكا فى أن المؤلف واحد وهو بن الخطيب كما نصت على ذلك كلتا الرسالتين. على أننا نلاحظ اختلافا بين النسختين فى بعض الألفاظ والعبارات، كما نلاحظ أن نسخة (ا) رغم كونها مجهولة الناسخ تحتوى على فقرات أكثر من نسخة (ب) ولهذا اتخذناها أصلا للنشر وان كانت هى الأخرى لم تسلم من الألفاظ المحرفه. هذا وقد بينا فى الحواشى ماورد فى النسختين من فروقات وأخطاء.

(٢) هذا العنوان كما ورد فى (ا) وهو اكمل وأوفى من (ب) حيث أقتصر على الصيغة التالية: " ومن ذلك المقامه المسماه بخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف ". هذا وينبغى ان نشير ان كلا من حاجى خليفه وبونس بويجس لم يشيرا إلى هذه الرسالة أصلا، كما لم يشر اليها ابن الخطيب نفسه ضمن مجموعة مؤلفاته التى نص عليها فى كتابيه الاحاطه، ونفاضة الجراب.

(٣) زياده عن (ب).

لما وقع العزم الذى وفّقه [1] الله على مصالح هذه الجزيرة ، والقصد المعرب عن كريم العقيدة وفضل السريرة ، على تفقد بلادها وأقطارها ، وتمهيد أوطانها ، وتيسير أوطارها ، رأى من قلده الله أمورها ، ووكل الى حمايته ثغورها ، مولانا وعصمة ديننا ودنيانا أمير المسلمين وظل الله على العالمين أبو الحجاج [2] بن مولانا أمير المسلمين وكبير الملوك العادلين [3] الصالحين أبى الوليد [4] اسماعيل بن [5] مولانا الهمام الأعلى ، الذى تروى مفاخره وتتلى ، ابى سعيد [6] حفظ الله منه على الأيام بحر الندى ، وبدر المنتدى ، وسابق الفخر البعيد المدى [7] ، وشمله برواق عصمته كلما راح واغتدى ، أن يباشرها بنفسه ، ويجعل آفاقها مطالع شمسه ، نظراً للاسلام وقياماً بحقه ، وعملا على ما يقربه ممن استخلفه على خلقه ، فى وجهة خالفها الغمام المنسجم [8] ، وقصبة [9] قضى لها بالسعد من لا ينجم [10] ، فكان البروز اليها [11] يوم الأحد سابع عشر (شهر) [12] المحرم فاتح عام ثمانية وأربعين وسبعمائة .

---

(1) فى (ب) وفقه والمتن أصح .

(2) سقط هذا الاسم فى (ا) .

(3) فى (ب) المجاهدين .

(4) " ابى " ساقطه فى (ا) .

(5) فى (ب) " ابن " .

(6) فى (ا) ، سعيد بن نصر .

(7) ساقطه فى (ا) .

(8) فى (ب) المثجم .

(9) كذا فى (ا) ، (ب) وقد كتبها مولر " ونصبه " .

(10) كذا فى (ا) ، (ب) وكتبها مولر ينحجم .

(11) لها فى (ا) .

(12) زياده عن (ا) .

[٥٢] خرجنا وصفحة الأفق بالغيم متنقبة[١] ، وأدمع السحب لوداعنا منسكبة نتبع من الراية الحمراء دليلا هادياً ، (وتغترف من وجهتنا الجهادية سناء بادياً) [٢] ، ونثق بوعد الله سبحانه فى قوله ولا يقطعون وادياً . وسلكنا جادة الماء المفروش نسرح اللحاظ بين تلك العروش ، ونبتذل [٣] ما نحلته عروس الربيع من تلك الفروش ، ومن له بالحضرة حرسها الله شوق حثيث ، وهوى قديم وحديث ، يكثر الالتفات ، ويتذكر لما فات ويبوح بشجنه ، وينشد مشيراً الى سكنه .

يوم أزمعتُ عنك [٤] طيّ البعاد ... وعدتنى عن (الوداع)[٥] العوادى
قال صحبي وقد أطلت التفاتى ... أى شئ تركت قلت فؤادى

وربما غلبته لواعج أشواقه ، وشبت زافراته عن أطواقه ، فعبر عن وجده ، وخاطب (الحضرة) [٦] معرباً عن حسن عهده :

الا عم صباحاً أيها الربع وأسلم ... ودم فى جوار الله غير مذمم
ولا عدمت أرجاؤك النور انها ... مطالع أقمارى وآفاق انجم[٧]
اذا نسى الناس العهود وأغفلوا ... فعهدك فى قلبي وذكرك فى فم[٨]
وانى وان أزمعت عنك لطية ... وقوضت رحلى عنك دون تلوّم
فقلبي لك البيت العتيق مقامه ... وشوقى احرامى ودمعى زمزم

---

(١) فى (ب) متنقبه .
(٢) هذه العبارة لم ترد فى (ب) .
(٣) وردت فى النسختين ونبتدل وصحتها كما فى المتن .
(٤) كذا فى (ب) وفى الأصل طوع .
(٥) كذا فى الأصل وفى (ب) البعاد .
(٦) فى (ا) المعاهد .
(٧) فى (ب) انجمى .
(٨) فى (ب) فى ./.

ثم استقلت بنا الحمول ، وكان بوادى فردس [1] النزول ، منزل خصيب ومحل له (من) [2] الحسن نصيب . ولما ابتسم ثغر الصباح ، وبشرت بمقدمه نسمات الرياح ، الغينا [3] عمل السرّاج الى الاسراج ، وشرعنا فى السير الدائب ، وصرفنا الى وادى آش [4] صروف الركائب . واجتزنا بوادى حمّتها [5] ، وقد متع النهار ، وتأرجت الأزهار ، فشاهدنا به معالم الأعلام ، وحيينا دار حمدة بالسلام ، وتذاكرنا عمارة نواديها ، وتناشدنا قولها فى واديها :

أباح الشوق أسرارى بوادى ... لـه فى الحسن آثـار بوادى
[٥٣] فمن واد يطوف بكل روض ... ومن روض يطوف بكل وادى
ومن بين الظباء مهاة [6] رمل [7] ... سبت قلبي وقد ملكت فؤادى
لهـــا لحـــظ ترقّده لأمر ... وذاك الأمر يمنعنى رقادى
كأن البدر مات لـه شقيق ... فمن حزن تسربل بالحداد [8]

واستقبلنا البلدة حرسها الله فى تبريز سلب الأعياد احتفالها ، وغصبها حسنها ، وجمالها نادى بأهل المدينة ، موعدكم يوم الزينة ، فسمحت الحجال بربّاتها ، والقلوب بحبّاتها ، والمقاصر بحورها ، والمنازل ببدورها . فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب وتدافع البدور بالصدور بيضاء كأسراب الحمائم ،

---

(١) Rio Fardes ، وقد وردت فى (ب) " فرذس " والمتن أصح .

(٢) فى (ا) عن .

(٣) كذا فى (ا ، ب) وقد قرأها مولر القينا .

(٤) مدينة وادى آش أو وادى إيش واسمها القديم Acci وتعرف اليوم باسم Guadix وتقع هذه المدينة على نهر فردس على مسافة ٥٣ كم شمال شرق غرناطه . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٩٢ — ١٩٣ ، نشر ليفى بروفنسال ١٩٣٧) انظر كذلك (Seybold, Enc. Isl. II p. 189)

(٥) Rio Alhama .

(٦) فى الأصل مهات .

(٧) فى (ب) تقر .

(٨) هذا البيت زياده عن (ب) .

متلفعات بروضهن تلفع الأزهار بالكمائم[1] ، حتى (اذا)[2] قضى القوم من سلامهم على إمامهم فرضاً ، واستوفينا[3] أعيانهم تمييزاً وعرضاً ، خيمنا ببعض (رباها[4] المطلة[5]) ، وسرحنا العيون فى تلك العمالة المغلة ، والزروع المستغلة ، فحباها الله من بلدة (أنيقة)[6] الساحة ، (رحبة المساحة)[7] ، نهرها مطرد ، وطائرها غرد ، تبكى السحاب فيضحك نورها ويدندن النسيم فترقص[8] حورها .

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حسن جناحه الطاووس[9]
فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

معقلها بادى الجهامة[10] ، تلوح عليه سمة الشهامة ، نفقت سوق النفاق دهراً ، وخطبتها الملوك فلم ترض الا النفوس مهراً ، طالما تعرفت وتنكرت ، وحجتها نعم الأيالة النصرية فأنكرت ، ومسها طائف من الشيطان ثم تذكرت ، فالحمد لله الذى أن[11] هداها بعد أن تبت يداها ، فجف من فتنتها ما نبع ، وانقادت الى الحق والحق أحق أن يتبع ، وتنافس أهلها فى البر الكفيل ،

---

(1) وردت هذه العباره فى (ب) : متنقبات تنقب الأزهار بالكمايم .

(2) الزياده عن (ب) .

(3) فى (ا) ، واستوفى .

(4 و5) كذا فى (ب) وقد وردت فى (ا) : ربها المطلت .

(6) كذا فى (ب) وفى (ا) انيقيه .

(7) الزياده عن (ب) .

(8) فى (ب) فيرقص .

(9) فى (ب) : وكساه ريش جناحه الطاووس .

(10) كذا فى النسختين وقرأها موار الجمامه .

(11) فى (ب) : الذى هداها .

والقرى الجميل[1] ، فبتنا نثنى على مكارمهم الوافية ، وفواضلهم (الكافية)[2] ، ولم نحفل بقول (ابن)[3] أبى العافيه : [٥٤]

اذا ما مررت بوادى الأشا فقل رب من لدغة سلم
وكيف السلامة فى منزل فيه[4] عصبة من بنى أرقم

ولما فاض نهر الصباح على البطاح ونادى منادى الصلاة حى على الفلاح ، قدمنا الرواحل[5] لارتياد منزل ، وقمنا[6] عن أتباع آثارها بمعزل نظراً للمدينة فى مهمات الأمور . وكان اللحاق بغور[7] ، من بعض تلك الثغور ، أتيناها والنفوس مستبشرة ، والقباب لأهلها منتظرة ، فحمدنا الله على كمال العافية ، وقلنا فى غرض تجنيس القافية :

ولما اجتلينا من نجوم قبابنا سنا كل خفاق الرواق بغور
زرينا على شهب السماء بشهبها متى شئت يا زهر الثواقب غور[8]

أظلتنا بها ليلة شاتية ، والحفتنا أنواء الأرض مراثية[9] . فلما شاب مفرق الليل ، وشمرت[10] الآفاق من بزتها العباسية[11] فضول الذيل ، بكرنا

---

(١) كذا فى الاصل وفى (ب) الحفيل وهى أحسن .

(٢) الزياده عن (ب) .

(٣) الزياده عن (ب) .

(٤) فى (ب) : به .

(٥) كذا فى (ا) وفى (ب) قمنا للرواحل .

(٦) فى (ب) وأقمنا .

(٧) Gor .

(٨) فى (ب) غورى .

(٩) فى (ب) : والحقتنا أنواء الأرض مؤاتيه .

(١٠) كذا فى (ا ، ب) وقرأها مولر وشهرت .

(١١) يقصد السواد شعار العباسيين .

نغتنم أيام التشريق ، وندوس بأرجلنا حيات الطريق . وجزنا فى كنف اليمن والقبول بحصن الببول[١] ، حسنة الدولة (اليوسفية)[٢] ، واحدى اللطائف[٣] الخفية ، تكفل الرفاق بأمنها ، وفضح سرية العدو فى مكمنها من أبيض كالغارة[٤] ضمن الفوز فى تلك المفازة[٥] فحييناه بأيمن طير وتمثلنا عنده[٦] بقول زهير :

وسكنتها حتى اذا هبت الصبا ... بنعمان لم تهتز فى الأيك أغصان
ولم تك[٧] فيها مقلة تعرف الكرى ... فان[٨] زارها طيف مضى وهو غضبان

وكان ملقى الحران منابت الزعفران بَسْطَة[٩] حرسها الله ، وما بسطة محل خصيب ، وبلدة لها من اسمها نصيب ، بحر الطعام ، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام . ومعدن ما زين للناس حبه من الحرث والأنعام . يالها من عقيلة ، صفحتها صقيلة ، وخريدة ، محاسنها فريدة ، وعشيقة (نزعاتها)[١٠] رشيقة ، لبست حلى[١١] الديباج الموشى ، [٥٥] مفضضة

---

(١) Baul .

(٢) كذا فى (ب) بينما وردت فى (ا) التاسفيه والمتن اصح .

(٣) فى (ا) الطائف .

(٤) فى (ا) كالفاره .

(٥) فى (ب) المغاره .

(٦) فى (ا) عندها .

(٧) فى (ب) يك . .

(٨) فى (ب) فلو .

(٩) بسطة وهى مدينة Basti القديمة وتعرف اليوم باسم Baza وتقع فى شمال شرق غرناطه بنحو ١٢٣ كم. ويروى صاحب الروض المعطار ص ٤٥ أن هذه المدينة كانت مشهوره بمنتجاتها الزراعية ولاسيما الزيتون وبمنسوجاتها الحريرية وينسب اليها الوطاء البسطى من الديباج الذى لايعلم له نظير .

(١٠) كذا فى (ب) وفى (ا) نزعتها .

(١١) فى (ب) حلة .

بلجين الضحى ، مذهبة بنضار العشا[1] ، وسفرت عن المنظر البهى ، وتبسمت عن الشنب الشهى وتباهت بحصونها مباهاة الشجرة الشماء بغصونها ، فوقع النفير وتسابق الى لقائنا الجم الغفير ، تمثّل الفرسان صفاً ، وانتشر الرّجل جناحاً ملتفاً[2] ، واختلط الولدان بالولائد ، والتمائم بالقلائد فى حفل سلب النهى[3] ، وجمع البدر والسهى ، والضراغم والمها ، وألّف بين القانى والفاقع ، وسدّ بالمحاجر كوى البراقع ، فلا أقسم بهذا البلد وحسن منظره الذى يشفى من الكمد لو نظر الشاعر إلى نوره المتألق لآثرها بقوله فى صفة بلاد جلّق :

بلادٌ بها الحصباءُ درٌ وتربُها عبيرٌ وأنفاسُ الرياحِ شمولُ
تسلسل منها ماؤها وهو مطلقٌ وصحّ نسيمُ الروضِ وهو عليلُ

رمت الى غرض الفخر بالسهم المصيب ، وأخذت من أقسام الفضل بأوفى نصيب ، وكفاها بمسجد الجنة دليلا على البركة ، وبباب المسك عنواناً على الطيب يغمر من القرى موج كموج البحر . الا أن الرياح لاعبتنا ملاعبة الصراع ، وكدرت القرى بالقراع ، فلقينا من الريح ما يلقاه قلب المتيم من التبريح ، وكلما شكت اليها المضارب شكوى الجريح ، تركتها بين المائل والطريح .

ولما توسط الواقع ، والتقمت[4] أنجم الغرب[5] المواقع ، صدقتنا[6] الريح الكرّة ، وجادتنا الغمائم[7] كل عين ثرّة[8] ، حتى جهلت الأوقات ،

---

(1) العسى فى (ا) .
(2) فى (ا) متلفا .
(3) فى (ا) النها .
(4) فى (ا) والتقحت .
(5) فى (ب) العرب .
(6) فى (ب) صدقت .
(7) فى (ب) الغمام .
(8) ثره أى الماء الغزير وردت فى (ا) طره وفى (ب) تره ولعل صحتها كا فى المتن .

واستراب الثقات ، فتستر الفجر بنقابه ، وانحجز [1] السرحان فى غابه ، وكان أداء الواجب بعد خروج الحاجب ؛ وارتحلنا [2] وقد أذن الله للسماء فأصحت ، وللغيوم فتنحت [3] ، وللريح فلانت [٥٦] بعد ما ألحت ، وساعد التيسير ، وكان على طريق قنالش [4] المسير ، كبرى بناتها وشبيهتها فى جداولها وجناتها ، ما شئت من أدواح توشحت بالنور وتتوجت ، وغدران زرع هبت عليها الصبا فتموجت ، سفر بها الشقيق الأرجوانى عن خدود الغوانى ، فأجلنا العيون فى رياض ، وتذكرنا قول القاضى عياض

أنظــر إلى الزرع وخاماته يحكى ... وقد ماس أمـــام الريــاح
كتيبــة خضــــراء مهزومــة ... شقائق النعمان فيهــا جــراح

مثل أهلها فسلموا ، ومن عدم النزول بهم تألموا . وأتينا فحص الأنصار فتجددت له ملابس المجادة ، وتذكر عهود من حل به عند الفتح الأول من السادة ، لما خفقت به راية سعد بن عباده [5] . ولم تزل الركائب تفلى الفلاة فرى الأديم ، وأهلة السنابك صيرها السير كالعرجون القديم ، حتى الحفتنا شجرات المصنبر بشذاها المعنبر [6] . وراقتنا بحسن ذلك المنظر سوار مصفوفة ، وأعلام خضر ملفوفة ، ونخل يانعة البسوق ، وعذارى كشفت [7] حللها [8] الخضر عن الشوق ، كأنها شمرت الأذيال [9] لتعبر

---

(١) فى (ب) وانحجر .

(٢) وقد ارتحلنا زيادة فى (ا) .

(٣) فى (ب) فشحت .

(٤) وهى الآن Canales انظر (Simonet : op. cit. p. 134) .

(٥) سعد بن عباده رئيس قبيلة الخزرج وزعيم الانصار بالمدينه المنوره على عهد الرسول (صلعم) وصاحب سقيفة بنى ساعده التى تمت فيها بيعة أبى بكر الصديق بالخلافة . ، وينتمى اليه بنو الاحمر ملوك غرناطه .

(٦) فى (ب) العنبر .

(٧) فى (ا) كسفت .

(٨) فى (ا) حلاها .

(٩) فى (ا) الأديال .

الوادى ، على عادة نساء البوادى ، ينساب بينها الزلال المروّق ، ويغنى فوقها الحمام المطوّق ، فتهيج الجوى وتجدد عهود الهوى [1] ، صبحتنا بها أصوات تلك القمارى ، وأذكرتنا قول بن حصن الحجّارى :

وما راعنى الا ابن ورقاء هاتف … على فنن بين الجزيرة والنهر
أدار على الياقوت أجفان لؤلؤ … وصاغ على المرجان طوقاً من التبر
حديد شبا المنقار داج كأنه … شبا قلم من فضة مد فى حبرى [2]
توسّد من عود [3] الأراك … ومال على طى الجناح مع الفجر [4]
ولما رأى دمعى مراقاً أرابه … بكائى فاستولى على الغصن النضر
وحث [5] جناحيه وصفق طائراً … فطار بقلبى حيث طار ولا أدرى
(مفستق طوق الأزودى كلكل … موشى الطلى احدى القوادم والظهر) [6]

ونزلنا بظاهر حصن شيرون [7] ، وقد ترعرع شباب اليوم ، وطالبنا غريم الظهيرة بمنكسر فرض النوم ، حصن أشم ، ومناخ لا يذم . نزلنا الهضبة بازائه ، وغمرنا من بره ما عجزنا عن جزائه ، وعثرنا بين المضارب ، ببعض العقارب ، سود الرؤوس ، متوجة بأذنابها فى شكل الطاؤوس ، فتلقينا ذلك بسعة الصدر وقلنا العقرب من منازل البدر . ورحلنا بمثل تلك الصورة ، نلتحف ظلال وادى المنصورة [8] ، سمر الأندية ، وسلطان

---

(1) فى (ب) النوى .

(2) فى (ب) تبر .

(3) فى (ب) فوق .

(4) فى (ب) الصدر .

(5) فى (ا) وحتى .

(6) هذا البيت لم يرد فى (ب) .

(7) Seron .

(8) وادى المنصوره : Guadalmanzor ، Rio de Almanzor ، ويسميه العرب ايضا وادى بيره لأنه يصب مياهه فى البحر المتوسط عند بلدة بيره Vera . انظر (Simonet : Descripcion del reino de Granada p. 111) .

الأودية . يالها من أرائك مهدلة السجوف[1]، وجنات دانية القطوف، ينساب بينها للعذب الزلال ، أرقم سريع الانسلال [2] ، وصارم [3] يغمد فى جفون الظلال ، يتلاعب بين أيدينا شمالا ويميناً ، فطوراً تنقلب عصاه ثعباناً ، وآونة تنعطف [4] صولجاناً ، وتارة تستدير أفلاكاً ، وربما نسجت منه أيدى الرياح شباكاً [5] ، وأمّ حسن فيه ذات لسن ، تبعث بنغماتها لواعج الشجون [6] ، وتقيم دين ابنها [7] فى الخلاعة والمجون . وسرنا ودر الحصى بساط الأرجل ركابنا ، ودنانير أبى الطيب تنثر فوق أثوابنا ، ترقب نجوم القلاع والحصون ، من خلل سحاب الغصون . والنساء[8] الى مشاهدة التبزيز قد حفّت ، وبشاطئ الوادى قد صفّت ، قد أبرزن [9] الثنايا [ببروق الثنايا] [10]، وسدّدن سهام المنايا ، عن حواجب، كالحنايا ، يشغلن [٥٨] الفتى[11] عن شئونه، ويسلبن الروض لين ...ونه، هذا[12] خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه .

---

(1) السحوف فى (ا) .

(2) الاشلال فى (ا) .

(3) وسارم فى (ا) .

(4) تنعطف فى (ب) .

(5) شباكا فى (ب) .

(6) الشؤون فى (ب) .

(7) ولدها فى (ب) .

(8) النسوان فى (ب) .

(9) احزن فى (ب) .

(10) الزيادة عن (ب) .

(11) العتا فى (ب) .

(12) ساقطة فى (ا) .

وطالعنا بُرْشانة[1] حرسها الله، فحيتنا ببواكر الورد، ونضت عنا برود البرد، وشملتنا بالهواء المعتدل، وأظلتنا برواقها المنسدل. بلد أعيان وصدور، ومطلع نجوم وبدور، وقلعة سامية الجلال، مختمة بالكواكب متوجة بالهلال. حللناها فى التبريز الحفيل، والمشهد الجامع بين الذرّة[2] والفيل، حشر أهلها بين دان ونازح، ومَثُل حاميتها من نابل ورامح، فكان ذلك المجتمع عيداً، وموسماً سعيداً[3]، وبتنا فى ليلة للأنس جامعة، ولداع السرور سامعة. حتى اذا الفجر تبلج، والصبح من باب المشرق تولج، سرنا وتوفيق الله قائد، ولنا من عنايته صلة وعائد، تتلقى ركابنا الأفواج، وتحيينا الهضاب والفجاج الى قنّوريه[4]، [حرسها الله][5]، فناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال، قريبة البكر من الآصال. كان المبيت بازاء قلعتها السامية الارتفاع، الشهيرة الامتناع، وقد برز أهلها فى العديد والعدة، والاحتفال الذى قدم به العهد على طول المدة، صفوفاً بتلك البقعة، خيلا ورجلا كشطرنج الرقعة، لم يتخلف ولد عن والد، وركب قاضيها ابن أبى خالد[6]، وقد شهرته النزعة الحجازية، ولبس من حسن الحجى زية[7]، وأرمى من البياض طيلساناً وصبغ لحيته بالحناء

---

(1) برشانة Purchena، حصن هام فى ولاية المرية ويقع على نهر المنصورة السالف الذكر. هذا وينبغى الاشارة الى وجود مكان آخر بهذا الاسم فى ولاية جيّان راجع (الروض المعطار ص ٥٢ حاشيه ١).

(2) الدره فى (ا).

(3) هذه العباره زياده عن (ب).

(4) كذا، وترد أيضا باسم قنتوريه وهو الأصح، واسمها حاليا Cantoria، وتقع فى جنوب برشانه وعلى نهر المنصورة ايضا.

(5) زيادة عن (ب).

(6) راجع ترجمته فى (المقرى: نفح الطيب حـ ٣ ص ٢٨٤ - ٢٧٨).

(7) فى (ا، ب) وفى مولر كتبت الحجازيه، غير أن المعنى يستقيم كما كتبناها فى المتن على اساس كلمتين. وكما كتبها ان الخطيب نفسه فى موضع آخر. راجع (نفاضة الجراب ورقه١٨).

والكتّم ، ولاث عمامته واختتم ، والبداوة تسِمه على الخرطوم ، وطبع الماء والهواء يقوده قود الجمل المخطوم ، فداعبته مداعبة الأديب للأديب ، وخبرته [٥٩] بين خصلتى الذيب ، وقلت نظمت مقطوعتين احداهما مدح والأخرى قدح ، فان همت دِيمتك وكرمت شيمتك فللذين أحسنوا الحسنى والا فالمثل الأدنى . فقال انشدنى لأرى على أى الأمرين أثب ، وأفرق بين ما اجتنى [وما][1] أجتنب ، فقلت :

قالوا وقد عظمت مبرة خالد ... قارى الضيوف بطارف وبتالد
ماذا أتمت[2] بـه فجئت بحجة ... قطعت بكل مجـادل ومجـالد
ان يفترق نسب يؤلف[3] بيننا ... أدب أقمنـــاه مقـــام الوالد

وأما الثانية فيكفى من البارق شعاعه ،وحسبك من شر سماعه ، ويسير[4] التنبيه كاف للنبيه . فقال : لست الى قراى بذى حاجة ، واذا عزمت فاصالحك على دجاجة ، فقلت : ضريبة غريبة ، ومؤونة قريبة ، عـَجِّل ولا تؤجل ، وان انصرم أمد النهار فأسجل . فلم يكن الا كلا ولا ، وأعوانه من القلعة تنحدر ، والبشير منهم بقدومها يبتدر ، يزفونها كالعروس فوق الرؤوس ، فمن قائل أمها البجاييّه ، وقائل أخوها الخصى الموجه الى الحضرة العليه . وأدنوا مربطها من المضرب عند صلاة المغرب ، والحفوا فى السؤال ، وتشططوا فى طلب النوال فقلت يا بنى اللكيعة ، ولو جئتم ببازى بماذا كنت أجازى ، فانصرفوا وما كادوا يفعلون ، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون حتى اذا سُلّت لذكاتها المُدى ، وبلغ من عمرها المدى ، قلت : يا قوم ، ظفرتم بقرة العين ، وابشروا باقتراب اللقاء فقد ذبحت لكم غراب البين . وكانت البلاد الشرقية قد اخلفتها الغيوث وعدت عليها للعدو الليوث ،

---

(١) ما الثانيه زياده عن (ا) .
(٢) فى (ب) نمت .
(٣) فى (ا) يألف .
(٤) فى (ب) وتيسير .

فحيتنا على الشحط ، وشكت الى سعادة مقدمنا معرة القحط . فظهرت مخيلة السعد ، فأذن الله فى انجاز الوعد ، وقرّبت غريم الغمائم[1] فى المقام أعوان الرعد ، فاعترف [٦٠] وسمح وانقاد لحكم القضاء بعد ما جمح . ولم يسلم[2] بكيف ولا حتى ، وقضاها المدين[3] فى دُدَفع شتّى . هذا وان كان انما وان عزم ، وأمده كاد أن ينصرم ، فنفعته بحول الله كبرى ، وفيه مآرب أخرى . فتنفس صدر الجو وزفر ، وقطب وجهه بعد ما سفر ، وسحّ[4] الغمام وانسكب ، وارتكب[5] من أمر الهنا[6] ما ارتكب ، فلم تجف له قطره ، ولا خطرت بباله للصحو خطره ، فسئمنا ذلك العارض الحطال[7] ، وسهرنا الليل وقد طال ، وما راعنا والصبح قد نم من خلف الحجاب ، وقضيته قد انتقلت من السلب[8] الى الايجاب ، والغمام لا يفتر انسكابه الا السلطان قد ارتحل ركابه . فضربنا بالقباب وجه الصعيد ، واستقبلنا طية الغرض البعيد ، نهيم فى ذلك الوادى ، ونكرع من أطواقنا فى غدران الغوادى وقد تهدلت الفروع ، وخضلت بالغيث تلك الزروع ، كأنما اخلفتها[9] الريح فترامت ، وسقتها[10] كؤوس السحب حتى سكرت

(١) فى (ب) الغمام .

(٢) فى (ب) ولم يلم .

(٣) فى (ب) الدين

(٤) فى (ب) وهما .

(٥) فى (ا) "وزفر وارتكب" وهو تكرار لا مبرر له .

(٦) فى (ا) المنا ، وقرأها مولر من ايراطنا .

(٧) كذا فى (ا ، ب) وقراها مولر المطل .

(٨) فى (ب) النفى .

(٩) فى (ا) أخافتها .

(١٠) فى (ا) وسقتنا .

ونامت ، والمذانب [١] أمثال الصلال قد تفرعت وكأنما رعناها [٢] فانسابت أمامنا واسرعت ، ومخيلة الصحو لا تتوسم والجو تستضحكه بشأننا فلا يتبسم . ومررنا بوادى المنصورة التى نسب الوادى اليها ، وعرضت مراكب تياره بين يديها وأطلالها بالية . وبيوتها خاوية خالية ، ومسجدها بادى الاستكانة خاضع للبلى على سمو المكانة ، فعبرنا واعتبرنا وأبصرنا فاستبصرنا [٣] وقول ابى الطيب [٤] قد تذكرنا [٥] :

أين الذى الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفنا [٦] فتتبع

ثم بدلنا [٧] ذلك الوادى بالعراء ، واستقبلنا أرضاً شبيهة بالصحراء ملاعب للريح ، ومنابت للسدر [٨] والشيح ، سحبت بها عين السحاب فضول [٩] الذيل ، وطفف الغمام فى الكيل ، وغار النور ، وفار التنور ؛ وفاضت السماء ، والتقى الماء ، فالركائب تسبح سبح الأساطيل ، والأرجل تزهق زهوق الأباطيل ، والمبارك تعدى ، والأدلة لا تهتدى ، واللباس قد غير الطين من شكله ، والانسان قد رجع من الماء والحمأ [١٠] الى أصله .

---

(١) كذا فى (ب) ، ووردت فى (ا) المثاقب والمتن أصح .

(٢) كذا فى (ا) وردت فى (ب) وكأنما رعناه .

(٣) لعل صحتها واستبصرنا .

(٤) ساقطة فى (ا) .

(٥) قد زيادة عن (ب) .

(٦) فى (ب) البلى .

(٧) هذه الكلمة غير واضحه فى النسختين ، وكتبها مولر ثم بدا لنا ولعل صحتها كما فى المتن.

(٨) السدر شجر النبق وجمعها سدور.

(٩) كذا فى الأصل وقد وردت فى (ب) : سحبت علينا السحاب فضول .

(١٠) الحمأ : الطين الأسود .

وخيمنا من بَيْرَة[1] حرسها الله بالثغر الأقصى ومحل الرباط الذى أجر ساكنه لا يحصى . بلدة عدوها متعقب ، وساكنها خائف مترقب ، مسرحة بعيز ومزرعة شعير ، اذا شكرت الوابل ، انبتت حبها سبع سنابل ، ونجادها بالمشيم قد شابت ، وزروعها قد دعا بها الفصل فما ارتابت ، ونداء وآتوا حقه يوم حصاده أجابت . أرحنا بها يوماً صحا فيه الجو من سكرته ، وأفاق من غمرته ، فقيل للنفوس شأنك ودمائك[2] ويا أرض ابلعى ماءك . وتجلت عقيلة الشمس معتذرة عن مغيبها مغتنمة غفلة[3] رقيبها .

ورحلنا من الغد وشمل الأنواء غير مجتمع ، والجو قد أنصت كأنه يستمع ، بعد أن تمخض[4] الرأى[5] عن زبدته ، واستدعى من الأدلاء من وثق بنجدته ، وكثر المستشار ، ووقع على طريق قيشر[6] الاختيار ، وانتدب من الفريق ، الى دلالة تلك الطريق ، رجل ذو احتيال ، يعرف بابن هلال ، استقبل بنا شعباً مقفلا[7] ، ومسلكا [٦١] مغفلا[8] ، وسلما حرج[9] الدرج ، سامى المنعرج ، تزلق الذر[10] فى حافاته ، وتراع القلوب لتوقع[11] آفاته ، ويتمثل الصراط عند صفاته . أوعار لا تتخلص[12] منها

---

(١) بيره ، Vera ، بلدة حصينة مرتفعه ، تشرف على ساحل البحر الابيض المتوسط عند الحدود الشمالية الشرقية لمملكة غرناطه . ومن المراسلات المتبادلة بين بعض ملوك غرناطه وملوك الدول المجاورة ، نفهم أن مدينة بيره كانت تعتبر أقصى حدود المسلمين فى تلك المنطقة .

(٢) فى (ب) وذمائك .

(٣) فى (ب) عقله .

(٤) فى (ب) وتمحض .

(٥) كذا فى (ا ، ب) وقرأها مولر الرائب .

(٦) فى (ا) قاشر .

(٧) كتبها مولر مقفلا .

(٨) كتبها مولر مغفلا .

(٩) فى (ب) فى حرج .

(١٠) فى (ا) الزر .

(١١) ساقطه فى (ب) .

(١٢) فى (ب) يتخلص .

الأوعال ، ولا تغنى السنابك فيها ولا النعال . قطعنا بياض اليوم فى تسنم جبالها ، والتخبط فى حبالها ، نهوى[1] من شاهق الى وهد ، ونخوض[2] كل مشقة وجهد ، كأننا فى حلم محموم ، أو أفكار مغموم [أو برشام نوم][3] .

ولما طال مرام العروج الى جو السماء ذات البروج ، قلت يا قوم انظروا لأنفسكم فيما أصبحتم فيه ، واعلموا أن دليلكم ابن هلال عزم على اللحاق بأبيه ؛ ثم أخذنا فى الانحدار بأسرع الابتدار نهوى من[4] المرقب السامى الذرى ونهبط من الثريا الى الثرى ، ونتمثل فى ذلك المسلك الواعر ، بقول الشاعر :

بطريق بيرة[5] أجبل وعقاب ... لا يرتجى[6] فيها النجاة عُقاب
فكأنما الماشى عليها مُذْنِبٌ ... وكأنما تلك العقاب عقاب

[حتى[7] اذا استوينا على صفحة الأرض ، وتذكرنا بذلك الصراط يوم العرض ، تخلصنا من السبيل الوبيل ، وانتقلنا الهمز الى التسهيل ، ونزلنا والركائب قد كلت ، والمتاعب قد حلت ، فكانت مواقد النيران ، بوادى العبران ، بقعة جديبة المرعى ، معدن لكل عقرب تدب وحية تسعى ، غير أن الله دفع مضرتها ، وكفى ببركة الأيالة اليوسفية معرتها] .

---

(1) فى (ب) تهوى .
(2) فى (ب) وتخوض .
(3) وردت فى (ب) أوبرسام بوم ، ولم ترد فى (ا) ، ولعلها صحتها كما فى المتن .
(4) فى (ب) ، إلى .
(5) فى (ا) قاشر .
(6) فى (ا) ترتجى .
(7) هذه الفقرة التى بين القوسين لم ترد فى (ب) .

ولما أصبح استقبلنا الفحص الأفيح ، بساط ممدود الصرح ، يعجز عن وصفه لسان الشرح ، طاردنا قنيصه[1] على طول صحبته للأمان ، من حوادث الزمان . فأثرنا[2] كل ذلق المسامع ، ناء عن ادراك المطامع ، كثير النفار[3] ، مصطبر على سكنى القفار ، يختال فى الفروة اللدنة الحواشى ، وينتسب الى الطائر والماشى ، فغلبناه[4] [٦٢] على نفسه ، وسلطنا عليه آفة من جنسه ، وحللنا مقادة كل طويل الباع ، رحب الذراع ، بادى النحول ، طالب بالدخول ، كأنه لفرط النحول عاشق ، أو نون أجادها ماشق ، أو هلال سرار ، أو قطعة سوار[5] ، أو خبية[6] أسرار[7] رمينا[8] منه[9] بأجله على عجله ، وقطعنا به عن أمله ، فأصبح رهين هوان مطوقاً بأرجوان . ووصلنا الخطا[10] بين مجاثم[11] الأرانب ، وأفاحيص القطا فى فحص[12] يتلقى الساير بترحيب واصل[13] الى اشكوذر[14] حللناها والنهار[15] غض الشبيبة ، والجو يختال من مذهب سناه فى الحلى العجيبة .

---

(١) فى (ا) قبيصه .

(٢) فى (ب) بأثرنا .

(٣) فى (ا) النجار .

(٤) فى (ا) تغلبناه .

(٥) ساقط فى (ب) .

(٦) فى (ب) حبيه .

(٧) فى (ا) اسوار .

(٨) فى (ب) رميناه .

(٩) كذا فى النسختين ولعل صحتها أمنه .

(١٠) فى (ب) الخطا .

(١١) فى (ب) حاتم .

(١٢) فى (ب) فى سهل .

(١٣) ساقطة فى (ب) .

(١٤) فى (ا) اسكودار .

(١٥) فى (ب) واليوم .

واستقبلنا ٱلْمَرِيَّة (١) ، عصمها الله ، فى يوم سطعت أشعة سعده، وتكفل الدهر (٢) بانجاز وعده ، مثل (٣) أهلها بجمعهم فى صعيد سعيد (٤) ، ويدعوهم عيد عهدهم به بعيد ، فلم يبق حجاب الا رفع ، ولا عذر الا دفع ، ولا فرد الا شفع فى يوم نادى بالجمهور الى الموقف المشهور ، وأذن الله لشهره بالظهور على ما تقدمه من الشهور ، رمت البلدة فيه بأفلاذها ، وقذفت بشبانها وأفذاذها ، وبرز أهلها حتى غص بهم سهلها وقد أخذهم الترتيب ، ونظمهم المصف العجيب ، تقدمت مواكب (٥) الاشياخ الجلة ، والفقهاء الذين هم سرج الملة ، وخفقت أصناف البنود المطلة ، واتسقت الجموع التى لا تؤتى بحول الله من القلة ، وتعددت بمناكب البدور أشكال الأهلة ، فى خموع تسد مهبات (٦) الصبا ، وتكاثر رجل الدبا (٧) ، صفوفاً كصفوف الشطرنج على أعناقهم قسى الفرنج ، وقد نشروا البنود الشهيرة الألوان واستشعروا فى يوم السلم شعار الحرب العوان ، يتسابقون من الاحتفال الى غايه ، ويرجع كل منهم الى شعار والى رايه ، وقد أحسنوا بالمشيخة الاقتداء ، ورفعوا بالسلام [٦٣] النداء .

وامتاز خدام الأساطيل المنصورة فى أحسن الصورة ، بين أيديهم الطبول والأبواق تروع أصواتها وتهول . وتأنق من تجار الروم من استخلاص العدل

---

(١) المرية ، Almeria مدينة ساحليه بجنوب شرق الاندلس ، بناها الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر (الثالث) وذلك فى عام ٣٤٤ هـ (٩٥٥ — ٩٥٦ م انظر (الروض المعطار ص ١٨٣ — ١٨٤) . راجع كذلك ما كتبه زيبولد Seybold فى دائرة المعارف الاسلامية عن تاريخ هذه المدينة أيام المسلمين . (Enc. Isl. I, p. 317)

(٢) فى (ا) للظهر وفى (ب) للدهر ولعل صحتها كما فى المتن .

(٣) فى (ا) امثال .

(٤) فى (ا) بعيد .

(٥) فى (ب) تقدمها مراكب .

(٦) فى (ب) مهاب .

(٧) فى (ا) الربا .

هواه ، وتساوى سره ونجواه ، فى طرق من البر ابتدعوها ، وأبواب من الاحتفاء شرعوها ، فرفعوا فوق الركاب المولوى على عمد السّاج ، مظاله من الديباج ، كانت على قمر العلياء غمامه ، وعلى زهر المجد كمامه ، فراقتنا بحسن المعانى ، واذكرتنا قول ابى القاسم ابن هانى :

وعلى أمير المسلمين غمامة نشأت تظلل وجهه[1] تظليلا
نهضت بعبء الدر ضوعف نسجه وجرت عليه عسجداً محلولا

الى غير ذلك من أروقة عقدوها ، وكرامة أعدوها . وطلعت فى سماء البحر أهلة الشوانى ، كأنها حواجب الغوانى ، حالكة الأديم ، متسربلة بالليل البهيم ، تتزاحم[2] وفودها على الشط ، كما تتدخل النونات[3] فى الخط ، فياله من منظر بديع الجمال ، أخذ بعنان الكمال ، بكر الزمان ، وآية من آيات الرحمن ، حتى اذا هالة القبة استدارت ، وبالقمر السعد من وجه السلطان ، أيده الله ، أنارت ، مثلوا فسلموا ، وطافوا بركن مقامه واستلموا ، واجهروا بالتلبيه ، ونظروا ، من وجهه[4] الجميل الى سعد الأخبية ، وتزاحم من النساء [٢٢٦] الأفواج ، كما تتدافع الأمواج ، فرفع الجناح ، وخفض الجناح ، ومهد لهن سبيل العطف ، وشملهن كنف الاشفاق واللطف . ولما أرحنا واسترحنا ، والعيون فى تلك البلدة سرحنا ، رأينا قيد البصر ، والمحاسن التى ترمى اللسان[5] بالحصر ، حضرة يستقبل[6] بها الملك ، ومربع يلتقى به القطار والفلك ، رفعت

---

(١) فى (ب) تاجه .

(٢) فى (ا) تتزحم .

(٣) فى (ا) النوقات .

(٤) فى (ب) من وجه الجميل .

(٥) ساقطة فى (ب) .

(٦) فى (ب) يستقل .

راية الشرف القديم ، وحازت على نظرائها مزية [٦٤] التقديم ، ما شئت من ساحة طيبة الأديم ، رحيبة كصدر الحليم ، متناسبة الوضع بتقدير العزيز العليم ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر فى المرآة الصقيلة .

وركب السلطان أيده الله ثالث يوم وروده الى مشاهدة قلعتها الشماء ، المتعلقة بعنان السماء ، فقدح سكانها زناد البارق المتألق ، وتلعب صبيانها[١] على جناح الطائر المحلق ، وعلى سمو مكانها وجلالة شأنها ، فدولابها[٢] شجى المزمار[٣] ، ومياهها فى انهمار ، وخزائنها[٤] تستغرق[٥] طول[٦] الأعمار ، وعددها كفيلة لحماية الذمار ، فعوذناها من كل خطب فادح ، وحيينا بها بهو خيران[٧] وقصر ابن صمادح[٨] . ونظرنا الى تلك الآثار

---

(١) فى (ب) صبيتها .

(٢) كذا فى النسختين وقرأها مولر قد ولا بها .

(٣) فى (ب) المضمار .

(٤) فى (ا) وجزائنها .

(٥) فى (ب) نستغرق .

(٦) فى (ب) بطوال .

(٧) خيران الصقلبى الخصى العامرى ، كان فى الأصل مملوكا للمنصور ابن ابى عامر دكتاتور اسبانيا ايام الخليفه هشام الثانى المؤيد ، ثم تدرج فى الرق حتى صار رئيسا لحزب الصقالبه فى أواخر أيام الخلافة الأمويه بقرطبه . ثم تمكن خيران من الاستقلال بولاية المريه عام ٤٠٣ ﻫ سنة ١٠١٢ م وصار يدعى بالخليفه وبالفتى الكبير . وتنسب لخيران اعمال معمارية كثيرة لا تزال آثارها باقية الى اليوم فى المريه ، ومن أهمها بقايا القصر والقلعة القديمة المسماه بالقصبه . وقد مدحه الشاعر الاندلسى ابن دراج القسطلى بالقصيدة التى مطلعها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران .·. وبشراك قد آواك عز وسلطان

وتوفى خيران عام ٤١٩ ﻫ سنة ١٠٢٨ م .

أنظر (أحمد مختار العبادى : الصقالبة فى أسبانيا ، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبيه. مدريد ١٩٥٣) .

(٨) ملوك بنى صمادح حكموا المريه فى فترة ملوك الطوائف (من عام ١٠٤١ — ١٠٩١ م) وأهم ملوك هذه الأسرة المعتصم بالله محمد بن معن بن صمادح التجيبى (١٠٤١ — ١٠٩١ م) وكان رجلا محبا للعلوم والآداب وبلاطه حافلا بالشعراء والكتاب امثال ابن الحداد الوادى آشى وابن شرف البرجى ، بل كان اولاده ينظمون الشعر ايضا ونذكر منهم ابنه رفيع الدولة وابنته الأميرة أم الكرام . وعندما غزا المرابطون البربر مملكته كان المعتصم بن صمادح على فراش الموت ، فقال عبارته المشهوره :

لا إله الا الله ، نغص علينا كل شىء حتى الموت ! (ابن بسام : الذخيره ج ٢ ق ١ ص ٢٣٦)

أنظر كذلك (Antonio Prietoy Vives : Los Reyes de Taifas, Madrid 1926).

الكبار ، والمشاهدة [1] التي تغني عن الأخبار ، أشرقت العدو بريقه ، وسطت بفريقه ، وأخذت عليه فيها يد الله ثنايا طريقه ، وخص المولى أيده الله قائدها بتشريفه [2] وترفيعه ، وتناول بيده الكريمة من صنيعه ، في مجلس احتفى [3] واحتفل ، وفي حلل الكمال رفل ، وأخذت مجالسها الخاصة والكبراء [4] ، وأنشد الشعراء [5] ، فكان [6] مقاماً جليلا وعلى الهمم العربية والشيم الملوكية دليلا .

وكان الرحيل عن تلك المدينة لا عن ملال ، ولا عن [7] ذم [8] خلال ، ولكن مقام بلغ أمدا [9] ، ورحلة انتهت الى مدى [10] .

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوم [11] له يوم الترحل خامس

فيالها من خمسة علقها الدهر تميمة على نحره ، وأثبتها معوذة في قرآن فخره . كانت لياليها معطرة النواسم ، وأيامها كأيام المواسم .

وثنينا الأعنة الى الاياب ، وصرفنا الى أوطاننا صدور الركاب ، فكم من قلب لرحيلنا وجب ، لما استقل [٦٥] ووجب ، ودمع لوداعنا

---

(1) في (ب) والمشاهد .

(2) في (ا) بتسريفه .

(3) في (ا) احتفا .

(4) في (ب) والكبرى وفي (ا) الكبرا ولعله يريد الكبراء .

(5) في (ا) وانشدت الشمرا .

(6) في (ب) وكان .

(7) ساقطة في (ب) .

(8) في (ا) دم .

(9) في (ب) أمد .

(10) في (ب) أمد .

(11) لعل صحتها ويوما .

عظم انسكابه ، لما رمت للبين ركابه ، وصبر أصبح من قبيل [1] المحال عند زم الرحال ، وإلف أنشد بلسان النطق والحال :

ومضى وخلّف فى فؤادى لوعة تركتُه موقوفاً على أوجاعه
لم استتم سلامه لقدومه [2] حتّى ابتدأت عناقه لوداعه

وانصرفنا [3] وعروشها تتعلق بأذيالنا ، ومخاضات [4] واديها تعترض صدور رجالنا [5] ، ورياحها تدافعنا [6] عن المسير ومعالمها تقنع من المامنا ولو باليسير . واستقبلنا وادى بجّانه [7] وما أدراك ما هو ، النهر السيّال ، والغصن الميّاد الميال ، والأفياء والظلال . المسك ما فُتّ فى جنباته ، والسندس ما حاكته يد جناته ، نعمة واسعة ، ومساجده جامعة ، أزرت بالغوطتين زياتينه وأعنابه ، وسخرت بشعب بوان شعائبه ، بحيث لاتبدو [8] للشمس آيات [9] ولاتتأتى للحرباء حيات [10] . والريح تلوى أعطاف غصون البان على أرداف الكثان [11] ، وتجاذب عرايش [12] الخمائل ، فضول [13] الغلائل ،

---

(1) فى (ا) قبيح .
(2) ورد فى (ا) ، لم يستتم عناقه لقدومه ، ويبدو أن ما ورد فى نسخة (ب) احسن .
(3) فى (ا) وسرنا .
(4) فى (ب) ومخاضة .
(5) رحالنا .
(6) فى (ب) تتدافع .
(7) بجانه ، Pechina ، قرية ساحلية فى شمال المريه بنحو ١٠ ك. م. انظر ما كتبه عنها ليفى بروفنسال فى Enc. Isl. III p. 1109 راجع كذلك (الروض المعطار ص ٣٧ – ٣٩).
(8) فى (ا) تبدوا .
(9) فى (ب) اياه .
(10) فى (ب) حياة .
(11) فى (ب) الكثبان .
(12) فى (ب) عن انس .
(13) فى (ب) نصول .

الى مرشانة [١] وهى الكوكب الأعلى ، والأشهب المحلىّ ، والصباح اذا تجلى ، والعروس على المنصة تجلى . وبها حلت الغيوم سموطها [٢] ، ومدت عناكب [٣] السحاب خيوطها [٤] ، فبتنا وعيون المزن باكية ، والمنازل من توقع فراقنا [٥] شاكية [واستقبلنا [٦] الوادى نجعله دليل تلك الطريق ، ونتبعه [٧] فى السعة والضيق ، فكم مخاضة منه عبرنا ، وعلى مشقتها [٨] صبرنا ، حتى قطرت الأذيال والأردان ، وشكت أذى الماء الأبدان ، وتوفرت ذو الضجر ، لملازمة الماء والحجر ، ونسينا بمعاناته ألم البعاد ، وذكرنا ببرده واعادته َمثلهم [٦٦] فى الحديث المعاد ، اللهم غفراً فضله مديد ، ومنظر فى الحسن فريد ، وقد راق شأنه ، وتصاف على الشط سكانه ، فرأينا الحور تحت سماط الحور ، والنور فوق بساط النور .

ولما كاد عمر اليوم ينتصف ، وقد بلونا من بعد المشقة ما لا نصف ، وتخلصنا من ذاك الكمد ، شارفنا دار عبلة [٩] العليا فى السَّندَ] . واستقبلناعبله

---

(١) Marchena مرشانة أو مرسانه ، حصن حصين فى مقاطعة المرية ، وهناك حصن آخر بهذا الاسم فى مقاطعة اشبيليه جنوب شرق قرمونه . انظر (الروض المعطار ص ٢١٨ حاشية ٣) .

(٢) فى (ا) سمرطها .

(٣) بياض فى (ب) .

(٤) فى (ا) خيرطها .

(٥) فى (ا) فراقبا .

(٦) هذه الفقرة الكبيرة التى بين الأقواس لم ترد فى (ب) .

(٧) كتبت ونبتعه ولعل صحتها ونتبعه كما فى المتن .

(٨) كتبت " وعلى مسقتها " ولعل صحتها كما ورد فى المتن .

(٩) عبلة Abla ، واسمها القديم Alba وحرفها العرب الى عبله ويحيط بهذا المكان حتى وادى آش جبال تعرف بالسند Sened ، وتقع عبله فى جنوب شرق فنيانة . راجع (F. Simonet : Op. cit. p. 61,100)

ولَوْرِسانة [١] ، وانخنا الركائب [٢] بظاهر [٣] فنيانة [٤] ، بقعة حظها من النعم موفور ، وبلدة طيبة ورب غفور ، حللناها ومنادى [٥] العجماء يعرب ، والشمس يراودها المغرب . وقد عظم [أثر] [٦] الهياط والمياط ، وسطا [٧] الكلال بالنشاط . وبتنا والشيح وسائد مضاجعنا ، وشكوى التعب حلم هاجعنا .

واستقبلنا المنهج [٨] الأمثل [٩] ، والسهل الذى يضرب به المثل ، بساط ممدود ، ومن البحور [١٠] الأرضية [١١] معدود ، ولم يكن الا كخطفة بارق ، أو خلسة سارق ، حتى تقلص الظل وطوى منشوره طى السجل .

واستقبلنا مدينة وادى آش حرسها الله ، وقد راجعت الالتفات ، واستدركت ما فات ، فتجلت المخدرات ، وقذفت بمن [١٢] اشتملت عليه الجدرات ، وتنافس أهلها فى العدة والعديد ، واتخاذ شكك [١٣] الحديد ، فضاق

---

(١) Abrucena .

(٢) فى (ا) الركاب .

(٣) فى (ا) بظهر .

(٤) فنيانة Fiñana وتعرف بالحصن وتقع فى مقاطعة المرية على مسافة ٣٠ كـ.م جنوب شرق وادى آش . انظر (الروض المعطار ص ١٧٢ حاشية ٢) .

(٥) فى (ب) ومناى .

(٦) ساقطه فى (ا) .

(٧) فى (ا) وسط .

(٨) فى (ب) النهج .

(٩) فى (ب) الأشل .

(١٠) فى (ب) البحار .

(١١) فى (ا) الاريض .

(١٢) فى (ب) من .

(١٣) فى (ا) سكك .

رحب المجال ، واختلط النساء بالرجال ، والتف أرباب الحجا بربات الحجال ، فلم نفرق [1] بين السلاح والعيون الملاح ، ولا بين حمر البنود [2] وحمر الخدود ، وبتنا بازائها ونعم الله كافله ، ونفوسنا فى حلل السرور رافلة . حتى اذا ظل الليل [3] تقاص ، وحمام الصبح من مخالب غرابه [4] قد [5] تخلص ، سرنا [6] وعناية الله ضافية ، ونعمه وافية .

فنزلنا بوادى فردس [7] ، منازلنا المعتادة ، وقلنا رجع الحديث الى قتادة ، وبها تلاحقت وفود التهانى ، وسفرت وجوه الأمانى . نزلنا منه بالمروج فتفتحت بها أزهار القباب البيض فى بساطها [8] العريض [٦٧] ، وخطرت ببالى مقطوعة فى مخاطبة المولى أنجح الله عمله ويسر من فضله أمله ، أثبتها على حكم الاستعجال . وأوصفت [9] على بيوتها خيل [10] الارتجال :

اذا سرت سار النور حيث تعوج	كأنك بدر والبلاد بروج
لك الله من بدر على أفق العلا	يلوح وبحر بالنوال يموج
تفقدت أحوال الثغور بنية	لها نحو أبواب القبول [11] عروج
وسكنتها بالقرب منك ولم تزل	تهيم هوى من قبله وتهيج

(١) فى (ا) يفرق .

(٢) فى (ب) ومن حمرالخدود .

(٣) فى (ا) اليوم .

(٤) فى (ا) غروبه .

(٥) زياده عن (ب) .

(٦) فى (ا) وسرنا .

(٧) Rio Fardes ، فى (ب) فرذش .

(٨) فى (ب) بساطه .

(٩) فى (ب) وأوجفت .

(١٠) فى (ا) نجيل .

(١١) فى (ب) ، لها نحو أسباب السماء عروج .

مررت على وعد من الغيث بينها | فنظرها بعـد العبوس بهيج
فكم قلعة قد كلل النور تاجهـا | ورف عليها [1] للنبات نسيج
ولا نجد الا روضة وحديقة | ولا غور الا جدول وخليج
أيوسفُ دم للدين تحمى ذماره | اذا كان للخطب الأبيّ ولوج
بفتية صدق ان دجا ليلُ حادث | فهم سُرج آفاقهن سروج
بقيت قرير العين ماذرّ شارق [2] | وما طاف بالبيت العتيق حجيج

وبتنا نتعلق بأنفاس[3] الحضرة العاطرة، ونستظل بسمائها الماطرة، ونعلن بالاستبشار[4]، ونحن الى الأهل حنين العشار :

وأبرح [5] ما يكون للشوق يوماً | اذا دنت الديار مـن الديار

فلما تبسم زنجي الليل عن ثغر الفجر، وشب وليد الصبح [6] عن عقد الحجر، ولحظتنا ذكاء بطرفها الرمد، وقد بقّى [7] الليل فيه بقية الإثمد، استقبلنا الحضرة حرسها الله[8]، فأنست النفوس بعد اغترابها، واكتحلت

---

(1) فى (ا) دوف عليه .
(2) فى (ا) : بقيت فريد العين مادر شارق .
(3) فى (ب) بأنوار .
(4) فى (ب) الاستبشار .
(5) فى (ب) وأقرب .
(6) فى (ب) الصباح .
(7) فى (ب) ترك .
(8) يقصد مدينة غرناطة ويقال لها ايضا أغرناطه وتسمى اليوم Granada أنظر ما كتبه عنها زيبولد Seybold فى دائرة المعارف الاسلاميه (Enc. Isl II p. 186 - 187) ; راجع كذلك (رحلة ابن بطوطه لهذه المدينة جـ ٢ ص ١٨٧ ، وماكتبه ليڤى بروفنسال عن هذه الرحلة Lévi Provençal : Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Granada (1350), فى (F. Simonet : أنظر أيضا pag. 218, en : Melanges Wiliam Marçais (Paris 1950 .) Descripción del reino de Granada p.p. 27 - 68) أنظر كذلك الموسوعة المعروفة (Miguel Lafuente Alcantara : Historia de Granada, 4 tomos)

راجع كذلك ما كتبه ابن فضل الله العمرى (ت ١٣٥٠ م) عن المغرب والأندلس فى كتابه " مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار " وقد نشر هذا الجزء العالم التونسى حسن حسنى عبد الوهاب فى مجلة البدر بتونس .

العيون بإثمد ترابها ، واجتلينا من فحصها الكريم الساحة [٦٨] ، الرحب المساحة ، ما يبهر العين جمالا ، ويقيد الطرف يميناً وشمالا ، أم البلاد والقواعد ، وملجأ الأقارب والأباعد ، تعدت مقعد الوقار ، ونظرت الى الأرض بعين الاحتقار ، ومدت اليها البلاد أكف الافتقار ، نصبت من الجبل منصة تعدت عليها ، وقامت وصائف القرى فى ذلك البساط بين يديها ، فمن ذا يدانيها أو يداريها أو يناهضها فى الفخار ويجاريها ، وهى غاب الأسود ، والأفق الذى نشأت فيه سحاب الجود ، وطلعت به من الأمراء السعداء نجوم السعود[١] ، سيدة الأمصار ، ودار الملوك من أبناء الانصار ، ومصرع الطواغيت والكفار [والغمد الذى استودع سيوف الله دامية الشفار][٢] ولله درّ بعض شيوخنا وقد عبر عنها ببيانه ، واعتذر عن بردها فى أوانه حيث يقول :

رعى الله من غرناطة متبوأ يسر كئيباً أو يجير طريداً[٣]
تبرم منها صاحبى عند ما رأى مسالكها بالبرد عدن جليداً
هى الثغر صان الله من أهلت به وما خير ثغر لا يكون برودا

وصلناها والجو مصقول كالفرند ، والسماء كأنها لصفائها مرآة[٤] الهند ، أخرج الحلى من الاحقاق ، وعقد ازرار الحلل على الأعناق ، واطلّع أقمار الحسن على الآفاق ، وأثبت فخر الحضرة بالاجماع والاصفاق ، على دمشق الشام وبغداد[٥] العراق .

حتى اذا بلغنا قصور الملك وانتهينا الى واسطة السلك ، وقفنا مهنئين ومسلمين ، وقلنا أدخلوها بسلام آمنين .

---

(١) فى (ب) من الامراء السعود انجم السعود .

(٢) فى (ا) والجفن الذى استودع جفان الله دامية الشعار .

(٣) هذا البيت محرف فى (ا) .

(٤) فى (ا) مرءات .

(٥) فى (ب) بغداذ .

والقت عصاها واستقر[1] بها [٦٩] النوى[2] كما قر عينا بالاياب المسافر

[هنا انتهى التقييد والحمد لله على ما سناه من صنع جميل، وأولاه من بلوغ تأميل . وذلك يوم الأحد الثامن لصفر عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

تمت خطرة الطيف ، والحمد لله وصلى الله على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما طيباً][3] .

---

(١) فى (ب) واستقرت .

(٢) ساقطه فى (ا) .

(٣) الفقرة الختامية التى بين القوسين لم ترد فى (ب) .

الرسالة الثانية

مفاخرات مالقة وسلا

مفاخرات مالقة وسلا

ومن ذلك ما صدر عني في مفاخرات مالقة [١] وسلا [٢] بما نصه : سألتني عرفك الله عوارف السعد المقيم ، وحملني واياك على الصراط المستقيم ، المفاضلة بين مدينتي مالقه وسلا ، صان الله من بهما من النسيم ، وحباهما [٣] من فضله بأوفر القسم بعد أن رضيت بحكمي قاضياً ، وبفصلي الخطة سيفاً ماضياً ، لاختصاصي بسكنى البلدين ، وتركي فيهما الأثر للعين .

على أن التفضيل انما يقع بين ما تشابه وتقارب ، أو تشاكل وتناسب ، والا فتى يقع التفضيل ؟ بين الناس والنسناس ، والملك والخناس ، وقرد الجبال وظبي الكناس ؟

مالقة أرفع قدراً ، وأشهر ذكراً ، وأجل شأناً ، وأعز مكاناً ، وأكرم ناساً ، وأبعد التماساً ، من أن تفاخر أو تطاول ، أو تعارض أو تصاول ، أو تراجع أو تغاول ، ولكني سأنتهي الى غرضك ، وأبين رفع مفترضك ، وأباين بين جوهرك وعرضك .

فنقول الأمور التي تتفاضل بها البلدان ، وتتفاخر منها به الأخوان ، وتعرفه حتى الولائد والولدان ، هي : المنعة والصنعة والبقعة والشُّنْعَة [٤] ، والمساكن والحضارة والعمارة والاثارة والنضارة .

---

(١) مالقة Màlaga اسم لمدينة وولاية على ساحل البحر الابيض المتوسط جنوب شرق اسبانيا . وفي ايام ابن الخطيب كانت مالقة تعتبر العاصمة الثانية بعد مدينة غرناطة في مملكة بني الأحمر .

(٢) سلا Salé مدينة رومانية قديمة على ساحل المحيط الأطلنطي بأقصى المغرب ويفصلها عن مدينة رباط جنوبا نهر أبوالرقراق (بورجراج) . وقد سبق أن اشرنا إلى أن ابن الخطيب أقام في هذه المدينة عندما نفي مع سلطانه محمد الخامس عام ١٣٦٠ م وظل بها حتى عام ١٣٦٢ حينما عاد ثانيه الى غرناطة مع سلطانه المذكور بفضل مساعدة ملك قشتاله وسلطان بني مرين .

(٣) في الأصل وحباها وصححتها كما في المتن .

(٤) الشنعة : الشهرة والسمعة . انظر (Dozy : Supplément aux dictionnaires Arabes I, p. 791 - 792) (Paris 1927)

فأما المنعة ، فلمالقة ، حرسها الله ، فضل الارتفاع ومزية الامتناع . أما قصبتها[1] ، فاقتعدت الجبل كرسياً ، ورفعها الله مكاناً علياً ، بعد أن ضوعفت أسوارها وأقوارها[2] ، وسما بسنام الجبل المبارك منارها ، وقربت أبراجها ، وصوعدت أدراجها ، وحصنت أبوابها ، وعزز جنابها ، ودار ببلدها السور والجسور ، والخندق المحفور . فقلهراته[3] مدائن بذاتها ، وأبوابها المغشاة بالصفائح[4] شاهد بمهارة بناتها ، وهم أمراؤها وولاتها كأنها لبست الصباح سربالا[5] ، أو غاصت في نهر الفلق بهاء وجمالا ، أمنت من جهة البحر التقية ، ودار بها من جهة البر الحفير والسلوقية[6] ، لا تجد العين بها عورة تتقى ، ولا ثلما منه يرتقى ، الى الربضين[7] اللذين كل واحد منهما مدينة حافلة ، وعقيلة في حلى المحاسن رافلة .

وسلا على ما علمت ، سور حقير ، وقور الى التنجيد والتشييد فقير ، آطام خامله ، وللرم آمله ، وقصبتها بالبلد متصلة ، ومن دعوى الحصانة

---

(1) راجع وصف هذه القصبة في Guillén Robles : Malaga Musulmana) Cap. II, parte 2 (Malaga 1880)

(2) أقوار ومفردها قور بمعنى نطاق وسياج أنظر (Dozy : Suppl., II, p. 417 a)

(3) قلهرات جمع قلهره Calahorra بمعنى قلعة أو برج القلعة . أنظر : (Dozy : Suppl., II, p. 401)

(4) الصفائح معناها هنا النقوش والزخارف التي تحلى بها الأبواب . (صفائح الرتاج) أنظر (Dozy : Suppl., I, p. 834)

(5) السربال : القميص . انظر (Dozy : Dictionnaire détaillé des noms des vetements chez les arabes, p. 202 ; Amesterdam. 1845)

(6) السلوقيه او السلوقيه نوع من الخنادق أو الأبراج الأماميه التي في خارج الاسوار . راجع (Dozy : Suppl., I, p. 676)

(7) سمى أحد هذين الربضين باسم فنتنالة Fontanella ، وسمى الآخر باسم التيانين او التيانيين نسبة الى تجارة التين التي اشتهرت بها مالقه . راجع (Lévi Provençal : La Péninsule Ibérique D'aprés Ar-Rawd Al-Mi'tar, p. 213 note 6)

وقد سمى دوزى هذا الربض الثاني باسم التبانين نسبة الى تجارة التبن ، والقراءة الأولى أصح . راجع (الإدريسي – نشر دوزى و دى خويه ص ٢٠٤ ، ٢٢٠)انظر كذلك (Garcia Gómez : "El Parangón entre Màlaga, y Salé", de Ibn al - Jatib - Al Andalus Vol II 1934, p. 187, Nota 2·)

منتصلة ، سورها مفرد ، لا ساوقية تقيه ، وبابها مقصد لا ساتر يحميه ، والماء بها معدوم ، وليس له جب معلوم ، ولا بئر بالعذوبة مرسوم ، وفى عهد قريب استباحتّها الروم فى اليوم الشامس ، ولم ترد يد لامس ، من غير منجنيق نُصب ، ولا تاج ملك عليها عصب ، قلة سلاح وعدم فلاح ، وخمول سور ، واختلال أمور [١] .

ومنذ سقطت دعوى المنعة ، فلنرجع الى قسم الصنعة فنقول :

مالقة ، حرسها الله ، طراز[٢] الديباج المذهب ، ومعدن صنائع الجلد المنتخب ، ومُذْهِب الفخار ، المجلوب منها الى الأقطار ، ومِقْصَر[٣] المتاع المشدود [٤] ، ومضرب الدست المضروب ، وصنعاء [٥] صنائع الثياب ، ومحج التجار الى الإياب ، لأفعام العياب ، بشهادة الحس والجن والانس ، ولا ينكر طلوع الشمس .

وأى صناعة فى سلا يقصد اليها أو يعول عليها أو يطرف بها قطر بعيد ، أو يتجمل بها فى عيد .

---

(١) من المعروف أن الاسبان هاجموا مدينة سلا على غره أيام الملك الفونسو العالم (El sabio) وذلك فى ٢ شوال عام ٦٥٨ ﻫ (١٢٦٠ م) وقد طردهم منها السلطان المرينى ابو يوسف يعقوب بعد احتلال دام اربعة وعشرين يوما . أنظر (ابن ابى زرع : روض القرطاس (نشر طورنبرج) ص ٢٠١ ، ٢٧٨) أنظر كذلك (السلاوى : الاستقصا فى اخبار المغرب الأقصى ج ٢ ص ١١) .

(٢) عن نظام الطراز ، راجع مقال جروهمان فى دائرة المعارف الاسلامية :
(Enc. Islam IV p. 825 - 834)

(٣) مقصر : لعل معناها هنا ، آلة لنزل الأقشه القطنيه (الموسلين) ، راجع :
(Dozy : Suppl., II p. 358)

(٤) المتاع المشدود اى كل مايشد به مثل العمائم والأحزمة . راجع :
(Dozy : Suppl.; I, p. 737)

(٥) صنعاء عاصمة اليمن كانت مشهورة بمنسوجاتها ، والمعنى هنا مجازى .

ومنذ سقطت مزية الصنعة ، فلنرجع الى مزية البقعة فنقول :

خص الله مالقة بما افترق فى سواها ، ونشر بها المحاسن التى طواها ، اذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال ، وقامرة[1] الفلاحة المخصوصة بالاعتدال ، والبحر العديم الصداع ، الميسرة مراسية للحط والاقلاع ، والصيد العميم الانتفاع ، جبالها لوز وتين ، وسهلها قصور وبساتين ، وبحرها حيتان مرتزقة فى كل حين ، ومزارعها المغلة عند اشتداد السنين ، وكفى بفحص قامره[2] صادع بالبرهان المبين ، وواديها الكبير عذب فرات ، وأدواح مثمرات ، وميدان ارتكاض ، بين بحر ورياض .

وسلا بلد الرمال ، ومراعى الجمال ، بطيحة لا تنجب السنابل ، وان عرفت المطر الوابل ، جرد الخارج ، وبحرها مكفوف بالعتب وا ازج وواديها ملح المذاق ، مستمد من الأجاج الزعاق ، قاطع بالرفاق من الآفاق ، الى بعد الانفاق ، وتوقع الاغراق . وشابلها[3] مقصور على فصل ، وكم لشوكة من شبا نصل ، عدمت الفاكهة ، والمتنزهات النابهة .

واذا بان فضل البقعة ، فلنلم بذكر الشنعة ، وهو مما لا يحتمل فيه النزاع ، ولا تغطى الابصار وتطمس الاسماع . اذ مالقة دار الملك فى الروم ، ومثوى المصاعب والقروم ، تشهد بذلك كتب الفتح المعلوم ، وذات ملك فى الاسلام عديد الجيوش خافق الأعلام ، غنى بالشهرة عن الاعلام ، سكنها ملوك

---

(١) القامرة : مخازن المحصولات الزراعية ، والمقصود هنا التربة الخصبة المنتجة . أنظر (Simonet : Glosario de Voces Ibéricas, p. 79)

(٢) فحص قامرة : Camara لا يزال موجودا حتى اليوم فى ولاية مالقة بالقرب من بلدة انتقيره Antequera أنظر (Simonet : Glosario de Voces Ibéricas, p. 80) أنظر كذلك لنفس المؤلف (Simonet : Descipciôn del Reino de Granada p. 86-87)

(٣) شابل : نوع من الأسماك النهرية ومعروف فى الاسبانية باسم Sàbalo أنظر (Dozy : Suppl., I, p. 724)

الأدارسة (١) الكرام ، والصناهجة (٢) الأعلام ، ثم بنو نصر أنصار الاسلام (٣) . وجيشها اليوم مشهور الاقدام ، متعدد المئين على مر الأيام . وتجارها تعقد لواء خافقاً ، وتقيم الجهاد سوقاً نافقاً ، وتركض الخيول السابحة ، وتعامل الله على الصفقة الرابحة ، وكفاها أنها أم للعدة من الثغور والحصون ، والمدن ذات الحمى المصون ، وشجرة الفروع الكثيرة والغصون وما منها الا معقل سام ، وبلد بالخيل والرجل مترام ، وغيل حام ، يحتوى بها ملك باذخ ، وينسق فيها للسلطان فخر شادخ .

وأين سلا من هذه المزية ، والشنعة العلية ، أين الجنود والبنود ، والحصون تزور منها الوفود ، وان كان بعض الملوك ذهب الى اتخاذها داراً ، واستيطانها من أجل الأندلس قراراً ، فلقد هم وما أتم وطالله نم .

ولنقل فى الحضارة بمقتضى الشواهد المختارة ، ولا كالحلى والطيب ، والحلل الديباجية والجلابيب ، والبساتين ذات المرأى العجيب ، والقصور المبتناة بسفوح الجبال ، والجنات الوارفة الظلال ، والبرك الناطقة بالعذب

---

(١) يقصد الحموديين أو بنى حمود وهم من سلالة الادارسة ، وقد أسسوا امارة مستقلة فى مالقة من عام ١٠١٨ الى ١٠٥٧ م . وانتهت هذه الدولة عندما استولى بنو زيرى ملوك غرناطة على مالقة سنة ١٠٥٧ . انظر (Enc. Islam. II, p. 269)

(٢) هم بنو زيرى حكام غرناطة أيام ملوك الطوائف فى القرن الحادى عشر الميلادى . وهم من أصل بربرى يرجع الى قبيلة صنهاجه . انظر (Enc. Islam, IV p.. 158) أنظر كذلك (مذكرات الامير عبد الله الصنهاجى (من مجموعة ذخائر العرب) تحقيق ليفى بروفنسال ١٩٥٦) .

(٣) بنو نصر ويعرفون كذلك ببنى الأحمر وهم ملوك غرناطة آخر مملكة اسلامية فى اسبانيا (١٢٣٢ – ١٤٩٢م) ، وينسبون الى سعد بن عباده زعيم الانصار وقبيلة الخزرج اذ أن جدهم الاكبر – كما يقولون – هو محمد بن يوسف بن نصر بن احمد ... بن سعد بن عباده ، الخزرجى الانصارى الملقب بالأحمر .

انظر (ابوالحسن النباهى الجذامى : نزهة البصائر والابصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣) وقد نشر Muller مولر الجزء الخاص بتاريخ ملوك بنى نصر فى كتابه المعروف : Beiträge zur Geschichte der Westlichen araber, I. Heft, pags. 102 - 138).

الزلال ، والملابس المختالة فى أفنان الجمال ، والأعراس الدالة على سعة الأحوال ، والشورات المقدرات بالآلاف من الأموال .

وأما سلا ، فأحوال رقيقة ، وثياب فى غالب الأمر خليعة ، وذمم منحطة ونفقات تحصرها من التقتير خطة ، ومساجد فقيرة ، وقيسارية حقيرة ، وزى مجلوب ، وحلى غير معروف ولا منسوب ، تملأ مسجدها الفذ العدد والاكسية ، وتعدم فيها أو تقل الطيالس والأردية ، وتكثر البلغات ، وتندر النعال ، وتشهد بالسجية البربرية الأصوات واللغات والأقوال والأفعال .

وأما العمارة ، فأين يذهب رائدها ، وعلام يعول شاهدها ، وما دار عليه السور متراكم متراكب ، منتسجة مبانية كما تفعل العناكب ، فناديقه[1] كثيرة ، ومساجده أثيرة ، وأرباضه حافلة ، وفى حلل الدوح رافلة ، وسككه غاصة ، وأسواقه بالدكاكين متراصة ، أقسم لربض من أرباضها أعمر من مدينة سلا ، وأبعد عن وجود الخلا ، واملأ مهما ذكر الملأ ، بلد منخرق منقطع منفرق ، ثلثه مقبرة خالية ، وثلثه خرب بالية ، وبعضه أخصاص وأقفاص ، ومعاطن وقلاص ، وأوارى بقر تحلب ، ومعاطن سائمة تجلب .

وأما الامارة ، فلمالقة القدح[2] المعلّى ، والتاج المحلّى ، وهو على كل حال بالفضل الأولى ، حيث مناهل المختص ، والخارج الأفيح الفحص . وسلا لا تأكل الا من غرارة جالب ، لا من فلاحة كاسب . ومالقة مجتزئة بنفسها فى الغالب ، محسبة من شرقيها وغربيها بطلب الطالب .

---

(١) فنادق جمع فندق .

(٢) القدح المعلى : السهم السابع فى الميسر عند العرب فى الجاهليه . وهو اكثر السهام ربحا . والمعنى هنا مجازى للدلالة على علو شأن المدينة . أنظر (ابن قتيبه : الميسر والقداح . (القاهرة ١٣٤٣) .

وأما النضارة ، فمن ادعى أنه ليس فى الأرض مدينة أنضر منها جناباً ، ولا أغزر منها غروساً وأعناباً ، ولا آرج أزهاراً ولا أضوأ نهاراً ، لم تكذب دعواه ، ولا أزرى به هواه ، انما هى كلها روض وجابية وحوض بساتين قد رقمتها الأنهار وترنمت بها الأطيار .

وسلا بلد عديم الظلال ، أجرد التلال ، اذا ذهب زمن الربيع ، والخصب المريع ، صار هشيما ، وأضحى ماؤها حميا ، وانقلب الفصل عذاباً أليما .

أما المساكن ، فحسبك ما بمالقة من قصور بيض ، وملك طويل عريض جنة السيد (١) ، وما أدراك ما بها من جنة دانية القطوف ، سامية السقوف ، ظاهرة المزية والشفوف ، الى غيرها مما يشذ عن الحصر ، الى هذا العصر .

والجنات التى ملأت السهل والجبل ، وتجاوزت الأمل ، بحيث لا أسد يمنع من الاصحار بالعشى والاسحار ، ولا لص يستجن بسببه فى الديار .

وأما سلا وان كان بها للملك دور وقصور ، ولأهل الخدمة بناء مشهور ، فهل قليل ، وليس بالجمهور اليه سبيل .

وأما الساكن بمالقة بين راهن قيد الحياة ، ومنتقل من جناتها الى روضات الجنات ، فأكبر به أن يفاضل ، أو يجادل فيه أو يناضل ، ولا شاهد كالصلات (٢) الباقية المكتتبة ، والتواريخ المقررة المرتبة . فاستشهد مغرب

---

(١) جنة السيد : يبدو أن هذا الاسم قد اطلق على قصر هناك لبعض أمراء الموحدين .
أنظر : (Oliver Hurtado : Granada y sus Monumentos arabes, p. 365 y nota I)

(٢) صلات جمع صلة ويقصد بها المعاجم والتراجم التى ظهرت مسلسلة تحت هذا الاسم كما هو واضح فى المتن .

البيان[1] . وتاريخ ابن حيان[2] ، وتاريخ الزمان[3] ، وكتاب ابن[4] الفرضي وابن بشكوال[5] ؛ وصلة ابن الزبير[6] القاضي ومن اشتملت عليه

(١) لعله يقصد كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى . وقد ظهر هذا الكتاب فى ثلاثة اجزاء ، الأول والثانى نشرهما دوزى (ليدن ١٨٤٨-١٨٥١) والجزء الثالث نشره ليفى بروفنسال (باريس ١٩٣٠) كذلك توجد طبعة لبنانية للجزئين الأول والثانى (بيروت ١٩٥٠) هذا وتوجد ترجمة فرنسية للكتاب من عمل فاجنان Fagnan وأخرى اسبانية لفرنانديث جونثالث Fernández y Gonzalez

(٢) ابن حيان ، المؤرخ القرطبى الكبير (٣٧٧-٤٦٩ - ٩٨٧-١٠٧٦ م) ومن مؤلفاته ، كتاب المتين وهو مفقود ، وكان يقع فى ستين جزءا ويتناول الأحداث المعاصرة للمؤلف ويعرف أيضا بالتاريخ الكبير . وقد نقل ابن بسام بعض أجزائه فى كتابه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة (القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥) ومن مؤلفات ابن حيان ايضا كتاب المقتبس فى تاريخ الأندلس ، وكان يقع فى عشرة اجزاء ، وقد عثر على ثلاث قطع منه :-

الأولى وتتناول عهدى الحكم الأول ومعاوية الثانى وكانت عند المرحوم ليفى بروفنسال الذى استغلها فى كتابة الجزء الأول من مؤلفه الكبير عن تاريخ اسبانيا الاسلاميه . وكان يعد العدة لنشرها لولا وافاه اجله المحتوم .

القطعة الثانيه وتتناول إمارة الأمير عبد الله الاموى فى قرطبه وقد نشرها الراهب الاسبانى ملتشور انطونيا Melchor Antuña (باريس ١٩٣٧)

القطعة الثالثة وتتناول خلافة الحكم المستنصر الاموى ويعدها الآن للنشر استاذنا غرسيه غومز Garcia Gômez .

والكتاب عموما ، كما هو واضح من عنوانه عبارة عن اقتباس من كتب المؤرخين الذين سبقوه ولا سيما عيسى الرازى ، أما كتاب المتين فهو تأريخ للاحداث التى رآها المؤلف بنفسه . انظر (Garcia Gómez : a Proposito de Ibn Hayyàn; Al Andalus 1946, V'ol. XI, Fasc. 2.) ؛ انظر كذلك لنفس المؤلف :
(Garcia Gomez : Al-Hakam II y los Berebers según un téxto inédito de Ibn Hayyàn, Al-Andalus 1948, Vol. XIII Fasc. I)

(٣) لا أعرف شيئا عن هذا الكتاب الذى يشير اليه ابن الخطيب .

(٤) ابن الفرضى ، مؤرخ قرطبى (٣٥١ - ٤٠٣ هـ = ٩٦٢ - ١٠١٣ م) وهو صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس ، نشره المستشرق الاسبانى كوديرا Codera فى الجزئين السابع والثامن من مجموعة المكتبة الأندلسيه (مدريد ١٨٩١) .

(٥) ابن بشكوال ، مؤرخ قرطبى (٤٩٤ - ٥٧٨ هـ = ١١٠١ - ١١٨٣ م) ألف كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، وهو يكمل معجم ابن الفرضى السابق الذكر . وقد نشره كوديرا ايضا فى الجزئين الأول والثانى من المكتبة الأندلسيه (مدريد ١٨٨٣) .

(٦) القاضى أحمد بن الزبير ، مؤرخ جيانى (نسبة الى مدينة جيان Jaen) (٦٢٧-٧٠٨ هـ =

من الرجال ، وصلة ابن الأبّار(١)، وتاريخ ابن عَسكَر(٢) وما فيه من أخبار وبادر بالإماطة ، عن وجه الإحاطة(٣) ، ترى الأعلام سامية . وأدْواح الفضلاء نامية ، وأفراد الرجال يضيق بهم رَحْب المجال .

وسَلا المسكينة لا ترجو لعشرتها ، الا ابن عِشرتها . مهملة الذكر والإشادة . عاطلة من حلى تلك السادة ، وإن كان بها أهل عبادة . وسالكي سبيل زهادة، فكم بمالقة من وَليّ ، وذى مكان عَليّ، ومن طَنْجالي وساحلي(٤) . وهذه حُجج لا تدفع ، ودلائل إنكارها لا ينفع ، فمن شاء فليؤثر الاتصاف بالانصاف ، ومن شاء فليؤثر الخلاف وسجايا الأخلاف . فأنا يعلم الله قد عدَلْتُ لما حكمت، ورفعت لما المت ، وسكت عن كثير ،

(١٢٢٩ - ١٣٠٨) كتب ذيلا لصلة ابن بشكوال سماه " صلة الصلة " . وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسى ليڤى بروفنسال (الرباط ١٩٣٨) .

(١) ابن الأبار ، مؤرخ بلنسى (٥٩٥ - ٦٥٨ هـ - ١١٩٩ - ١٢٦٠ م) كتب تكملة أيضا للصلة البشكواليه فى تراجم أعلام الاندلس سماه " كتاب التكملة لكتاب الصلة " نشر هذا الكتاب كوديرا Codera فى الجزئين الخامس والسادس من مجموعة المكتبة الأندلسية (مدريد ١٨٨٩) كذلك نشره ابن شنب ، وجونثالث بالنثيا Gonzalez Palencia والاركون Alarcon . انظر (Enc. Islam II, p. 374 ;) انظر كذلك (دكتور عبد العزيز عبد المجيد : ابن الأبار ، حياته وكتبه (معهد مولاى الحسن ١٩٥٢) .

(٢) ابن عسكر ، مؤرخ مالقى (٥٨٤ - ٦٣٦ هـ - ١١٨٨ - ١٢٢٨ م) يروى المؤرخون انه كتب تاريخا لمالقه ، أتمه ابن اخيه المسمى ابن خميس . ويروى ابن الخطيب فى احاطته (نسخة الاسكوريال لوحة ١٥٢) أن القاضى الغرناطى ابا الحسن النباهى (القرن الثامن الهجرى) كتب ذيلا لكتاب ابن عسكر سماه " ذيل على تاريخ مالقه .

(٣) يقصد ابن الخطيب كتابه المشهور : الإحاطة فى تاريخ غرناطة . وتوجد منه نسخ مختلفة فى مكتبة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ومكتبة الاكاديمية التاريخية بمدريد (رقم ٣٤ ، ١٤٢٠) ورواق المغاربة بالأزهر . وقد نشر الجزء الأول من هذا الكتاب الاستاذ عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٦) كما توجد طبعة قديمه لهذا الكتاب من جزئين (القاهرة ١٣١٩ هـ) .

(٤) انظر ما كتبه الرحالة ابن بطوطه عن هؤلاء المتصوفة اثناء رحلته فى مملكة غرناطة (تحفة النظار ص ١٨٥) أنظر كذلك (Lévi Provençal : Le Voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade (1350) - Melanges Wiliam Marçais (Paris 1950) p. 218) أنظر كذلك (Garcia Gómez : El Parangón entre Málaga y Salé p. 194 y Nota. Op. cit.)

وجلب فضل أثير ، اذا لم تحوج اليه ضرورة الفخر ، ولا داعية القهر . ولو شئت لجلبت من أدلة التفضيل ما لا يدفع فى عقده ، ولا سبيل لنقده ، لكن الله أغنى عن ذلك ، وكفى بهذه المسالك ، بياناً للسالك ، وفضلا بين المملوك والمالك . والله يشمل الجميع بنعماه ، ويتغمد الحى والميت برحماه .

وفصل الخطة أن لمالقه مزية بجلالها وكمالها وحسن أشكالها ، ووفود مالها ، وتهدل أظلالها وشهرة رجالها ، وظرف صنائعها وأعمالها .

ولسلا ، الفضل لكن على أمثالها ونظرائها ، من بلاد المغرب وأشكالها ، اذ لا ينكر فضل اعتدالها ، وأمنها من الفتن وأهوالها عند زلزالها ، ومدفن الملوك الكرام بجبالها .

ومالقة ، قطر من الأقطار ، ذوات الأقدار والأخطار ، وتحصيل الأوطار .

وسلا ، مصب الأمطار ، ومرعى القطار ، وبادية بكل اعتبار .

وهنا نلقى عصا التسيار ، ونغض من عنان الإكثار ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ...

الرســـــالة الثالثة

معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار

كتاب معيار الاختبار فى ذكر المعاهد والديار

المجلس الأول

الحمد لله الذى انفردت صفاته بالاشتمال على أشتات الكمال ، والاستقلال بأعباء الجلال المنزه عن احتلال الحلال ، المتصفة الحلال بالاختلال ، المتعمد بالسؤال لصلة النوال ، جاعل الأرض كسكانها متغايرة الأحوال ، باختلاف العروض والأطوال ، متصفة بالمحاسن والمقابح عند اعتبار الهيئات والأوضاع والصنائع والأعمال على التفصيل والاجمال . فمن قام خيره بشره دخل تحت خطة الاعتدال ، ومن قصر خيره عن شره كان أهلا للاستعاضة والاستبدال ومن أربى خيره على شره وجب اليه شد الرحال ، والتمس بقصاده صلاح الحال . وكثيراً ما اغتبط الناس بأوطانهم فحصلوا فى الجبال على دعة البال وفازوا فى الرمال بالآمال ، حكمة منه فى اعمار ربع الشمال ، وتهيئ أكنافه عن اليمين والشمال الى أن يدعو أهل الأرض لموقف العرض والسؤال ، ويذهل عن الأهل عظيم الأهوال . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد المصطفى الذى أنقذ بدعوته الوارفة الظلال من ظلمات الضلال ، وجاء برفع الأغلال ، وتمييز الحرام من الحلال . والرضى عمن له من الصحب والآل موارد الصدق عند كذب الآل .

أما بعد ، ساعدك السعد ، ولان لك الجعد ، فان الانسان وان اتصف بالاحسان وابانة اللسان ، لما كان بعضه لبعض فقيراً ، نبيهاً كان أو حقيراً ، اذ مؤنته التى تصلح بها حاله ، لا يسعها انتحاله ، لزم اجتماعه وائتلافه على سياسة يؤمن معها اختلافه ، واتخاذ مدينة يقر بها قراره ، ويتوجه اليها ركونه وفراره ، اذا رابه أضراره ، ويختزن بها أقواته التى بها حياته ، ويحاول منها معاشه الذى به انتعاشه . فان كان اتخاذها جزافاً واتفاقاً ، واجتزاء ببعض المآرب وارتفاقاً ، تجاول شرها وخيرها ، وتعارض نفعها وضيرها ، وفضلها فى الغالب غيرُها ، وان كان عن اختيار ، وتحكيم معيار ، وتأسيس حكيم ،

وتفويض للعقل وتحكيم ، تنافر الى حكمها النفر ، وأُعمل السفر ، وكانت مساويها بالنسبة الى محاسنها تغتفر ، اذ وجود الكمال فاضح للآمال ، ولله درّ القائل :

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كلّها   كفى المرء فضلاً أن تعدّ معايبُهُ

وبحسب ذلك حدّث من يُعنى بالأخبار ينقلها ، والحِكَم يصقلها ، والأسمار ينتقيها ، والآثار يخلدها ويبقيها ، والمجالس يأخذ صدورها ، والآفاق يشيم شموسها وبدورها ، والحِلل يعرف دورها ويأكل قدورها ، والطُرَف يهديها ، والخفيّات يبديها ، وقد جرى ذكر البلدان ، وذكر القاصي والدان ، ومزايا الأماكن ، وخصائص المنازل والمساكن ، والمقابح والمحاسن ، والطيّب والآسن .

قال : ضمّني الليل وقد سدل المُسَحّ راهبُه ، وانتهب قرصة الشمس من يد الأمس ناهبه ، ودافت جيوشه الحبشيّة وكتائبه ، وفتحت الأزهار بشيل الحيرة كواكبه ، وجنحت الطيور الى وكونها ، وانتشرت الطوّافات بعد سكونها ، وعوت الذئاب فوق هضابها ، ولوّحت البروق ببيض عضابها وباهت الكفّ الخضيب بخضابها ، وتسللت اللصوص لانتهاز فُرَصها ، وخرجت الليوث الى قِسَمها وحصصها ، فى مناخ رحب المنطلَق ، وثيق الغلق ، سامى السور كفيل بحفظ الميسور ، يأمن به الذعرَ خائفه ، وتدفع معرّة السماء سقائفه . يشتمل على مأوى الطريد ، ومحراب المُريد ، ومرابط خيل البريد ، ومكانس الشيطان المَريد ، ذى قيّم كثير البشاشة ، لطيف الحشاشة ، قانع بالمُشاشة[1] ، يروّج ويشى ، ويقف على رِيَب الأعيان وأعيان الريب فلا يشى . بَرّ فأكثر ، ومهّد ووثّر ، وأدفأ ودثّر ، ورقّ بسُوَرِ استنزاله فأثّر . فلمّا أزحت الكلفة وأقضمت جوادى العلفة ، وأعجبتنى من رفقاء الرفق الألفة ، رمقت فى بعض السقائف آمناً فى زىّ

---

(١) المشاشة : رأس العظم اللين ، يريد أن يقول إن صاحب هذا الخان رجل غير طماع يقنع بالقليل .

خائف ، وشيخاً طاف منه بالأرض طائف ، وسكن حتى اليمامة والطائف ، جنيب عكاز ومثير شيب أثيث الوفرة ، وقسى ضلوع تؤثر بالزفرة ، حكم له بياض الشيبة بالهيبة ، وقد دار بذراعه للسبحة الرقطاء حنش ، كما اختلط روم وحبش ، والى يمينه دلو فاهق ، وعن يساره تلميذ مراهق ، وأمامه حمار ناهق ، وهو يقول :

هم أسكنونا فى ظـلال بيوتهم ظلال بيوت أدفأت وأكنّت
أبوْا أن يملّونا ولو أن أُمَّنا تلاقى الذى يلقون منا لملّت

حتى اذا اطمأن حلوله ، وأصحب ذَلُولَه ، وتردد الى قيم الخان زغاوله ، واستكبر لمّا جاءه بما يهواه رسوله ، استجمع قوته واحتشد ، ورفع عقيرته وأنشد :

أشكو الى الله ذهابَ الشبابْ كم حسرة أورثنى واكتئابْ
سدّ عن اللذات باب الصبا فزارت الأشجان من كل باب
وغـربة طالت فـما تنتهى موصولة اليوم بيـوم الحساب
وشرّ نفس كلما هملجت فى الغى لم تقبـل خطام المتاب
يارب شفّـع فىّ شيـبى ولا تحْرِمْنىَ الزُّلفى وحسن المآب

ثم أنّ ، والليل قد جنّ ، فلم يبق فى القوم الا من أشفق وحنّ ، وقال وقد هزته أريحيَّة ، على الدنيا سلام وتحية ، فلقد نلنا الأوطار وركبنا الأخطار ، وأبعدنا المطار وافترقنا الأقطار ، وحلبنا الأشطار . فقال فتاه ، وقد افترت عن الدرّ شفتاه ، مستثيراً لشجونه ، ومُطّلعاً لنجوم همّه من دجونه ، ومدلاً عليه بمجونه . وماذا بلغ الشيخ من أمدها أو رفع من عمدها حتى يُقضى منه عجب ، أو يجلى منه محتجب ؟. فأخذته حميّة الحفاظ لهذه الألفاظ ، وقال أى بُنَىّ ، مثلى من الأقطاب ، يخاطب بهذا الخطاب ! ! . وأيم الله لقد عقدتُ الحلَق ، ولبست من الدهر الجديد والخلَق ، وفككت الغلق ، وأبعدت فى الصبوة الطلَق ، وخضت المنون ، وصدت الضبّ والنون ، وحذقت الفنون ، وقهرت بعد سليمان الجنون ، وقضيت الديون ، ومرضت

لمرض العيون وركبت المهالج ، وتوسدتْ الوذائل[١] والدمالج ، وركضت الغاره ، واقتحمت المهالك والمكاره ، وُجبت البلاد ، وحضرت الجلاد ، وأقمت الفصح والميلاد ، فعدت من بلاد الهند والصين بالعقل الرصين ، وحذقت بدار قسطنطين كتاب اللطين[٢] ، ودُست مدارس أصحاب الرّواق ورأيت غار الأرواح وشجر الوقواق ، وشريت حلل اليمن بأبخس ثمن ، وحللت من عدن ، حلول الروح من البدن ، ونظرت الى قرن الغزالة اذا شدّن ، وأزمعت عن العراقَين سرى القيْنَين ، وشربت من ماء الرافدين باليدين ، وصليت بمحراب الدمى ركعتين ، وتركت الأثر للعين ، ووقفت حيث وقف الحكمان[٣] ، وتقابل التركمان ، وأخذت بالقُدُس ، عن الحَبْرِ النُدُس ، وركبت الولايا الى بلاد العلايا بعد أن طفت بالبيت الشريف ، وحصلت بطيبة على الخصب والريف فى فصل الخريف ، وقرأت باخميم علم التصريف ، وأسرعت فى الانحطاط الى الفسطاط والمصر الرحب الاختطاط ، وسكنت مدينة الاسكندرية ثغر الرباط ، وعجلت بالمرور الى تكرور ، فبعت الظل بالحرور ، ووقفت بأشبانيه الى الهيكل المزور ، وحصلت بافريقية على الرفد غير المنزور ، وانحدرت الى المغرب انحدار الشمس الى المغرب ، وصممت تصميم الحسام الماضى المضرب ، ورابطت بالأندلس ثغر الإسلام ، وأعلمت بها تحت ظلال الأعلام . فآهاً والله على عمر مضى وخلّف مضضا ، وزمن انقضى وشمل قضى الله من تفرقة ما قضى ، ثم أجهش ببكائه ، وأعلن باشتكائه وأنشد :

لبسنا فلم نُبْلِ الزمان وأبلانا ... يتابع أُخرانا على الغىّ أُولانا
ونغتر بالآمال والعمر ينقضى ... فما كان بالرجعى الى الله أَوْلانا
فماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسى ... فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا
جزينا صنيع الله شرّ جزائه ... فلم نرع ما من سابق الفضل أولانا
فيا ربِّ عاملنا بما أنت أهله ... من العفو واجبرْ صدعنا أنت مولانا

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) يقصد اللغة اللاتينية .

(٣) الحكمان هما أبوموسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، أثناء النزاع بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان .

ثم قال :

لقد مات أخوانيَ الصالحون فما لي صديق ولا لي عماد
اذا أقبـل الصبح ولّى السرور وان أقبل الليل ولّى الرقاد

فتملكتني له رقّة ، وهزّة للتماسك مسترقة ، فهجمت على مضجعه هجوماً أنكره ، وراع شاءه وعكره ، وغطى بفضل ردْنه سُكَّره ، فقلت له على رِسْلك أيها الشيخ ، نابٌ حنَّت الى حُوار ، وغريب أنس بجوار ، وحائر اهتدى بمنار ، ومقرور قصد الى ضوء نار ، وطارق لا يفضح عيباً ، ولا يثلم غيباً ، ولا يُهمل شيباً ، ولا يمنع سيباً . ومنتاب يكسو الحُلَّه ، ويُحسن الخُلَّه ، ويفرغ الغلة ، ويملأ القلة :

أجارتنا إنّا غريبان ها هنا وكلٌ غريب للغريب نسيبُ

فلما وقّم الهواجس وكبتها ، وتأمّل المخيلة واستثبتها ، تبسّم لما توسّم ، وسمح بعد ما جمح ، فهاج عقيما فتر ، ووصل ما بتر وأظهر ما خبأ تحت ثوبه وستر ، وماج منه البحر الزاخر ، وأتى بما لا تستطيعه الأوائل ولا الأواخر . وقال وقد ركض الفنون وأجالها ، وعدّد الحِكمَ ورجالها ، وفجّرَ للأحاديث أنهارها وذكر البلدان وأخبارها .

لقـد سئمت مـآربي فكأنّ أطيبها خبيث
الا الحديث فـإنه مثل اسمه أبداً حديث

فلما ذهب الخجل والوجل ، وطال المرويّ والمرتجل ، وتوسط الواقع وتشوّفت للنجوم المواقع ، وتوردت الخدود الفواقع ، قلت أيها الحبْر ، واللج الذى لا يناله السّبْر ، لاحجبك قبل عمر النهاية القبر ، وأعقب كسر اعداد عمرك المقابلة بالقبول والجبر ، كأنّا بالليل قد أظهر لوشْك الرحيل الهلع ، والغرب الجشع لنجومه قد ابتلع ، ومفرق الأحباب وهو الصبح قد طالع ، فأولني عارفة من معارفك أقتنيها ، واهزز لي أفنان حِكمك أجتنيها . فقال أمل مُيَسّر ، ومجمل يحتاج أن يفسر . فأوضح الملغز ، وأبِنْ لي الطلا

من البرغز ، وسل عما بدا لك فهو أجدى لك ، فأقسم لا تسألني عن غامض ، وحلو وحامض ، الا أوسعته علماً وبياناً ، وأريتك الحق عياناً . قلت صف لى البلاد وصفاً لا يظلم مثقالا ، ولا يعمل فى غير الصدق وخداً ولا إرقالا[1] ، واذا قلتم فاعدلوا ومن أصدق من الله مقالا. فقال سلْ ولا تسلْ ولوراءك الأسل . قلت أنتفض لى البلاد الأندلسية من أطرافها ، وميّز بميزان الحق بين اعتدالها وانحرافها ، ثم اتلها بالبلاد المرينية نسقاً ، واجلُ بنور بيانك غسقاً وهات ما تقول فى جبل الفتح[2] .

قال فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفه السميع العليم ، وقصص المهارق ، وأفق البارق ، ومتحف هذا الوطن المباين للأرض المفارق . مأهل العقيق وبارق ، ومحط طارقها بالفتح طارق ، إرمُ البلاد التى لم يخلق مثله فيها ، وذو المناقب التى لا تحصرها الألسنة ولا توفّيها ، حجزه البحر حتى لم يبق الا خصر ، فلا يناله من غير تلك الفرصة ضيق ولا حصر . وأطلّ بأعلاه قصر ، وأظلّه فتح من الله ونصر ، ساوق سوره البحر فأعياه ، قد تهلل بالكلس محياه ، واستقبل الثغر الغريب فحياه ، واطرد صنع الله فيه من عدو يكفيه ، ولطف يخفيه ، وداء عضال يشفيه ، فهو خلوة العبّاد ومقام العاكف والباد ، ومسامحة مَنْ وراءه من العباد ،

(1) الوخد والأرقال السير السريع .

(2) جبل الفتح هو جبل طارق بن زياد وهو يسمى اليوم Gibraltar .

وهذا الجبل كان يطلق علية قبل الفتح الاسلامى أسماء عديدة أهمها الاسم الفينيقى Calpe ومعناه تجويف : إذ كان هذا الاسم يطلق أصلا على مغارة كبيرة فى هذا الجبل عرفت فيما بعد باسم مغارة القديس ميخائيل San Miguel . وبعد الفتح الاسلامى عرف هذا الجبل باسم الصخرة وجبل الفتح كما عرف أيضا بجبل طارق وهو الاسم المعروف به حتى اليوم .

ومضيق جبل طارق أو بحر الزقاق ، ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه فى أضيق جهاته حوالى ١٥ كم وهى مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكرى بين الشاطئين الافريقى والاسبانى . ومن هنا نشأ صراع تقليدى مستمر بين الشاطىء الأوروبى والشاطىء الافريقى حول السيطرة على هذا المضيق ، منذ أقدم العصور حتى وقتنا الحاضر .

انظر (Jose Carlos de Luna : Historia de Gibraltar) راجع كذلك ما كتبه زيبولد Seybold عن هذا الموضوع فى (Enc. Isl. II p. 179-180) .

وشقة القلوب المسلمة والأكباد . هواؤه صحيح ، وثراه بالخزين شحيح ، وتجرُ الرباط فيه ربيح ، وحماه للمال والحريم غير مبيح ، ووصفه الحسن لا يشان بتقبيح ، الا أنه والله يقيه مما يتقيه ، بعيد الأقطار ، عمار بالقطار[1] ، كثير الرياح والأمطار ، مكتنف بالرمل المخاف ، والجوار المتالف ، قليل المرافق معدوم المشاكل والمرافق . هزل الكراع لعدم الازدراع ، حاسر الذراع للقراع ، مرتزق من ظل الشراع ؛ كورة دبْر[2] ، ومعتكف أزل وصبر ، وساكنه حي في قبر .

هو الباب إن كان التزاور واللقيا وغوث وغيث للصريخ والسقيا
فان تطرق الأيام فيه بحادث وأعززْ به قلنا السلام على الدنيا

قلت فأسطبونة[3] قال ذهبَ رسمها ، وبقيَ اسمها ، وكانت مظنة النعم الغزيرة ، قبل حادث الجزيرة .

قلت فمربلة[4] ، قال بلد التأذين على السردين ، وشعل الدعاء والتأمين ، لمطعم الحوت[5] السمين . وحدقاتها مغرس العنب العادم القرين ، الى قبة أرين . قلت إن مرساها غير أمين ، وعقارها غير ثمين ، ومعقلها تركبه الأرض عن شمال ويمين .

قلت فسهيل[6] ، قال حصن حصين ، يضيق عن مثله هند وصين ، ويقضي بفضله كل ذي عقل رصين ، سبب عزه متين ، ومادة قوته شعير

---

(1) القطار والقطور ، السحاب الكثير القطر أى المطر .

(2) فى نسخة أخرى حبر ، والدبر جماعة النحل والزنابير .

(3) اسطبونه ، Estepona بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط غرب مدينة مالقة .

(4) مربلة ، Marabella ، تقع على ساحل البحر المتوسط أيضا على مسافة ٦٠ ك . م غربي مالقه .

(5) الحوت اصطلاح مغربي يعني السمك بوجه عام ، ولا يزال مستعملا الى اليوم .

(6) سهيل ، ميناء على البحر المتوسط يسمى اليوم Fuengirola ، ويقع على مسافة ٢٨ك.م شرقي مربله . وهناك جبل عال يزعم أهل تلك الناحية أن النجم سهيل كان يرى من أعلاه ولذلك سماه العرب بهذا الاسم . وقد زار الرحالة الطنجي المعروف بابن بطوطه هذه المنطقة فى القرن الثامن الهجرى أى فى أيام ابن الخطيب ، وأعطانا وصفا يبين خطورة هذا الموقع ، يقول :

وتين . قد علم أهله مشربهم ، وأمنوا مهربهم ، وأسهلت بين يديه قراه ، ماثلة بحيث تراه ، وجاد بالسمك واديه ، وبالحَبّ ثراه ، وعرف شأنه بأرض النوب ، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب ، الا أن سواحله بلي[1] الغارة البحرية ، ومهبط السرية غير السرية ، الخليقة بالحذر الحريّة ، ومسرح السائمة الأميرية ، وخدامها كما علمت أولائك هم شر البرية .

قلت فمدينة مالقة[2] ، فقال وما أقول فى الدُرّة الوسيطة ، وفردوس

= ومربله بليدة حسنة مخصبة ، ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين إلى مالقه ، فأردت التوجه فى صحبتهم ، ثم أن الله تعالى عصمنى بفضله ، فتوجهوا قبلى فأسروا فى الطريق كما سنذكره وخرجت فى أثرهم ، فلما جاوزت حوز مربله ودخلت فى حوز سهيل ، مررت بفرس ميت فى بعض الخنادق ، ثم مررت بقفة حوت (اصطلاح مغربى يعنى سمك بوجه عام) مطروحة بالأرض ، فرابنى ذلك وكان أمامى برج الناظور فقلت فى نفسى ، لو ظهر هنا عدو لأنذر به صاحب البرج . ثم تقدمت إلى دار هنالك فوجدت عليه فرسا مقتولا . فبينما أنا هنالك اذ سمعت الصياح من خلفى . وكنت قد تقدمت أصحابى فعدت اليهم ، فوجدت معهم قائد حصن سهيل فأعلمنى أن أربعة أجفان للعدو ظهرت هنالك ، ونزل بعض عمارتها الى البر ، ولم يكن الناظور بالبرج فمر بهم الفرسان الخارجون من مربله وكانوا اثنى عشر ، فقتل النصارى أحدهم وفر واحد وأسر العشرة وقتل معهم رجل حوات وهو الذى وجدت قفته مطروحة بالأرض . وأشار على ذلك القائد بالمبيت معه فى موضعه ليوصلنى منه الى مالقه ، فبت عنده بحصن الرابط المنسوبة الى سهيل والاجفان المذكورة مرساة علية ، وركب معى بالغد فوصلنا الى مدينة مالقه .

راجع (رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الامصار ، ج ٢ ص ١٨٥) .

(١) فى نسخ اخرى تقرأ فل أو جل

(٢) مالقه Malaga مدينة ساحلية معروفة بجنوب شرق الأندلس أسسها الفينيقيون عام ١٢٠٠ ق م وأعطوها اسم Malaca ومعناه المملح وذلك نسبة الى مستودعات الأسماك المملحه التى كانت تعمل وتحفظ فيها . واشتهرت مالقه الى جانب ذلك بزراعة الفواكه الممتازة وسيما التين والرمان كما اشتهرت بصناعة الفخار ceramic أما من الناحية السياسية فكانت عاصمة الحموديين الأدارسة أيام ملوك الطوائف كما كانت تعتبر العاصمة الثانية بعد مدينة غرناطة أيام ملوك بنى الأحمر .

وقد كتب عنها كثير من الكتاب المسلمين وعلى رأسهم لسان الدين بن الخطيب كما سبق أن بينا نقتصر الآن على ماذكره عنها ابن بطوطة باعتباره معاصرا لابن الخطيب . يقول :

"... فوصلنا مدينة مالقه أحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه . رأيت العنب يباع فى أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ،

هذه البسيطة . أشهد لو كانت سورة لقرنت بها حذقة [1] الاطعام ، أو يوماً لكانت عيداً فى الأيام تبعث لها بالسلام مدينة السلام ، وتلقى لها يد الاستسلام ، محاسن بلاذ الإسلام . أىّ دار ، وقطب مدار ، وهالة إبدار ، وكنز تحت جدار ، قصبتها مضاعفة الأسوار . مصاحبة السنين محالفة للأدوار ، قد برزت فى أكمل الأوضاع وأجمل الأطوار ، كرسىّ ملك عتيق ومدرج مسك فتيق ، وإيوان أكاسره ، ومرقب عقاب كاسره ، ومجلى فاتنة حاسره ، وصفقة غير خاسره ، فحماها منيع حريز ؛ وديوانها ذهب إبريز ، ومذهب فخارها له على الأماكن تبريز ، الى مدينة تبريز ، وحلل ديباجها البدائع ذات تطريز . اضطبنت دار الأسطول ، وساوقت البحر بالطول ، وأسندت الى جبل الرحمة ظهرها ، واستقبلت ملحها ونهرها ، ونشقت وردها الأرج وزهرها ، وعرفت قدرها ، فأغلت مهرها ، وفتحت جفنها على الجفن غير الغضيض ، والعالم الثانى ما بين الأوج الى الحضيض . دار العجائب المصنوعة ، والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة ، حيث الأوانى تلقى لها يد الغلب ، صنائع حلب ، والحلل التى تلج صنعاء فيها بالطلب ، وتدعو الى الجلب ، الى الدست الرهيف ذى الورق الشفيف . وكفى برمانها حقاق ياقوت ، وأمير قوت ، وزائراً غير ممقوت . الى المؤاسات ، وتعدد الأساة ، واطعام الجائع . والمسامحة فى الجبايات ،

ورمانها المرسى الياقوتى لانظير له فى الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب ... وبمالقه يصنع الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها إلى أقاصى البلاد . ومسجدها كبير الساحة ، شهير البركة ، وصحنه لا نظير له فى الحسن ، فيه أشجار النارنج البعيدة . ولما دخلت مالقه ، وجدت قاضيها أبا عبد الله ... الطنجالى قاعدا بالجامع الأعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالا برسم الأسارى التى تقدم ذكرهم ، فقلت الحمد لله الذى عافانى ولم يجعلنى منهم . وأخبرته بما اتفق لى بعدهم فعجب من ذلك وبعث إلى بالضيافة رحمه الله " .

انظر (رحلة ابن بطوطة حـ ٢ ص ١٨٦ -- ١٨٧) راجع كذلك ما كتبه ابن سعيد المغربى فى وصف مالقة (المقرى : نفح الطيب حـ ١ ص ١٨٦) والحميرى فى الروض المعطار ص ١٧٧ -- ١٧٩ ، وياقوت فى معجم البلدان ص ٣٦٧) انظر كذلك (Guillen Robles : Malaga musulmana) ؛ وما كتبه ليفى بروفنسال عن هذه المدينة فى (Enc . Isl. p. 199 - 200) .

(1) الحذقة هى الاحتفال بإتمام الصبى قراءة القرآن .

وأي خُلُق أسرى من استخلاص الأسرى ، تبرز منهم المخدَّرة حسرى ، سامحة بسوارَيْها ولو كانا سوارى كسرى ، الى المقبرة التى تسرح بها العين ، ويستهان فى ترويض روضاتها العين . الى غُلاها[1] المحكمة البنيان ، الماثلة كنجوم السماء للعيان ، وافتراض سكناها أوان العصير على الأعيان ، ووفور أولى المعارف والأديان .

وأحسن الشعر مما أنت قائلُه بيتٌ يقال اذا أنشدتَه صدَقا

وعلى ذلك فطينها يشقى به قطينها ، وأزبالها تُحيِّي بها سبالها ، وسروبها يستمل منها مشروبها . فسَحُنُها[2] متغيرة ، وكواكب اذهانها النيرة متحيرة ، وأقطارها جد شاسعة ، وأزقتها حرجة غير واسعة ، وآبارها تفسدها ازقارها وطعامها لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزّان ، وفقيرها لا يفارق الأحزان ، وجوعها ينفي به هجوعها . تحط على الأمواج أقواتها ، وتعلو على الموازين غير القسط أصواتها ، وأرحيتها تطرقها النوائب ، وتصيب أهدافها السهام الصوائب ، وتعد لها الجنائب [3] ، وتستخدم فيها الصَّبا والجنائب [4] . وديارها الآهلة قد صم بالنزائل صداها ، واضحت بلاقع بما كسبت يداها ، وعين أعيانها أثَرْ ، ورسم تجادتها قد دثر ، والدهر لا يقول لعاً لمن عثر ، ولا ينظم شملا اذا انتثر . وكيف لا يتعلق الذام ببلد يكثر به الجذام ، محلة بأنواع آفاته ، والنفوس بمعرة عدواه مباهاه .

ثم تبسّم عند انشراح صدر ، وذكر قصة الزبرقان بن بدر : [5]

تقول هذا مُجاج النحل تمدحه وان ذممتَ فقل قيء الزنابير
مدحٌ وذم وعين الشيْ واحدة ان البيان يُري الظلماء فى النور

فبلّيش[6] ، قال جادها المطر الصيّب ، فنعم البلد الطيّب ، حلي وبحر وبرّ

---

(1) لعل المراد هنا المباني الريفية التى يلجأ إليها الأهالى لجمع العنب .

(2) فى نسخ أخرى كتبت : فساحاتها ، فسخمها .

(3) الجنائب هنا بمعنى الدواب .

(4) الصبا والجنائب بمعنى رياح الشمال والجنوب .

(5) هذا الشعر كتبه سيمونيت على شكل نثر . راجع (Simonet : Op. cit. p. 7)

(6) بليش ، تحريف الكلمة اللاتينية Vallis بمعنى وادى ، وتسمى الآن Velez وتقع فى غرب مالقه بنحو ٣٤ ك. م . وقد وصفها ابن بطوطه بقوله :

ولوز وتين ، وسبب من الأمن متين ، وبلد أمين ، وعقار ثمين ، وفواكه عن شمال ويمين ، وفلاحة مدعى انجابها لا يمين ، الا أن التشاجر بها أنمى من الشجر ، والقلوب أقسى من الحجر ، ونفوس أهلها بيّنة الحسد والضجر وشأنها غيبة ونميمة ، وخبيث مائها على ما سوّغ الله من آلائها تميمة .

قلت فقمارش (١) ، قال موْدع الوفر ، ومحطُّ السفر ، ومزاحم الفرقد والغفر ، حيث الماء المعين ، والقوت المُعين ، لا يخامر قلب الثائر به خطرة وجله ، الا من أجله ، طالما فزعت اليه نفوس الملوك الأخائر بالذخائر ، وشققت عليه أكياس المرائر فى الضرائر وبه الأعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين واللوز والتين ، والحرث الذى له التمكين ، والمكان المكين ، الا أنه عدم سهله ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهله .

قلت فالمنكب (٢) ، قال مرفأ السفن ومحطها ، ومنزل عباد المسيح ومختطها . بلدة معقلها منيع ، وبردها صنيع ، ومحاسنها غير ذات تقنيع . القصر المفتح الطيقان ، المحكم الاتقان ، والمسجد المشرف المكان ، والأثر

= وهى مدينة حسنة ، بها مسجد عجيب ، وفيها الأعناب والفواكه والتين مثل مالقه (رحلة ابن بطوطة ، حـ ٢ ص١٨٧) . ونظرا لأن اسم بليش قد أطلق على أماكن أندلسية أخرى ، فقد سميت هذه البلدة باسم Velez-Malaga لجوارها مدينة مالقه . وسنرى فى الصفحات القليلة القادمة أن ابن الخطيب يعيد ذكر بليش مرة أخرى ، وهو فى الواقع يقصد بلدة أخرى بهذا الاسم تعرف اليوم باسم Velez-Rubio وتقع بجوار مدينة لورقه . راجع :F. Simonet) Descripción del reino de Granada p. p. 93,111)

(١) قمارش : وتسمى الآن Comares وتقع بالقرب من مدينة غرناطه وكانت تعد من الحصون القوية الهامة فى مملكة غرناطه .

(٢) المنكب : يبدو أنه اسم عربى بمعنى الحصن المرتفع ويسمى اليوم Almuñécar أما الاسم القديم لهذا المكان فهو Sexi وهو مرفأ ساحل مرتفع فى جنوب شرق الأندلس بمقاطعة غرناطة .

وبهذ المرسى نزل الأمير الأموى عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس فى ربيع الأول سنة ١٣٨هـ (سبتمبر ٧٥٥م) وقد لقب عبد الرحمن بعد ذلك بالداخل .

راجع ما كتبه الادريسى عن هذه البلدة وآثارها فى كتابه (نزهة المشتاق ص ١٩٩ ، نشر دوزى ، دى خويه ١٨٦٦) راجع كذلك (الروض المعطار ص ١٨٦) .

المنيء عن كان وكان . كأنه مُبْرَدٌ واقف . أو عمود فى يد مثاقف ، قد أخذ من الدهر الأمان ، تشبّه بصرح هامان ، وأرهفت جوانبه بالصخر المنحوت ، وكاد أن يصل ما بين الحوت والحوت (١) . غَصَّت بقصب السكر أرضُها ، واستوعب فيها طولها وعرضها . زبيبها فائق ، وجناها رائق .

وقد مُتَّ اليها جبل الشوار (٢) بنسب الجوار ، منشأ الأسطول ، فوعْدُها غير ممطول ، وأمَدُّه لايحتاج الى الطول . الا أن أسمها مظنة طِيَرَة تستنف (٣) ، فالتنكيب عنها يُؤْتَنَف ، وطريقها يمنع شر سلوكها ، مَن تردد ملوكها ، وهواؤها فاسد ، ووباؤها مستأسد ، وجارها حاسد . فاذا التهبت السماء ، وتغيرت بالسمائم المُسَمِّيات والأسماء ، فأهلها من أجداث بيوتهم يخرجون ، والى جبالها يعرجون ، والوَدَكُ (٤) اليها مجلوب ، والقمح بين أهلها مقلوب ، والصبر إن لم يبعثه البحر مغلوب ، والحرباء بعرائها مصلوب ، والحرُّ بدم الغريب مطلوب .

قلت فشلوبانية (٥) ، قال أختها الصغرى ، وَلِيدَتُها التي يُشْغَلُ بها المسافر ويُغرى ، حصانة معقل ، ومرقب مُتَوَقَّل ، وغاية طائر ، وممتنع ثائر ، ومتنزه زائر . تركب بدنها الجداول المرفوعة ، وتخترق جهاتها المذانب

---

(١) الحوت الأولى بمعنى السمك والحوت الثانية بمعنى نجم والمعنى هنا مجازى يريد أن يصور عظم ارتفاع هذا القصر .

(٢) لعله يريد بجبل الشوار ، جبل شلير وهو تحريف للاسم اللاتيني القديم Solorius أو Mons Solarius أى جبل الشمس وذلك لشدة لمعانه نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على قممه المندّاة بالثلوج الناصعة صيفاً وشتاء . ويعرف هذا الجبل اليوم باسم سييرا نيفادا Sierra Nevada أى الجبال المثلجة . أنظر (الروض المعطار ص ١١٢) أنظر كذلك (Simonet, Op. cit. p. 47)

(٣) لعلها تشتنف : وشنف إليه شنفاً نظر إليه كالكاره له والمعترض عليه .

(٤) الودك : الدسم من اللحم والشحم .

(٥) شلوبانيه أو شلوبينيه وهو تحريف للاسم القديم Salambina وتسمى الآن Salobréna وتقع على ساحل البحر المتوسط على مسافة قدرها ١٦ كم شرق المنكب . وإلى هذه المدينة ينسب العالم النحوى المعروف أبوعلى الشلوبين . وأخباره موجودة فى مراجع عديدة ذكرها ليفى بروفنسال فى كتاب الروض المعطار ص ١٣٦ حاشية ٣

المُفرّدَةُ والمشفوعة . ففى المصيف تلعب بالعقل الحصيف . وفى الخريف . تسفر عن الخصب والريف . وحُوتُ هذه السواحل أغزر من رمله . تغدو القوافل الى البلاد تحمله . الى الحضر الباكرة . والنعم الحامدة للربّ الشاكرة . وكفى بمُشْتَرايل[1] من بسيطها محلّة مشهورة . وعقيلة ممهورة . ووداعة فى السهل غير مبهورة . جامعها حافل ، وفى حُلّة الحسن رافل ، الا أن أرضها مستخلص السلطان بين الأوطان ، ورعيتها عديمة الأعيان . مروعة على الأحيان . وتختص شلوبانية بمزية البنيان ، لكنها غاب الحميات ، غير أمينة على الاقتيات ، ولا وسيمة الفتيان والفتيات .

قلت فبرْجَة[2] ، قال تصحيف وتحريف ، وتغيير فى تعريف . ما هى الا بهجة ناظر ، وشرك خاطر ، ونسيجة عارض ماطر ، ودارين[3] تنفس عاطر . عقارها ثمين ، وحرمها أمين ، وحسنها باد وكمين . عقود أعنابها قد قرطت آذان الميْس[4] والحوْر[5] ، وعقائل أدواحها مبتسمة عن ثغور النَوْر ، وبسيطها متواضع عن النجد ، مرتفع عن الغوْر . وعينها سلسالة ، وسنابك المذانب منها مسالة ، تحمل الى كل جهة رسالة . ودورها فى العراء مبثوثة ، وركائب النواسم بينها محثوثة . لا تشكو بضيق الجوار ، واستكشاف

(١) مترايل وهى الآن Motril وتبعد عن مدينة غرناطة بنحو ٧٤ ك.م من ناحية الساحل شرقا . وهى لغاية الآن تعتبر من أهم بلاد غرناطة ، ومركز هام للمواصلات وزراعة قصب السكر . وقد أشار ابن الخطيب فى المتن الى أن أراضيها كانت من مستخلصات السلطان أى من ممتلكاته الخاصة .

(٢) برجه وكانت تسمى قديماً Virgi وتسمى اليوم Berja وتقع فى اقليم المرية بشرق الأندلس .

(٣) دارين : فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند فينسب إليها . والنسبة إليها دارى . قال الفرزدق :

كأن تريكة من ماء مزن ... ودارى الذكى من المدام

أنظر (مراصد الاطلاع جـ ٢ ص ٥٠٩) .

(٤) الميس بفتح الميم شجر عظيم يتخذ منه الرحال . وهو يقرب الى الجوز الرومى إلا أن ورقه أرق وأصغر له حب أسود أكبر من الفلفل . والميسة ضرب من الكروم ينهض على ساق .

(٥) الحور بتسكين الواو نوع من الشجر أيضاً .

العوار ، وتزاحم الزوّار . مياه وظلال ، وسحر حلال ، وخاق دمث كثراها ، ومحاسن متعددة كقراها ، ولطافة كنواسمها عند مَسْراها ، وأعيان ووجوه ، نُجلُ العيون بيض الوجوه . غلّتهم الحرير ، ومَجادتُهم غنية عن التقرير ، الا أن متبوأها بسيط مطروق ، وقاعدتها فروق ، ووتدها مفروق ، ومعقلها خرب ، كأنه أحدب جرب ، إن لم ينقل اليه الماء ، برح به الظماء ، ولله درّ صاحبنا اذ يقول :

يا بسيطا بمعانى برْجة — أصبح الحسن به مُشتهرا
لا تُحرك بفخار مقْوَلاً — فلقدُ ألقيمتَ منها حجراً

والبُرُّ بها نزر الوجود ، واللحم تِلْوُه وهما طيبتا الوجود ، والحِرَف بها ذاوية العود ، والمسلك اليها بعيد الصعود .

قلت فدلاية[1] ، قال خير رعاية وولاية ، حرير ترفع عن الثمن ، وملح يستفاد على الزمن ، ومسرح معروف ، وأرض ينبت بها جبن وخروف ، الا أنها لسرايا العدو البحرى مَجرٌ العوالى ، ومحل الفتكات على التوالى . فطريقها هوى ومَشاهد ، والعارف فى مثلها زاهد .

قلت فمدينة المريّة[2] قال المرية هنية مرية ، بحرية برية ، أصيلة سرية ، معقل الشموخ والإباية ، ومعدن المال وعنصر الجباية ، وحبوة[3] الأسطول

---

(١) دلاية وتسمى الآن Dalìàs ، وهى قرية فى ولاية المريه ، وتقع فى جنوب شرق برجه بنحو تسعة كيلو مترات .
راجع (الروض المعطار "الترجمة الفرنسية" ص ٥٦) أنظر كذلك : (M. Asin Palacios : Contribución a la toponimia àrabe de Españ̄a p. 104)

(٢) راجع ما قلناه فى صفحة (٤٣) حاشية (١)

(٣) الحبوة بضم الحاء أو فتحها ، ما يحتبى به الرجل من عمامة أو ثوب أو سيف ليستند عليه اذ لم يكن للعرب فى البوادى جدران تستند اليها فى مجالسها والمراد هنا القاعدة التى يرسو فيها الأسطول .

غير المعلل بالنصر ولا المطول ، ومحط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محاولة ، وحضارة تعبق طيباً ، ووجوه لا تعرف تقطيباً ، ولم تزل مع الظرف دار نُسَّاك ، وخاوة اعتكاف وامساك . أرغم أهلُها أنف الصليب لما عجم منها بالعود الصليب ، وأنف لامها وألفها حكم التغاليب ، فانقلب منها آيساً[1] عند التقليب :

يُسائل عن أهـل المرية سائل ... وكيف ثبات القوم والزوع باسرُ
فقلنا دارج فى الرمـل فى يوم لذة ... ولهو ويوم الروع فُتْخٌ[2] كواسر

بحرها مرفأ السفن الكبار ، وكرسيها هو العزيز عند الاعتبار ، وقصبتها سلوة الحزين ، ومودع الخزين ، وفلك المتزين . وهى محل الحلل الحريرية والأردية المشفوعة الأردية ، ولوادبها المزية على الأودية . مُصبحة الناظر المفتون ، المكسو الحصور والمتون ، بالأعناب والزيتون . بلد الكتان والرخام ،

---

(١) يشير ابن الخطيب بهذه العباره إلى المؤامرة الكبرى التى تمت سرا بين مملكتى قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطه المسلمة فى وقت واحد فى عام ١٣٠٩ م (٧٠٩ هـ) . على أن تقوم الجيوش القشتاليه بمهاجمة مدينة الجزيرة الخضراء Algecirus من الجنوب ، بينما تهاجم الأساطيل الأراجونيه ثغر المرية من الشرق ، ثم يتقابل الطرفان فى العاصمة مدينة غرناطه . غير أن هذا المشروع انتهى بالفشل إذ استطاعت كل من المدينتين الصمود أمام هذا الاعتداء المفاجىء ، ونخص بالذكر مدينة المرية التى تعرضت لأشد هجوم عرفته فى تاريخها . ولهذا اهتم المؤرخون القدامى والمحدثون بهذا الهجوم على المرية وكتبوا عنه فى شىء من التفصيل .

راجع (ابن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ، جـ ١ ص ٧١ وما بعدها (نشر علوش Alouche ، رباط ١٩٣٤) ولأهمية هذا النص الذى أورده ابن القاضى فقد قام بترجمته عدد من المستشرقين إلى لغات مختلفه ، فهناك ترجمه فرنسيه لعلوش I.S. Allouche فى (Hesperis, 1933, XVI, p.p. 122 - 138) وهناك ترجمة أخرى اسبانيه لسانشث البرنث فى (Sanchez Albornoz : La Espana Mushlmana p, 386 - 392 راجع كذلك G. Zurita : Los anales) de la Corona de Aragon, I, p.p. 435 - 437, zaragoza 1688) & Giménez Soler : El sitio de Almeria (1309) p. 301 - 302, & Lévi Provençal : Un zaŷal hispanique sur l'expédition aragonaise de 1309 Contre Almeria. (Al Andalus, Vol. VI, fasc. 2, 1941)

(٢) الفتخ : الأسد ذو الكف العريض .

والذم الضخام ، وحمّتها[1] بديعة الوصف ، محكمة الرصف مقصودة للعلاج والقصف . حرها شديد ، وذكرها طويل مديد ، وأثرها على البلاد جديد . الا أن مغارمها ثقيلة ، وصفحة جوّها فى المحول صقيلة ، وسماؤها بخيلة ، وبروقها لاتصدق منها مخيلة ، وبلالة النطية مزورة العطية ، وسعرها ليس من الأسعار غير الوطية ، ومعشوق البُر[2] بها قليل الوصال ، وحمل البحر صعب العضال ، وهى متوقعة الا أن يقى الله طلوع النضال ، وعادة المصال .

قلت فطبرنش[3] من شرقها ، قال حاضرة البلاد المشرقية ، وثنية البارقة الأفقية ، ما شئت من تنجيد بيت ، وعصر وزيت ، واحياء أنس ميت ، وحمام طيب ، وشعب تنثر فيه دنانير أبى الطيب[4] ، الا أنها محيلة الغيوث ، عادية الليوث ، متحزبة الأحزاب ، شريفة الأعزاب . ولو شكر الغيث شعيرها ، أخصبت البلاد عيرها .

قلت فبيرة[5] ، قال بلدة صافية الجو ، رحيبة الدّو[6] ، يسرح بها البعير ، ويجم بها الشعير ، ويقصدها من مرسية وأحوازها العير . فساكنها بين تجر وابتغاء أجر ، ووادها نيلى الفيوض والمدود ، مصرى التخوم والحدود ، إن بلغ الى الحد المحدود ، فليس رزقه بالمحصور ولا بالمعدود ، الا أنها قليلة المطر ، مقيمة على الخطر ، مثلومة الأعراض والأسوار ، مهطعة لداعى البوار . حليفة الحسن المغلوب ، معللة بالماء المجلوب ، آخذة بأكظام

(١) سيعيد الكلام (عن بلدة الحمه) فى الصفحات القليلة التالية .

(٢) القمح .

(٣) طبرنش وتسمى الآن Tabernas وهو اسم لاتينى بمعنى حوانيت وأكواخ . أنظر (Simonet : Op. cit. p. 108)

(٤) يقصد شعر أبى الطيب المتنبى فى شعب بوان حيث يصف اختراق أشعة الشمس الأشجار فتنعكس على الأرض على شكل قطع مستديرة تشبه الدنانير .

(٥) Vera راجع صفحة (٤٠) حاشية (١) من هذا الكتاب .

(٦) الدو أو الدوية أى البرية .

القلوب . خاملة الدور . قليلة الوجوه والصدور . كثيرة المشاجرة والشرور بُرّها أنزر من بِرّها فى المعتمر والبور . وزهد أهلها فى الصلاة شائع فى الجمهور ، وسوء مَلكَةِ (١) الأسرى من الذائع بها والمشهور .

ما قام خيرك يازمان بِشَرِّهِ أوْلى لنا ما قلَّ منك وما كفا

قلت مُجاقِر (٢)، قال حصن جديد، وخير مديد، وبحر ما على إفادته مزيد ، وخصب ثابت ويزيد . ساكنه قد قضى الحج أكثره، وظهر عَينُ الخير فيه وأكثره ، الا أنه لا تُلفى به للماء بُلاَلَة (٣)، ولا تُستشفّ للجود عُلاله (٤) .

قلت فقَنْتُوريّة (٥) ، قال يسار يمينها، وغبار كمينها، ومعمول يمينها ، يجود بها الجبن والعسل ، ومن دونها الأسل ، وأما الخبز فلا تسل ، وان كانت أحسن شكلا فأقل شرباً وأكلا ، وأجفا أهلا . وأشد جهلا ، وأعدم علاًّ ونهلا . وأهلها شرار ،أضلعهم بالظماء حرار ، لا تُلفى بها نَغْبةُ (٦) ماء ، ولا يُعدم مشقة ظماء ، ولا تتوج أفقها الا فى الندرة قزعة سماء .

قلت فبُرْشَانة (٧) . قال حصن مانع ،وجناب يانع . أهلها أولوا عداوة ، لأخلاق البداوة ،وعلى وجوههم نضرة وفى أيديهم نداوة ،يداوون بالسُّلافة (٨) علل الجلافة ،ويؤثرون علل التخلف على لذّة الخلافة ،فأصبح رَبْعهم ظرفاً قد مُلئ ظرفاً . فالمجون به بسوق ، وللفسوق ألف سوق ،تُشَمّر به الأذيال

(١) يقال حسن الملكة إذا كان حسن الصنع الى مماليكه .

(٢) مجاقر ، وهى الآن Mujacar وتقع فى جنوب بيره . أنظر (Simonet : Op. cit. p. 112)

(٣) البلالة : قدر ما يبل به الشيء .

(٤) العلالة بالضم ما يتعلل به ، البقية التى فى الكأس .

(٥) Cantoria راجع ما سبق ص (٣٦) حاشية (٤)

(٦) النغبة : بضم النون وفتحها ، الجرعة .

(٧) Purchena أنظر ما قيل عن هذه المدينة فى صفحة (٣٦) وحاشية (١) من هذا الكتاب .

(٨) السلافة ما سال قبل العصر وهو أفضل الخمر .

عن سوق ، وهي تبن بعض بيان عن أعيان ، وعلى وجوه نسوانها طلاقة ، وفى السنتهن ذلاقة ، ولهن بالسفارة عن الفقراء علاقة ، الا أن جفنها ليس بذي سور يقيه ، مما يتقيه ، ووغدها يتكلم بملء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه وشيابها تكمن حية الجور فيه .

قلت فأورية [1] ، قال بلدة الجبن والعسل ، والهواء الذى يذهب بالكسل ، وأما عن الماء البرود فلا تسل . إدامه الصيد الذى لا يتعذر ، وقوته الشعير الذى يبذر ، الا أنه بادى الوحشة والانقطاع ، والاجابة لداعى المخالفة والاهطاع [2] ، وحسن الجناب ، عرى من ثمرات النخيل والأعناب حقيق لمعرة العدو والاجتناب .

قلت فبليش [3] ، قال ثغر قصى ، على الأمن عصى ، ويتيم ليس عليه غير العدو وصى . ماؤه معين ، وحوره عين ، وخلوته على النسك وسواه تعين . وبه الحمام ، والنطف الجمام . ولأهله بالصيادة اهتمام ، وسله اذا اصطففت العسول إمام . الا أنها بلدة منقطعة بائنة ، وبأحواز العدو كائنة ، وبحدود لورقة [4] فتحها الله مشاهدة معاينه ، وبرها الزهيد القليل ، يتحف به العليل ، وسبيل الأمن اليها غير سبيل ، ومرعاها لسوء الجوار وبيل .

قلت فمدينة بسطة [5] ، قال وما بسطة بلد خصيب ، ومدينة لها من اسمها نصيب ، دوحها متهدل ، وطيب هوائها غير متبدل . وناهيك من بلد اختص

---

(1) أورية Oria بلدة فى ولاية المرية تتبع مركز Purchena برشانه .

(2) أهطع الرجل اى أسرع خائفا .

(3) المقصود هنا بليش الشقراء Velez Rubio بجوار مدينة لورقه ، وليس بليش مالقه Velez Malaga . راجع ماسبق أن قلناه فى صفحه (٧٨) حاشيه (٥) .

(4) لورقة (Lorca) مدينة قديمة بينها وبين مرسيه نحو ستين كيلو مترا ، وتقع على جبل مرتفع ، ولذا كانت تعتبر قلعة مدينة مرسيه فى الحروب التى تنشب بين المسلمين والمسيحين. وقد سقطت فى يد الاسبان عقب سقوط مرسيه فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى انظر (الروض المعطار ص١٧١) راجع كذلك ما كتبه عنها ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الاسلاميه : (Enc. Isl., III, p. 33 et la bibliographie citée)

(5) Baza راجع صفحة (٣١) حاشيه (٩) من هذا الكتاب .

أهله بالمران فى معالجة الزعفران ، وامتازوا به عن غيرهم من الجيران . عمّت أرضها السُّقيا فلا تُخلف ، وشملتها البركة تختص من يشاء الله ويزلف . يتخلل مدينتها الجدول المتدافع ، والناقع للعالل النافع . ثياب أهلها بالعبير تتأرّج ، وحورها تتجلى وتتبرج ، وولدانها فى شط أنهارها المتعددة تتفرج . ولها الفحْص الذى يسافر فيه الطرف سعياً ، ولا تعدم السائمة به رياً ولا رعياً . ولله درّ القائل :

في بلدة عوّدْتُ نفسى بها   اذ فى اسمها طـه وياسينُ
الجـأنى الدهر الى عـالم   يؤخذ منـه العِلْمُ والدين

إلا أن تربتها تفضح البناء ، وإنْ صحبَه الاعتناء . فأسوارها تسجد عند الإقامة ، وخندقها لاكسارها[1] تلقامه[2] ، فهى لذلك خير دار مقامه . ورياحها عاصفة ، ورعودها قاصفة ، وحاميتها تنظر الى الهياج ، من خلف سياج ، فالعدو فيها شديد الفتكات ، مُعمل الحركات ، وساكنها دائم الشكات ، وحدّها فليل ، وعزيزها لتوقع المكروه ذليل .

قلت فأُشْكَر[3] ، قال نِعْم البسيط المديد ، والرزق الجديد ، والسعى العديد ، والصيد القديد . تركب الجداول فحصها ، ويأبى الكمال نقصها ، ويلازم ظل الخصب شخصها . مسرح البهائم ، ومعدن الرعى الدائم ، الا أن معقلها لا يمنع ، ومكانها يحوم عليه الحادث الأشنع ، ونفوس أهلها مستسلمة لما الله يصنع .

---

(١) اكسار وكسور ما تكسر وتثنى على الأرض .

(٢) يقال رجل تلقام وتلقامة أى عظيم اللقم . أى أن خندقها ممتلىء بما تكسر من الأسوار والمبانى .

(٣) أشكر بلدة فى ولاية غرناطه وتسمى الآن Huescar وتقع فى شمال بسطه . وكانت هذه البلدة موضع حروب ومنازعات بين المسلمين والنصارى أيام ابن الخطيب راجع (Simonet Op. cit. p. 63)

قلت فأندَرَش[١] ، قال عنصر جباية ، ووطن به أولو إباية ، حريرها ذهب ، وتربها تبر ملتهب ، وماؤها سلسل ، وهواؤها لا يلفى معه كسل ، الا أنها ضيقة الأحواز والجهات ، كثيرة المعابر والفوهات ، عديمة الفرح والمتنزهات ، ثقيلة المغارم ، مستباحة المحارم ، أعرابها أولوا استطالة ، وأبناء مترفيها كثيرو البطالة ، فلا يعدم الزرع عدواناً ، ولا يفقد عَيْرُ الشر نَزَواناً ، وطريقها غير سوى ، وساكنها ضعيف يشكو من قوى .

قلت فَشُبالِش[٢] ، قال معدن حرير خلصت سبائكه ، وأثرى بزازه وحائكه ، وتهدلت حجاله وتمهدت أرائكه ، وجباية سَهُلَ اقتضاؤها ، وَجَمّت بيضاؤها ، الا أنه وطن عُدم ادامه ، وبيت ظهر اهتدامه ، وفقدت به حيل التعيُّش وأسبابه ، ومحل لا يقيم به إلا أربابه .

قلت فمدينة وادى آش[٣] ، قال مدينة الوطن ، ومناخ من عبر أو قطن ، للناس ما ظهر ولله ما بطن . وضعٌ سديد ، وبأس شديد ، ومعدن حديد ، ومحل عدة وعديد ، وبلد لا يحتل فيه الا النسيم ، ومرآى يخجل منه الصباح الوسيم . كثيرة الجداول والمذانب ، مخضرَّةُ الجوانب . الى الفواكه الكثيرة ، والكروم الأثيرة ، والسقى الذى يسد الخلّة ، ويضاعف الغلة ، وسندها معدن الحديد والحرير ، ومعقلها أهل للتاج والسرير . وهى دار أحساب ، وإرث واكتساب ، وأدب وحساب . وماؤها مجاج الجليد ، وهواؤها يُذَكّي طبع البليد ، الا أن ضعيفها يضيق عليه المعاش ، وناقهها يتعذر عليه الانتعاش ،

---

(١) أندرش Andarax ، بلدة من أعمال المريه ، غير موجودة الآن ولكن لايزال اسم أندرش يطلق على نهر هناك ينبع من جبال شلير Sierra Nevada وينحدر شرقاً وجنوباً ثم يصب مياهه فى البحر المتوسط عند المريه .

راجع (الروض المعطار ص ٤٠ حاشية ١ فى الترجمة الفرنسية) .

(٢) حصن شبالش وهو الآن Jubiles ، ويقع عند أطراف جبال شلير أو جبل الثلج . وقد تردد اسم شبالش كثيرا فى الحروب الأهليه التى قامت فى غرناطة على ممر عصورها الإسلامية المختلفة راجع (Simonet ; Op. cit. p, 66)

(٣) Guadix أنظر ماسبق أن قيل عن هذه المدينة فى صفحة (٢٨) حاشية رقم (٤)

وشيخها يخطو على قصبة الارتعاش ، فهى ذات برد ، وعكس وطرد ، ما شئت من تَحتٍي راعد ، ومقرور على الجمر قاعد ، ونفس صاعد ، وفتنة يَعيدُ بها واعد ، وشرور تسل الخناجر ، وفاجر يسطو بفاجر ، و كلف بهاجر واغتمام تبلغ به القلوب الحناجر ، وزمهرير تجمد له المياه فى شهر ناجر[١]. وعلى ذلك فدرّتها اسمع للحالب ، ونشيدتها أقرب للطالب ، ومحاسنها أغلب والحكم للغالب .

قلت ففنيانة [٢] ، قال مدينة ، وللخير خدينة [٣] . ما شئت من ظبى غرير ، وعضيب طرير ، وغلة حرير ، وماء نمير ، ودوام للتخزين وتعمير . الا أن بردها كثير ، ووَدْقها[٤] نثير ، وشرارها لهم فى الخيار تأثير .

قلت فمدينة غرناطة [٥] ، قال حضرة سنية ، والشمس بها عن مدح المادح غنية. كبرت عن قيل وقال ، وجلت عن وامق[٦] وقال[٧] ، وقيدت العقل بعقال ، وأمنت حال حسنها من انتقال . لو خيرت فى حسن الوضع لما زادت وصفاً ، ولا احكمت رصفاً ، ولا أخرجت أرضها ريحاناً ولا عصفاً [٨] ، ولا أخذت بأشتات المذاهب ، وأصناف المواهب جداً ولا قصفاً . كرسيها ظاهر الاشراف ، مطل على الأطراف ، وديوانها مكتوب بآيات الأنفال والأعراف ، وهواؤها صاف ، وللأنفاس مصاف . حجبت الجنوب عنها الجبال ، فأمنت الوباء والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال ، وفى جُنّة من النبال ، وانفسحت للشمال ، واستوفت الشروط على الكمال ، وانحدر

---

(١) الناجر : كل شهر من شهور الصيف ، لأن الإبل تنجر أى تعطش فيه .
(٢) Fiñana أنظر ما سبق ص (٤٩) حاشية رقم (٤) .
(٣) الخدن والخدين : الحبيب والصاحب .
(٤) الودق : المطر .
(٥) Granada راجع ما قلناه سابقاً فى ص (٥١) حاشية (٨) .
(٦) الوامق : المحب .
(٧) القال : الكاره .
(٨) العصف : ورق الزرع

منها مُجاج الجليد على الرمال ، وانبسط بين يديها المرج الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تفلى بها مفارقه . ريع من واديه بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطه تلّها للجبين ، وولد[1] حيات المذانب تأتى عن الشمال واليمين ، منها اللّبات[2] سلوكا تأثر من الحصباء بكل درّ ثمين ، وترك الأرض مخضرة تغير من خضراء السماء ضرة ، والأزهار مفترة ، والحياة الدنيا بزخرفها مغترة

أىّ واد أفاض من عرفات ... فوق حمرائها أتمّ إفاضه
ثم لما استقر بالسهل يجرى ... شقّ منها بحُلّة فضفاضه
كلما انساب كان عضباً صقيلا ... واذا ما استدار كان مُفاضه

فتعددت القرى والجنات ، وحُفّت بالأمّات[3] منها البنات ، ورفّ النبات ، وتدبجت الجنبات ، وتقلدت اللبات ، وطابت بالنواسم المهبات ، ودارت بالأسوار دَوْر السوار ، المنى والمستخلصات ، ونصبت لعرائس الرّوض المنصات ، وقعد سلطان الربيع لعرض القصّات ، وخطب بلبل الدوح فوجب الانصات ، وتموجت الأعناب ، واستبحر بكل عذب منها الجناب . وزينت السماء الدنيا من الأبراج العديدة بأبراج ذوات دقائق وادراج ، وتنفست الرياح عن ازاج ، أذكرت الجنة كل آمل ما عند الله وراج . وتبرجت بحمرائها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات ، سافرة عن صفحات القبات المزخرفات ، تقذف بالأنهار من بعد المرتقى فيوض بحورها الزرق ، وتناغى أذكار المآذن بأسحارها نغمات الوُرق[4] ، وكم أطلعت من أقمار وأهلّه ، وربّت من ملوك جله ، الى التمدين المحيط الاستدارة ، الصادر عن الأحكام والادارة ، ذى المحاسن غير المعارة ، المعجزة لسان الكناية والاستعارة ،

---

(١) فى الاصل وولدت ، ولد .

(٢) اللبات : النحور .

(٣) أمات وأمهات جمع أم وقيل الأمهات للناس والأمات للبهائم .

(٤) الورق : الحمام ومفردها ورقاء .

حيث المساجد العتيقة القديمة، والميازب[1] الحافظة للرى المُديمة، والجسور العريضة، والعوائد المقدرة بنفائس الأذواق، والوجوه الزهر والبشرات الرقاق، والزى الذى فاق زىّ الآفاق، وملأ قلوب المؤمنين بالاشفاق :

بلدة جللها الله سناءً وسناً — وأجرّ السعد من حلّ لديها رَسنا
قد أجنّتْ سكراً جماً ورزقاً حسناً — أعجزت من منتهى الفخر السعيد لسنا

يروقك فى أطرافها حسن الصور وجمالها، وطُرَف الصنائع وكمالها، والفعلة وأعمالها، حتى الاطلال وانهمالها، والسؤال واسمالها :

كلّ عليه من المحاسن لمحة — فى كل طور للوجود تطوّرا
كالروض يُعجب فى ابتداء نباته — واذا استجم به النبات وَنوّرا
واذا الجمال المطلق استشهدته — الغيث ما انتحل الخيال وزوّرا

ثم قال أى آمن عَرِىَ من مخافه، وأى حصافة لا تقابلها سخافة، ولكل شئ آفة. لاكنها والله بردها يطفئ حر الحياة، ويمنع الشفاه عن رد التحيات، وأسعارها يُشعر معيارها بالترهات، وعدوها يعاطى كؤس الحرب ـ هاك وهات. الى السكك التى بان خمولها، ولم يقبل الموضوع محمولها، والكرب الذى يجده الانسان فيها، صادف اضاقة أو ترفيهاً، والمكوس التى تطرد البركة وتنفيها. الى سوء الجوار وجفاء الزوار، ونزالة الديار، وغلاء[2]

---

(١) الميزاب والمئزاب : القناة يجرى فيها الماء وجمعها ميازيب وميازب ومآزيب وربما قيل ايضا موازيب .

(٢) أشار المؤرخون المعاصرون أمثال ابن خلدون فى مقدمته (ص ٣٦٤، ص ٤٣٢) والحسن النباهى فى كتابه المرقبة العليا (ص ١٦٤ نشر ليڤى بروفنسال) الى غلاء المعيشة فى غرناطه، وأرجعوا ذلك الى صعوبة أرضها الجبلية وحاجتها المستمرة الى الكثير من العناية والجهد والأموال لاصلاحها . وقد نتج عن ذلك أن اشتغل الناس بمشاكل هذه الحياة القاسية وانصرف معظمهم عن التعليم الذى كانت أجوره مرتفعة كذلك . واضطر عدد كبير من أهل غرناطه الى الرحيل الى مصر — زعيمة العالم الاسلامى فى ذلك الوقت (القرن ١٤م) — حيث المدارس الكثيرة العدد، والتعليم المجانى، والمنح الدراسية (الجرايات) ودور الاقامة للطلبة الغرباء (الأروقة)، هذا الى جانب رخص المعيشة وتوفر أسبابها .

الخشب والجيّار[1] ، وكساد المعائش عند الاضطرار . وإهانة المقابر وهى دار القرار ، وقصر الاعمار ، واستحلال الغيبة فى الأسمار ، واحتقار أولى الفضل والوقار ، والتنافس فى العقار ، والشح بالدرهم والدينار ، والهمّ والنار . ثم قال اللهم غفراً ، وان لم نقل كفراً ، ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولله در أبى العتاهيه حيث يقول :

أصبحت الدنيا لنا فتنةً والحمد لله على ذالكا
اجتمع الناس على ذمّها وما نرى منهم لها تاركاً

قلت فالحمّة[2] ، قال أجل ، الصحة والحجل[3] ،والصيد وإن كان المعتبر الأجل ، وتورد الخدود وان لم يطرقها الخجل ، والحصانة عند الهرب من الرهب ، والبُر كأنه قطع الذهب . والحامة التى حوضها يفهق بالنعيم ، مبذولة للخامل والزعيم ، تمتّ ثنيتّها بالنسب الى ثنية النعيم ، قد ملأها الله اعتدالا ، فلا تجد الخلق اعتياضاً عنه ولا استبدالا . وانبط صخرتها الصماء عذباً ذلالا ، قد اعتزل الكدر اعتزالا ، لكن مزارعها لا ترويها الجداول ،

= وقد بلغ من كثرة عدد المسافرين من مدينة غرناطه الى المشرق أن سمى أحد أرباضها الخارجية باسم " حوز الوداع " وهو المكان الذى اعتاد فيه الغرناطيون توديع أهاليهم وأحبابهم قبل رحيلهم . راجع (المقرى : نفح الطيب ج ١٠ ص ٢٣٠) .

وغير بعيد بالمرة أن يكون هذا المكان هو نفس المكان المعروف حتى اليوم باسم Suspiro del moro أى زفرة العربى ، والذى ترجمه الرواية الأسبانية الى الملك أبى عبد الله بن الأحمر آخر ملوك غرناطه حينما غادر ملكه وبلاده ، ووقف فى هذا المكان وهو يبكى ليلقى آخر نظرة على موطن عزه ومجد آبائه سنة ١٤٩٢ . وتضيف الرواية أن أمه عائشة قالت له وقتئذ : " أجل فلتبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال " .

أنظر (J. F. Kirk : Prescott's Ferdinand and Isabella p. 265) .

(١) الجيار : الكلس قبل أن يطفأ .

(٢) الحمه ، Alhama وهى بلدة صغيره على قة جبل بالقرب من مدينة بجانه من أعمال المرية . وقد أطلق العرب عليها اسم الحمه نسبة إلى العين الحاره التى تفجرت بها . ويروى الكتاب المسلمون أن مياه هذه العين كانت كبريتية طيبة ويقصدها أهل الأسقام والعاهات من جميع النواحى فلا يكاد يخطئهم نفعها (الروض المعطار ص ٣٩) وقد أشار ابن بطوطه الى وجود حمامين بجوار هذه العين أحدهما للنساء والآخر للرجال . (رحلة بن بطوطة ج ٢ ص ١٨٧) ولا زالت العين والحمامات العربية موجودة حتى الآن ويقصدها السواح من كل جانب .

(٣) الحجل طائر فى حجم الحمام يستطاب لحمه ويسمى الآن فى اسبانيا باسم Perdiz .

ولا يجادها الا الجوْد المزاول . فان أجدب العام أنيا [1] الطعام ، وان أخلف الانعام ، هلكت الناس والأنعام . والفواكه يطرف بها الجَلَب . وتزر عليها العُلب ، وعصيرها [2] لا يليق بالأكل ولا يصلح للحلب ، وبردها شديد وان لم يَنْقض المنقلب .

قلت فصالحة [3] ، قال لولا أنها مناخ لم تذكر ، فليس مما يذم ولا مما يشكر ، وإن كان ماؤها فضياً ، ووجه جوها وضياً ، وعصيرها مرضياً ، ورزقها أرضياً ، وفضلها ذاتياً لا عرضياً ، فهي مهب نسف ، ودار خسف وأهلها بهم ، ليس لأحد منهم فهم .

قلت فالبُرة [4] ومُنتفريد ، قال بلد ارتفاق ، باجماع واتفاق ، معدن البر الزكى ، والصيد الذكى ، وهد (و) شاهق [5] ، ومصرخ ناهق ، ومعدن بر فائق ، ان لم يعق من عدو القلعة عائق .

قلت فلوْشة [6] ، قال مرآى بهيج ، ومنظر يروق ويهيج ، ونهر سيال ،

---

(١) كذا ، ولعلها أحيا أو أغنى

(٢) لفظ العصير أطلق فى الأندلس على ما عصر من العنب وما اشبهه من الثمرات ، كما اطلق أيضا على التين الرطب . والعبارة هنا تستقيم مع المعنى الثانى كما هو واضح من استعمال كلمة الأكل. أنظر (عبد العزيز الأهوانى : ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة ، مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الثالث الجزء الثانى نوفمبر ١٩٥٧) .

(٣) صالحة : هذه البلده اندثرت منذ اواسط القرن السادس عشر الميلادى وقد سماها الكتاب الأسبان zalia ، وكانت تقع بين بليش مالقة ، والحمه .
راجع (Simonet : Op. Cit. p, 92)

(٤) إليره ولا تزال تسمى كذلك Illora ، اما منتفريد فتسمى الآن Montefrio واسمها اللاتينى القديم Mons Frigidus كل منهما فى شمال مدينة لوشه .
راجع (Simonet : Op. Cit. p. 57)

(٥) فى الأصل وهذا شاهق وليس لها معنى واعل صحتها كما أثبتناه فى المتن .

(٦) لوشة ، اسمها القديم Lacivis وتعرف اليوم باسم Loja (لوخا) . وهى مدينة هامة على نهر شنيل Genil (خنيل) وتبعد عن مدينة غرناطة بنحو خمسين كم من ناحية الجنوب الغربى.
راجع ماكتبه ليفى بروفنسال عن هذه المدينة فى (Enc, Isl. III p. 31)
أنظر كذلك (الروض المعطار ص ١٧٣ — ١٧٤) .
وتنبغى الإشارة إلى أنه بهذه البلدة ولد كاتب هذه النصوص الوزير لسان الدين بن الخطيب فى عام ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) .

وغصن ميّاد ميال ، وجنات وعيون ، ولذات لا تمطّل بها ديون ، وجداول تنضّخ بها الجوانح ، ومحاسن يشغل بها عن وكره السانح ، ونعم يذكر بها المانع المانح . ما شئت من رحا يدور ونطف[1] تشفى بها الصدور ، وصيد ووقود ، وأعناب كما[2] زانت اللّبّات عقود ، وأرانب تحسبهم ايقاظاً وهم رقود ، الى معدن الملح ومعاصر الزيت ، والخضر المتكفلة بخصب البيت ، والمرافق التى لا تحصر الا بعد الكيت ، والخارج الذى عضد مسحة الملاحة ، بجدوى الفلاحة ، الا أن داخلها حرج الأزقة ، وأحوال أهلها مائلة الى الرقة . وأزقتها قذرة ، وأسباب التطوف[3] بها متعذرة ، ومنازلها لنزائل الجند نازلة ، وعيون العدو لثغرها الشنيب مغازلة .

قلت فأرجذونة[4] ، قال شر دار ، وطلل لم يبق منه غير جدار ، ومصام يرجع البصر عنه وهو حاسر ، وعورة ساكنها لعدم الماء مستأسر[5] ، وقومها ذو بطر وأشر ، وشيوخها تيوس فى مسالخ بشر ، طعام من يقوت منهم أو يعول التيوس والوعول ، وحرثها مغل ، وخلائقها حسد وغل .

قلت فأنتقيرة[6] ، قال محل الحرث والانعام ، ومبذر الطعام ، والمرآة التى يتجلى بها وجه العام . الرحب والسهل ، والنبات الطفل ، والهشيم الكهل ، والوطن والأهل ، ساحت الجداول فى فحصها الأفيح وسالت ، وانسابت حيّات المذانب[7] فى سقيها الرحب الجوانب وانسالت ، لا تشكو

---

(١) النطفة : الماء الصافى النظيف قل أو كثر .

(٢) فى نسخة كلما ولعلها ما أثبتناه .

(٣) فى نسخة التصرف وان كانت التطوف أصوب .

(٤) ارجذونه أو أرشذونه وهى أسماء مشتقة من الاسم القديم Esteleduna ، ومعناه معصرة الزيت وتسمى حالياً Archidona ، وتقع فى ولاية مالقه .

راجع (Simonet : Op. cit. p. 83 ; Ency. Isl. I, p. 428)

(٥) يقع فى الأسر لعدم وجود الماء وبالتالى عدم مقاومة حصار العدو .

(٦) انتقيره اليوم Antequera ، وهى مدينة قديمة عامرة بالسكان وتبعد عن مالقه بنحو ٥٩ ك.م.

(٧) المذانب : جداول المياه الضيقة .

من نبوّ ساحة . ولا تُسفر الا عن ملاحة . ولا تضاهى فى جدوى فلاحة وعظم ملاّحه . الا أنها جرداء الخارج ، بل مارد ومارج وشدة فرّجها فارج ، لا تضبطها المسلحة للاتساع . والدرع الوسّاع . قليلة الفواكه . عديمة الملاطف والمفاكه . أهلها أولوا شرور وغرور ، وسلاح مشهور ، وقاهر ومقهور ، لا تقبل غريبا ، ولا تعدم مع العدو تثريبا .

قلت فذكوان (١) ، قال روض وغدير ، وفواكه جلّت عن التقدير ، وخورنق وسدير (٢) ، ومائدة ، لا تفوتها فائدة ، دارت على الطحن أحجارها ، والتفت أشجارها ، وطاب هواؤها ، وخفق بالمحاسن لواؤها ، الا أنها ضالة ساقطة ، وحبّة ترتقب لاقطه ، لا تدفع عن قرطها وسوارها بأسوارها ، ولا تمنع نزع صدارها بجدارها ، قضت بغلّة أعيانها ، حداثة بنيانها .

قلت فقرطمة (٣) ، قال الكرك الذى يؤمن عليه الدرك ، وان عظم المعترك . جوها صاف ، فى مشتىً ومصطاف ، وتربها للبرّ مصاف ، وعصيرها بالكثرة ذو اتصاف . الا أن الماء بمعقلها مخزون ، وعتاد موزون ، وأهلها فى الشدائد لا يجزون ، أيديهم بالبخل مغلولة ، وسيوف تشاجرهم مسلولة .

قلت فرُنْدَة (٤) ، قال أم جهات وحصون ، وشجرة ذات غصون ، وجناب خصيب . وحمى مصون ، بلد زرع وضرع ، وأصل وفرع ، مخازنها

---

(١) حصن ذكوان ويسمى اليوم Coin ويقع فى غرب مالقه . ويروى ابن عذارى فى كتابه البيان المغرب (ج ٢ ص ١٨٩) أن هذا الحصن أقيم فى عام ٣٠٨هـ (٩٢٩م) فى أيام عبد الرحمن الثالث الأموى ، ليكون حصناً أمامياً يواجه حصون عمر بن حفصون وأولاده الثائرين ضد حكومة قرطبة . راجع كذلك (Simonet : Op. cit p. 81) .

(٢) الخورنق والسدير : قصران للنعمان بن المنذر بالحيرة ، وحولهما قصص طريفة . راجع (ياقوت ج ٣ ص ٤٨٢ ، ج ٥ ص ٥٤ ، والأغانى للأصفهانى ج ٢ ص ١٤٤) . وقد كتبها سيمونت حوز نبق وسدير .

(٣) قرطمه ، وهى اليوم Cartama .

(٤) رنده حالياً Ronda وتقع فى غرب مالقه . واسمها القديم Arunda ، وهى تعتبر من أهم القواعد العسكرية فى الأندلس لارتفاعها وحصانة موقعها .

وينسب الى هذه المدينة الفقيه المتصوف ، ابن عباد الرندى ، شارح حكم بن عطاء الله السكندرى . راجع ما كتبه ليڤى بروڤنسال عن هذه المدينة الاسلامية فى (Enc. Isl. III p. 1254) .

بالبر مالية ، وأقواتها جديدة وبالية ، ونعمها بجوار الجبل متوالية . وهى بلد أعيان وصدور[1] ، وشموس وبدور ، ودور أى دور ، وماء واديها يتوصل اليه فى جدور محكم مقدور ، وفى أهلها فضاضة[2] وغضاضة ، ما فى الكلف بها حضاضة . يلبس نساؤها الموق[3] ، على الأملد المرموق ، ويسفرن عن الخد المعشوق[4] ، وينعشن قلب المشوق ، بالطيب المنشوق ، الا أن العدو طوى ذيل بردها ، وغصب بنياتها[5] ، وكيف السبيل الى ردها ، وأضاق خارجها ، وخفض معارجها ، وأعلى طائرها ودارجها .

فلما بلغ هذا الحد قال هل اكتفيت ؟ فقد شرحت صدرك وشفيت ، وبما طلبت منى قد وفيت ، يا بنى كأنى بالصباح السافر ، وادهم الظلام النافر ، قد أجفل أمام مقنّبه الوافر ، وترك من الهلال نعل الحافر ، ونفسى مطيّى ، وقد بلغت الليلة طيى ، وأجزلت عطيّى ، فلنيجم بالحمض ، ونلم بالغمض ، وأنا بعد نزيلك ان سرنى جزيلك ، وعديلك إن ضحك الى منديلك ، وسميرك إن روّانى نميرك ، فبادرت البدرة ففضضتها ، والصرة فاقتضضتها ، والعيبة فنفضتها ، والمعادن فأفضتها . فقال بوركت من مواس ، وأنشد قول أبى نواس :

ما من يد فى الناس واحدة	كيد أبو العباس أولاها
نام الثقات على مضاجعهم	وسرى الى نفسى فأحياها

(1) فى نسخة (ب) حدور .

(2) كذا ولعلها بضاضة .

(3) الموق خف غليظ يلبس فوق خف أدق منه ، وجمعه أمواق

(4) هنا اشارة الى سفور وجه النساء كما سبق أن أشرنا فى المقدمة .

(5) لا ينبغى ان يفهم من هذا أن مدينة رندة سقطت فى يد الأسبان فى ذلك الوقت . فالذى أعلمه أن مدينة رندة كانت من ضمن القواعد الاستراتيجية الأندلسيه التابعة لسلطان بنى مرين بالمغرب . وظلت كذلك الى أن استولى عليها سلطان غرناطة محمد الغنى بالله (الخامس) فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ولم يستولى عليها القشتاليون الا بخدعة سنة ١٤٨٥ م (٨٩٠ هـ) والمقصود هنا بعض سهولها .

ثم قال، نَمْ في أمان، من خطوب الزمان، وقم في ضمان من وقاية الرحمان. فلعمري وما عمري عليَّ بهيّن، ولا الحلف عليَّ بمتعيّن، لو كان الجود ثمراً لكنت لُبابه، أو عمراً لكنت شبابه، أو منزلا لكنت بابه. فما هو الا أن كحلت جفني بميل الرقاد، وقُدت طرفه سلس المقاد، وقام قيّم الخان الى عادة الافتقاد، وبادر سراجه بالإيقاد؛ ونظرت الى مضجع الشيخ ليس فيه الا زئبر اطماره، وروْث حماره، فخرجت لإيثاره، مقتفيا لآثاره، فكأنَّ الفلك لفهُ في مداره، أو خسفت الأرض به وبداره. وسرت وفي قلبي لبَيْنِه وذهاب أثره، وعينه حرقه، وقلت متأسّياً لكل اجتماع من خليلين فرقه.

المجلس الثاني

قال المخبر، فلما اندمل جرح الفراق بعد طول، وزمان مَمْطول، ومحا رسمَ التذكّر تكرّرُ فصول، ونصول خضاب وخضاب نصول. بينا أنا ذات يوم في بعض أسواق الغبار، أسرّح طرف الاعتبار، في أمم تنسل من كل حدب، وتنتدب من كلّ منتدى ومنتدب، ما بين مشتمل للصمّاء يلويها، ولائث للعمامة لا يسوّيها، ومتلفظ بالشهادة وهو لا ينويها، وصاعد من غور، ومتظلّم من جور، وممسك بذنب عير أو روق ثور، يموجون، ومن الأجداث يخرجون، كأنهم النمل نشرها وقد برزت للشمس من مطر الأمس يشيرون بأجنحة الأكسية، ويتساقطون على ثماد القُلُب واسئار[1] الأحسية، وقد اصطف ذابحو الجزور، وبائعوا اللبوب[2] والبزور[3]، ولصق بالاملياء حَلَّلَة العُقَد وشهَدة الزور، ونظرت في ذلك المجتمع، الهائل المرأى والمسمع، الى دَرَسة غيّ، وطهاة كيّ، ورقاة جنون، بضروب

(١) السؤر ما يبقى في الاناء، سئر سأراً الشيء: بقي.

(٢) يقصد الجوز واللوز.

(٣) البزور والأبزار أي التوابل.

من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظل بقيطون[١] ، وسلّ سيف لاطون[٢] ، وتحدى برقية لديغ ومداواة مبطون . قد اشتمل بسمل غفاره ، وبين يديه غبار فى جلد فاره ، وطحن من اطعام كفاره ، وأمامه تلميذ قد شمرّ الأكمام ، والتفت الخلف والأمام ، وصرف لوحى لحظة الاهتمام ، وهو يأسو ويجرح ، ويتكلم بلسان القوم ثم يشرح ، ويقيد من حضره بقيد العزيمة فلا يبرح ، ويقول أيها البهم السارح ، والحزب المسرور بما لديه الفارح ، والسرب الذى تقتاته لولاة البغى الجوارح ، صرفتم غروب اعتنائكم لمآرب نسائكم وأبنائكم ، وذهلتم عمن حل بفنائكم ، وجعلتم تطمعون وتجمعون ، انما يستجيب الذين يسمعون ، من وقعت علىّ منكم عينه ، فقد رأى فاتح أقفال الأسرار ، ومثبت الفرّار ومصمت اؤلئك الصرار ، ومغوّر مياه الآبار بيسير الغبار ، ومخرج الاضمار فى المضمار ، ومذهب المس وطارد العمّار[٣]. أنا قاطع الدماء اذا نزفت ، وكاشف الغمّاء اذا ما انكشفت . أهنأ الابل فلا تجرب ، واخطّ حول الحمى فلا تدنو السباع ولا تقرب ، وادخّن بها فلا تتسلل الحية ولا تدب العقرب . إن نعيتُ الشمس لوقت محدود طمس فيها نورها ، وإن وعدت الأرض برىّ محمود فار تنورها ، وإن كتبت لعقد النكاح انحلّت ، وإن عقلتُ خطى الضالة وقفت حيث حلت وإن زجرتْ الجنون تركتْ وتخلّتْ ، وان استثرتُ الدفائن القت الأرض ما فيها وتخلت . أنا جردت البيضة الشعراء ، وزوجت الفتى الشرقى من الجارية العذراء . أنا صافحت الملَك ، ورصدت الفلك ، ومزجت بسرّ الحكمة الضياء والحلك ، فاحتقرت الملك وما ملك .

---

(١) قيطون وجمعها قياطين بمعنى خيمة فى لغة أهل المغرب ، ويقولون للبيت بجانب البيت المسكون قيطون (Dozy : Supplement aux Dictonnaires Arabes II p. 378) راجع كذلك (عبد العزيز الأهوانى : ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة . مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الثالث الجزء الثانى نوفمبر ١٩٥٧

(٢) لعلها مشتقة من الكلمة الأسبانية لاطون Laton بمعنى النحاس وقد استعملها المقرى فى كتابه نفح الطيب . راجع (Dozy : Suppl. II p. 508 .

(٣) العمار : سكان البيوت من الجن .

دعوت علم الطباع فأطاع ، وقطعت شكوك الهيئة بالشكل القطّاع ، وقلت بالقدر وبالاستطاع ، وسبقت فى صناعة البرهان يوم الرهان ، ورُضت صعاب الرياضيات حتى ذل قيادها ، وسهل انقيادها ، وعدّلت الكواكب ، واختبرت القلوب البابانيّة والمناكب ، وبشّرتُ عند رجوع خُنّسها [١] بالغيوث السواكب . ووقفت بالامتحان ، على صناعة الألحان ، وقرأتُ ما بعد الطبيعة ، وناظرت قسيس البيعة [٢] ، وأعملت فى الأصول ، مرهفة النصول ، وأحكمت أمزجة الطباع وطبائع الفصول ، وامتزتُ بالبروع فى الفروع ، وقمت فى العهد الحديث بالحديث ، وحُزْتُ فى علم اللسان درجة الاحسان . وحققت قسمة الفروض ، وعدّلتُ الشعر بميزان العروض ، ونظمت ونثرت وأكثرت فما عثرت ، وعبّرتُ حلم النوم ، ولبست الخرقة

(١) الخنس الكواكب كلها وقيل السيارات منها فقط أو بعضها وقيل هى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد .

(٢) من الأشياء المألوفة فى تاريخ الأندلس ، أن يتقن عدد كبير من الاسبان المسيحيين اللغة العربية ، وهؤلاء عرفوا بالمستعربين كذلك كان الحال بالنسبة للأندلسيين المسلمين الذين أتقنوا لغة جيرانهم المسيحيين امثال القشتاليين والأراجونيين . وقد نتج عن ذلك حدوث مجادلات ومناقشات دينية وعلمية مختلفة بين علماء المسيحية والاسلام . فابن الخطيب فى كتابه الاحاطة فى أخبار غرناطة (لوحة ١١١ نسخة الاسكوريال) يروى أن أحد العلماء المعاصرين له واسمه محمد بن لب الكنانى المالقى ، كان يطوف بالبلاد الاسبانية ويناقش قساوستها فى أصول الديانتين الاسلامية والمسيحية . ويروى فى موضع آخر انه فى أيام الملك الاسبانى الفونسو العاشر الملقب بالحكيم أو العالم El Sabio فى القرن الثالث عشر الميلادى ، كان العالم الغرناطى محمد الرقوطى يعلم المسيحيين واليهود فى مدرسة مرسية . كذلك يروى ابن الخطيب فى موضع ثالث (احاطة لوحة ٢٢٢) ان العالم الغرناطى عبد الله بن سهل (فى القرن الثالث عشر الميلادى) كانت له شهرة كبيرة فى العلوم الرياضيه لدرجة أن المسيحيين فى شتى نواحى اسبانيا ولاسيما مدينة طليطله ، كانوا يرحلون الى داره فى مدينة بياسة Baeza لمجادلته والاستفادة من علمه . ولا ندرى إن كان ابن الخطيب نفسه كان يعرف اللغة القشتالية أم لا ، فى حوليات ملوك قشتالة التى كتبها القائد الاسبانى Lopez de Ayala ، وهو معاصر لابن الخطيب ، نجد مجموعة من الرسائل القشتاليه موجهة من ابن الخطيب الى ملك قشتاله فى ذلك الوقت بطرس القاسى Pedro el cruel . ويظهر فى هذه الرسائل الاسبانية أيضا ، أسلوب ابن الخطيب المعقد باستعاراته وكناياته ومحسناته البديعية . على أننا فى الوقت نفسه لا نستبعد أيضا أن يكون ابن الخطيب قد كتب هذه الرسائل بمعاونة بعض المترجمين ، إذ من المعروف أن قصر الحمراء كان يحتوى على إدارة خاصة لترجمة رسائل الدولة الرسمية الى ملوك الدول المجاوره .

راجع (Lopez de Ayala : Cronicas de los Reyes de Castilla I pp. 483 - 493)

راجع كذلك (Los Documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona) de Aragon. Publicados y traducidos al castellano por M, Alarcon y R. G. de Linares p.p 411 - 415.

بشرط القوم ، ولزمت خلوة الذكر ومعتكف الصوم . وأما معرفتى بالأخبار ، وذرع الأرض بالأشبار ، ما بين جليقية الى الأنبار ، وأوصاف المدن الكبار ، فقد ثبت بالاختبار . قال فأثار قديمى وأذكرنى بنديمى ، فقلت الله أكبر ، أوضح الخبر المخبر . فخضت اليه من بينى وبينه وهم بحر زاخر ، وأول ليس له آخر ، وبهم يسخر منه الساخر ، مابين كبش مجتر وعجل ناخر . وقلت أيها الحبر ، ضالتى قريب أمدها ، معروف معتمدها ، وعلى ذلك فالشكر ممنوح ، والرفد طوفان نوح ، فألين العريكة ، وسلم النطع والأريكة . وقال أجل واعرض ، وانزل السؤال وافرض . فقلت بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون ، وقد ظفرت قبلك بنقاب ، وعود احتقاب ، وسارب أنقاب ، حصل به من طابى الشكر ، وبك يتم الشطر ، ويعظم الخطر. فقال الناس متهم ومنجد ، وخاذل وممجد ، ولا تجود يد الا بما تجد ، والله المرشد ، وجعل ينشد :

إذا المشكلات تصدين لى | كشفت غوامضها بالنظر
ولست بإمعة فى الرجال | أسائل هذا وذا وما الخبر
ولكننى مذرب[1] الأصغرين | أبين مع ما مضى وما غبر

ثم قال هات ، أمن عقدك الشبهات ، قلت ما تقول فى بادس[2] ، قال بدأت بحمدلة الرقعة ، وبركة البقعة ، ومدفن الولى ، ومظهر النور الجلى والنحر غير العاطل ولا الخلى من الحلى ، بلد السراوة والشجاعة ، والإيثار على فرض المجاعة ، والنفوس الأوابة الى الله الرجاعة ، حيث البر والحوت ، والخشب الذى ينشأ منه كل منحوت ، والبأس والاقدام ، والفاكهة الطيبة

(١) ذرب اللسان : فصيح فاحش .

(٢) بادس بكسر الدال ، ويقال "باديس" ، مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ويقال لها بادس فاس تمييزاً لها عن بادس الزاب . ومكانها الآن عند مدينة Villa Jordana بالمغرب الخليفى .

راجع (ياقوت جـ ٢ ص ٢٩ ، تاج العروس جـ ٤ ص ١٠٦ ، التعريف بابن خلدون ص ٦٩ حاشية ١) .

والإدام ، وربّ الجبال ، وفضل للمدافعة لصهب السبال ، الا أنها موحشة الخارج ، وعرة المعارج ، مجاورة غمارة بالمارد والمارج . فهم ذوو دبيب في مدارج تلك الغرابيب ، وكيدهم ببركة الشيخ في تتبيب .

قلت فمدينة سَبْتَة [1] ، قال عروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى، تبرجت تبرّج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة ، واختص

---

(١) سبته Ceuta ، بفتح السين وسكون الباء ، مدينة ساحلية من مدن المغرب الأقصى في المنطقة الخليفية . وهي عبارة عن شبه جزيرة في مضيق جبل طارق وتحيط بها الجبال من ناحية الجنوب . وهذا الوضع الجغرافي جعل اتجاهها واتصالها بالأندلس أقوى بكثير من اتصالها بالمغرب الموجودة فيه . ولهذا نجد أن مدينة سبتة في العصور الوسطى الاسلامية كانت تمتاز بطابع أندلسي في مظهرها وثقافتها بل وفي وضعها السياسي أيضاً : فالأمويون بالأندلس اتخذوها قاعدة استراتيجية لهم لمقاومة الخطر الفاطمي في القرن العاشر ، كذلك استولى عليها الحموديون حكام مالقة أيام ملوك الطوائف في القرن الحادي عشر ، ثم استقلت بها أسرة من أصل أندلسي تعرف ببني العزفي في القرن الثالث عشر ، كذلك استولى عليها بعض ملوك بني الأحمر سلاطين غرناطه مدة من الزمان .. وأخيراً في القرن الخامس عشر استولى عليها البرتغاليون ثم الأسبان بعد ذلك .

وهناك نص على جانب كبير من الأهمية في وصف مدينة سبتة (في أواخر القرن ١٤م وأوائل القرن ١٥م) لرجل معاصر لابن الخطيب وهو محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري ، السبتي الدار والنشأة والمولد . وقد عثر على هذا النص المستشرق الفرنسي ليڤي بروفنسال ونشره بالعنوان التالي : [E. Lévi - Provençal : Une description de Ceuta musulmana au XV siècle., Hespéris, tome XII fasc. II (1931) p. 145 - 177] ويبدأ هذا النص بالكلام عن مقابر المدينة والشخصيات الهامة المدفونة فيها ثم يصف مساجد المدينة والمدرسة العلمية التي أنشأها السلطان ابو الحسن المريني بها ، ثم يتكلم عن الخزائن العلمية التي بدور الأكابر والأعيان وعددها اثنتان وستون خزانة (مكتبة) ثم يتكلم بالتفصيل عن الروابط والزوايا والحمامات والأسواق والحوانيت والفنادق والطواحين والمضارب والمصايد والمطامير لخزن الزرع ، كما يصف ديوان المدينة وقلاعها ومراسيها وأرباضها . ثم يتكلم عن النجرات وهي المصانع المعدة لعمل القسي ، كما يذكر أسماء العائلات المختصة بهذه الصناعة منذ القدم ، ونخص بالذكر : " الشيخ المتقدم الحسن الذات ، الكثير المواعين والأدوات ، أبو الحسن المبادي" ، بعد ذلك يتكلم الكاتب عن مراكز رمي السهام في المدينة وهي المعروفة بالمرامي والمعبر عنها بالجلسات ، وعددها أربعة وأربعون مرمى بالميناء ، " إذ أن الرمي طبع لأهل سبته طبعوا عليه فلا تجد منهم شريفاً ولا مشروفاً ولا كبيرا ولا صغيرا إلا وله بصر بالرمي=

ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة . واذا قامت بيض أسوارها ، مقام سوارها ، وكان جبل بنيونش[1] شمامة أزهارها ، والمنارة منارة شوارها ، كيف لا ترغب النفوس فى جوارها ، وتخيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها . الى الميتا الفلكية ، والمراسى الفلكية ، والزكية الزكية ، غير المنزورة ولا البكية . ذات الوقود الجزل ، المعد للأزل ، والقصور المقصورة على الجد والهزل ، والوجوه الزهر السحن[2] ، المضنون بها عن المحن . دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحرب الناشبة ، والأسطول المرهوب ، المحذور الألهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والأثر المعروف المنسوب . كرسى الأمراء والأشراف ، والوسيطة لخامس أقاليم البسيطة ، فلاحظ لها فى الانحراف . بصرة علوم اللسان ، وصنعاء الحلل الحسان ، وثمرة امتثال قوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » ، الأمينة على الاختزان ، القويمة المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان ، وكفاها السكنى ببنيونش فى فصول الزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان ، والمدفن المرحوم غير المزحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم . الا أنها فاغرة أفواه الجنوب للغيث المصبوب ، عرضة للرياح ذات الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب . وناهيك بحسنة تعد من الذنوب فأحوال أهلها دقيقة ، وتكلفهم ظاهر مهما عرضت وليمة أو عقيقة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وانساب نفقاتهم فى تقدير الأرزاق عريقة ، فهم يمصون البلالة مص المحاجم ، ويجعلون الخبز فى الولائم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم ، وراعى الجديب بالمطر الساجم ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة ، الشك عندى فى مكة والمدينة .

= وتقدم فيه » . وأخيرا يتناول الكاتب الكلام عن قرية بنيونش Baliunech المجاورة لسبتة من ناحية الغرب ، فيصف أنهارها وبساتينها وحماماتها ... الخ .

ولا زالت آثار بنيونش موجودة حتى اليوم ، ويرجح ليفى بروفنسال أنها من منشئات الأمويين حينما استقروا هناك فى القرن العاشر الميلادى . أنظر كذلك (Lévi Provençal : Las Ciudades y las Instituciones Urbanas del Occidente Musulman en la Edad Media. p, 45 (Tetuan 1950)

(1) راجع ما قلناه عن هذه البلدة فى الحاشية السابقة .

(2) السحنة والسحناء : الهيئة واللون . لين البشرة والنعمه .

قلت فطنجة (١)، المدينة العاديّة ، والبقعة التى ليست بالخبيثة ولا بالرديّة اليها بالأندلس كانت نسبة المغاربة ، والكتائب المحاربة ، والرفق السائحة فى الأرض الضاربة . سورها ليس بمثلوم ، وساكنها غير ملوم ، وفضلها معلوم ، ودارها ليست بدار لؤم . ميدان أفراس كبير ، ومعدن هند وذكير ، مثلت بين المنار والقالة (٢)، وحكّماها فى التفضيل فأشكل الحكم وتعذرت المقالة ، ولم يصحّ البيع ولا وجبت الإقالة . هذى سماء بروج ، وهذى أزمار مروج ، وكلاهما مركب سرور وسروج ، ومتمتع فروج ، ومطعم قديد ومروج . ديارها نبيهة ، وأحوالها بأحوال جارتها شبيهة ، لكن رملها يحشو العين بالذرور عند المرور ، ويدخل الدور ، ويفسد القاذور ورياحها لا تسكن الا فى الندور ، وظلمة جوّها متسببة عما وراءها من مغرب الشموس والبدور . وعين برقانها ، أعذب عيونها ، مشهور بتوليد الهوج ، قران عند الناس غير ذى عوج ، ويذكر أن سليمان اختصها بسجن مَرَدَة الجن ، فيعثر بها على أوان ملئت ريحاً تثير تبريحاً ، ويسندون اليها افكاً صريحاً .

قلت فقصر كُتامة (٣) ، قال مغرد عندليب ، وعنصر بُرّ وحليب ، ومرعى سائمة ، ومسرح بهيمة فى الجميم (٤) هائمة ، ومستقط مُزنة (٥)

---

(١) طنجة Tanger مدينة قديمة معروفة بالمغرب الأقصى ، وتقع على المحيط الأطلنطى ويفصلها عن أوربا مضيق جبل طارق .

(٢) قاله وبالاسبانية La Cala ، لها معان كثيرة مختلفة ، وقد يستخدم منها هنا المعنى الخاص بميناء أو خليج . راجع (Dozy : Supplement , . . . II p. 296) .

(٣) قصر كتامه ويسمى اليوم القصر الكبير ويسمى أيضاً قصر عبد الكريم ، وهو بلدة معروفة فى المنطقة الخليفية بالمغرب الأقصى ، وتبعد عن ساحل المحيط الاطلنطى نحو ٣٦ كلم. راجع بعض التفاصيل التاريخية عن هذه المدينة فى (Alleche : La Revolte des Banu Aškiluka contre le sultan Muhammad II, Hespéris, tome XXV, fasc. I (1938) (p. 2 Note 2

(٤) أرض جرداء أى ملساء .

(٥) المزن السحاب أو ذو الماء منه ، والمزنة القطعة من المزن .

غادية ، وديمة[1] دائمة . وبه التفّاح النفّاح ، ترتاح الى شميمه الأرواح ، والفواكه قد ثقلت بها الأدواح ، يقذف بها المساء والصباح ، ويتفنن فيه الحرام والمباح ، والسمك كما جُرِّدت الصفاح اذا استبحر الكفاح . وطريقه مسلك القافلة ، وببابه السوق الحافلة ، ينسل اليها من غُمارة[2] قرود وفهود ، وأمة صالح وهود ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . الا أنه قَوْرٌ قد تهدم ، ودار الندوة لأم ملدم ، ومنتزى لهائج المرار وثائر الدم . جثم الهواء الخبيث فى بطيحته وربض ، وانبسط وما انقبض ، وجهز ليله عسكر البعوض الهاجم ، دَربة بمص المحاجم . وأمّا وحله فلا يُعبر ولا يُسبر ، وإن أسهبتُ العبارة فالأمر أكبر .

قلت فأُصَيْلاَ[3] ، قال كثيرة المرافق ، رافعة فى الخصب اللواء الخافق ، العصير الأثير ، والحوت الكثير ، واللبن الغزير ، والإدام الذى يرمى به مَن حُكِمَ عليه بالتعزير ، والسفن المترددة وفيها الملف والأبازير . الا أن حصنها من المنعة بَرِى ، وساكنها بربرى ، وجارها من غمارة جرى .

قلت فمدينة سلا[4] ، قال العقيلة المفضلة ، والبطيحة المخضلة ، والقاعدة المؤصَّلة ، والسورة المفصلة ، ذات الوسامة والنضارة ، والجامعة بين البداوة والحضارة . معدن القطن والكتان ، والمدرسة والمارستان ، والزاوية كأنها البستان ، والوادى المتعدد الأجفان ، والقطر الآمن عند الرجفان ، والعصير العظيم الشان ، والأسواق الممتازة حتى برقيق الحُبْشان . اكتنفها المسرح والخصب الذى لا يبرح ، والبحر الذى يأسو

---

(١) الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق . وجمعها ديم وديوم يقال : مطرتهم السماء بديمة وبديم .

(٢) غمارة اسم لقبيلة بربرية ، ويطلق أيضاً على الجبال التى تقيم فيها .

(٣) أصيلا (بضم الألف وفتح الصاد أو بفتح الألف وكسر الصاد) وبالاسبانية Arcila ، مدينة على ساحل المحيط الاطلنطى بالقرب من مضيق جبل طارق .

(٤) Salé راجع ما سبق أن قيل عن هذه المدينة فى الرسالة الثانية .

ويجرح ، وشقّها الوادي يتمّم محاسنها ويشرح . وقابلها الرّباط [١] الذي ظهر به من المنصور الاغتباط ، حيث القصبة والساباط [٢] ووقع منه بنظرة الاعتباط ، فاتسع الخرق وعظم الاشتطاط ، وبعد الكمال يكون الانحطاط . الى شالة [٣] مرعى الذمم ونتيجة الهمم ، ومشمخ الأنوف ذوات الشمم ، وعنوان بر الديّم ، حيث الحسنات المكتتبة ، والأوقاف المرتبة ، والقباب كالأزهار مجوّدة بذكر الله أثناء الليل وأطراف النهار ، وطلل حسان المثل في الاشتهار . وهي على الجملة من غيرها أوفق ، ومغارمها لاحترام الملوك الكرام أرفق ، ومقبرتها المنضّدة عجب في الانتظام ، معدودة في المدافن العظام ، وتتأتى بها للعبادة الخلوة ، وتوجد عندها للهموم السلوة ، كما قال ابن الخطيب :

وصلت حثيث السير فيمن فلا الفلا   فلا خاطري لمّا نأى وانجلى انجلى
ولا نسخت كربي بقلبيَ سلوة   فلمّا سرى فيه نسيم سلا سلا

وكفى بالشابل رزقاً طرياً ، وسمكاً بالتفضيل حريّاً ، يبرز عدد قطر الديم ، ويباع ببخس القيم ، ويعم حتى المحاشر [٤] النائية والخيم . الا أن ماءها لا يروى به وارد ، لا كريم ولا بارد ، واليفها شارد ، والحزين بها فاسد ، وبعوضها مستأسد ، راضع غير مفطوم ، وَاسِم للخد والخرطوم بذبالك الخرطوم ، خالع للعذار غير مخطوم . تصغي لرنّته الآذان ، ويفتك بوكز السنان ، كالقوس تصمى الرمايا وهي مرنان ، وديارها في الماء دار عثمان ، وطواحنها غالية الأثمان ، وكثبانها العفر تلوث بيض الثياب ، طيّ العياب . وعابر واديها الى مأرب أكيد في تنكيد ، الى غلبة الامساك وخوض النسّاك ،

---

(١) مدينة رباط عاصمة المغرب الأقصى اليوم ، بناها الخليفة المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٤-٥٩٥هـ.) أعظم ملوك الموحدين، وسماها "رباط الفتح" وهذه المدينة تقابل وتواجه مدينة سلا فقيل الرباط وسلاه ويفصلهما وادي أبو الرقراق (بورجراج) (السلاوي : الاستقصا جـ ١ ص ١٦٤ـ - ١٨١) .

(٢) الساباط ، سقيفة بين دارين ، تحتها طريق وجمعها سوابيط وساباطات .

(٣) Chella شالة سلا حيث مقابر ملوك بني مرين . راجع ما قلناه عنها سابقاً (ص ١٩) .

(٤) المحاشر اصطلاح أندلسي بمعنى القرى والضياع .

وكثرة أرباب الخُطط ، والإعياء فى الشطط ، تذود عن جنّاته للأسد جنان فلا يلتذ بقطف العنقود منها بنان ؛ وفى أهلها خِفّة ، وميزانها لا تعتدل منه كفّة .

قلت فأنفا [1]، قال جَوْن [2] الحطّ والإقلاع ، ومجلب السلاع ، تهادى اليها السفن شارعة ، وتبتدرها مسارعة ، تصارف بُرّها الذهبى بالذهب الإبريز ، وتراوح بَرّها وتغاديه بالتبريز .

يكثر الطير حيث ينتثر الحبّ (م) وتُغشى منـــازلُ الكرماء

وخارجها يفضل كل خارج ، وقانصها يجمع بين طائر ودارج ، وفواكهها طيّبة ، وأمطار عصيرها صَيّبة . وكيْلها وافر ، وسعرها عن وجه الرخاء سافر ، وميرتها لا ينقطع لها خفّ ولا حافر ، لكنّ ماءها وهواءها عديما الصحة ، والعرب عليها فى الفتن مُلحّة ، والأمراض بها تعيث وتعبث ، والحزين بها لا يلبث .

قلت فأزمُّور [3]، قال جار وادٍ وريف ، وعروس ربيع وخريف ، وذو وضع شريف ، أطلّتْ على واديه المنازه والمراقب ، كأنها النجوم الثواقب ، وجلّت من خصبه المناقب ، وضمن المرافق نهره المجاور وبحره المصاقب . بلد يخزن الأقوات ، ويملأ اللهوات ، باطنة الخير ، وإدامة اللحم

(1) آنفا Anfa ، وهى المعروفة اليوم باسم الدار البيضاء Casablanca ، وهى مدينة كبيرة على ساحل المحيط الاطلنطى بالمغرب الاقصى ، وتقع على مسافة ستين ميلا شرقى أزمور . وهى مشهورة بمنتجاتها الزراعية وأشجار الفواكه . وكانت هذه المدينة تنافس ثغر قادس البرتغالى ، ونتج عن هذا التنافس التجارى أن دمرتها الاساطيل البرتغالية عام ١٤٦٥ ثم أعيد بناؤها سنة ١٥١٥ .

أنظر (Juan Leon africano : Descripcion de africa p. 107 - 108) .

(2) الجون : ضرب من القطا سود البطون والأجنحة ولعله يريد من وراء ذلك أن المدينة كانت بمثابة محط للسفن التى تشبه الجون فى نزولها وإقلاعها .

(3) أزمور Azammur ، مدينة على ساحل المحيط الاطلنطى بالمغرب الأقصى ، وتقع على الضفة اليسرى لمصب نهر أم الربيع .

راجع (J. Leon africano : Op. cit. p. 83) والتعريف بابن خلدون ص ٤٤ حاشية ٤)

والطير ، وساكنه رفيه ، ولباسه يتحد فيه ، ومسكنه نبيه ، وحوته الشابل ليس له شبيه . لكن أهله انما حرثهم وحصادهم اقتصادهم فلا يعرفون ارضاخاً ، ولا ورداً نضاخاً ، يترامون على حبة الخردل بالجندل ، ويتضاربون على الأثمان الزيوف بالسيوف . بربرى لسانهم كثير حسانهم ، قليل إحسانهم ، يكثر بينهم بالعرض الافتخار ، ويعدم ببلدهم الماء والملح والفخار .

قلت فتيط [1] ، قال معدن تقصير ، وبلد بين بحرى ماء وعصير ، ورباط للأولياء به سرور واغتباط . ومسجدها تضيق عنه المدائن مناراً عالياً ، وبقلادة الإحكام حالياً ؛ الا أن خارجها لا يروق عين المقيم والمسافر ، ولا يشوق بحسن سافر ، ومؤمنه يشقى بصداع كافر ، وحماه عدو كل خف وحافر ، فلولا ساكنه لم ينبس يوم فخر ، ولم ينم إلا إلى صخر .

قلت فرباط آسفى [2] ، قال لطف خفى ، وجناب حفى ، ووعد وفى ، ودين ظاهره مالكى ، وباطنه حنفى . الدماثة والجمال ، والصبر والاحتمال ، والزهد والمال ، والسذاجة والجلال . قليلة الأحزان ، صابرة على الاختزان ، وافية المكيال والميزان ، رافعة اللواء ، بصحة الهواء . بلد موصوف ، برفيع ثياب الصوف ، وبه تربة الشيخ أبى محمد صالح ، وهو خاتمة المراحل ، لمسورات ذلك الساحل . لكن ماءه قليل ، وعزيزه لعادية من يواليه من الأعراب ذليل .

---

(1) تيط Tit ، مدينة قديمة فى اقليم دكالة وتقع على ساحل المحيط الاطلنطى على مسافة ٢٤ ميلا من مدينة أزمور وعلى بعد ١٠ ك.م. جنوبى مازكان Mazagan .
أنظر ، (J. Leon : Op. cit. p. 81) .

(2) آسفى Safi ، مدينة بالمغرب الأقصى على ساحل المحيط الاطلنطى وقد ضبطها ابن خلدون بالسين المفتوحه بينما كتبها ليون الافريقى (الوزان) بسكون السين (ص ٧٩) وكذلك فعل المستشرق ليفى بروفنسال نقلا عن كتاب المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن لابن مرزوق (ص ٣٥ ، ٨١) . هذا وقد ورد سبب تسمية هذه المدينة بهذا الاسم فى قصة الفتية المغررين أو المغربين من أهل لشبونة حينما نزلوا بهذا المكان وظنوا أنهم فى بلدهم لشبونة . فلما علموا أن بينهم وبين مدينتهم مسيرة شهرين ، قال زعيمهم : وا أسفى !! فسمى المكان إلى اليوم أسفى . أنظر (زكى حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٤٩) . أنظر كذلك (عبد الحميد العبادى : حديث الفتية المغررين من أهل لشبونة – مجلة الثقافة بالقاهرة (١٩٤١) عدد ١٣٦).

قلت فمدينة مَرَّاكُش [1] ، قال فتنفّس الصعداء ، وأسمع البعداء ، وقال دُرْج الحلىّ ، وبرج النيّر الجلى ، وتربة الولى ، وحضرة الملك الأولى ، وصرح الناصر الولى . ذات المقاصير والقصور ، وغابة الأسد الهصور ، وسدة الناصر والمنصور . بعدت من المركز دارتها ، وجرت على قطب السياسة إدارتها ، وسحرت العيون شارتها ، وتعبد الإباءة إشارتها ، وخاضت البحر الخضمّ نذارتها وبشارتها . اقتعدت البسيط المديد ، واستظهرت بتشييد الأسوار وأبراج الحديد ، وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت المذانب كصفاح القيون ، وقيّدت طرف الناظر المفتون ، أدواح الشجر بها وغابات الزيتون \ فما شئت من انفساح السكك ، وسبوغ الشكك ، وانحلال التكك ، وامتداد الباع فى ميدان الانطباع ، وتجويد فنون المحون بالمد والاشباع ، زيتها الزمن يُعصر ، وخيرها يمد ولا يقصر ، وفواكهها لا تحصى ولا تحصر . فاذا تناصف الحر والبرد ، وتبسّم الزهر وخجل الورد ، وكسا غدرانها الحائرة الحلق السرد ، قلت انجز للمتقين من الجنة الوعد ، وساعد السعد ، وما قلت الا بالذى علمت سعد \ ومنارها العلَم فى الفلاة ، ومنزلته فى المآذن منزلة والى الولاة ، الا أن هواءها محكم فى الجباه والجُنوب ، يحمى عليها بكير الجنوب ، وحُميّاها كلفة بالجسوم ، طالبة ديونها بالرسوم ، وعقاربها كثيرة الدبيب ، منغّصة مضاجعة الحبيب . وخرابها موحش هائل ، وبعد الأقطار عن كثير من الأوطار بها حائل ، وعدوها ينتهب فى الفتن أقواتها ، وجرذان المقابر تأكل أمواتها . وكانت أولى المنازل بالإغياء [2] ، لو أنها اليوم معدودة فى الأحياء .

---

(1) مراكش Marruecos : بالفتح ثم التشديد وضم الكاف ، مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى . أسسها يوسف بن تاشفين ملك المرابطين عام ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) واستمرت هذه المدينة عاصمة للدولة أيام المرابطين والموحدين ثم قلت مكانتها السياسية فى عهد بنى مرين عندما صارت مدينة فاس عاصمة لدولتهم .

(مراصد الاطلاع جـ ٣ ص ١٢٥١ ؛ J. Leon : Op. cit. p. 67 - 68) .

(2) الإغياء : بلوغ الغاية فى الشرف والأمر .

قلت فأغمات[١] ، قال بلدة لحسنها الاشتهار ، وجنة تجرى من تحتها الأنهار ، وشمامة تتضوع منها الأزهار ، متعددة البساتين ، طامية بحار الزياتين ، كثيرة الفواكه والعنب والتين . خارجها فسيح ، والمذانب فيه تسيح ، وهواؤها صحيح ، وقبولها بالغريب شحيح ، وماؤها نمير ، وماء وردها ممد للبلاد وممير . الا أن أهلها يوصفون بنوك وذهول ، بين شبان وكهول ، وخرابها يهول ، وعدوها تضيق لكثرته السهول ، وأموالها لعدم المنعة فى غير ضمان ، ونفوسها لا تعرف طعم أمان .

قلت فمدينة مكناسة[٢] ، قال مدينة أصيلة ، وشعب المحاسن وفصيلة ، فضلها الله ورعاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها . فجانبها مريع ، وخيرها سريع ، ووضعها له فى فقه الفضائل تفريع . عدل فيها الزمان ، وانسدل الأمان ، وفاقت الفواكه فواكهها ولا سيما الرمان ، وحفظ أقواتها الاختزان ، ولطفت فيها الأوانى والكيزان ، واعتدل للجسوم الوزان ، ودنا من الحضرة جوارها ، فكثر قصادها من الفضلاء وزوارها . وبها المدارس والفقهاء ، ولقصبتها الأبهة والبهاء ، والمقاصير والأبهاء . الا أن طينها ضحضاح ، لذى الظرف فيه افتضاح ، وأزقتها لا يفارقها القذر ، وأسواقها يكثر بها الهذر ، وعقاربها لا تبقى ولا تذر ، ومقبرتها لا يحتج عن اهمالها ولا يعتذر .

---

(١) مدينة أغمات Agmet وتقع فى جنوب مدينة مراكش على سفوح جبال أطلس (أنظر صفحة ١٣٠ حاشية ٢ من هذا الكتاب) .

(٢) مكناسة : (Méquinez) بكسر الميم وسكون الكاف . إحدى مدن المغرب الأقصى ، فى جنوب غرب فاس سميت باسم قبيلة مكناسة البربريه التى اختطتها . وقد ازدهرت هذه المدينة أيام بنى مرين ، ولا تزال بها مدرسة السلطان أبى عنان فارس ، تلفت الانظار . ولهذه المدينة تاريخ حافل مجيد ، ولهذا عنى بها المؤرخون ، فكتبوا عنها كتبا كثيرة ، نذكر منها : "كتاب الروض الهتون فى اخبار مكناسة الزيتون" لمحمد بن احمد بن غازى العثمانى المكناسى (فاس ١٣٢٦) ؛ وكتاب "اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس" للمولى عبد الرحمن بن زيدان . طبع منه خمسة أجزاء بالمغرب .

أنظر (التعريف بابن خلدون ص ٢٢١ حاشية ٣) والاستزادة فى هذا الموضوع راجع : (Monographie de Méquinez, Journal Asiatique, 1855, I, p. 101 - 147) .
راجع كذلك (C. Brockelmann : Gesch, der Arab. Lit. II, p. 240)

قلت فمدينة فاس[1]، فقال رعى الله قطراً تربه ينبت الغنى ، وآفاقه ظلّ على الدين ممدود ، نعم العرين لأسود بنى مرين ، ودار العبادة التى يشهد بها مطرح الجنة ومسجد الصابرين ، وأم القُرى ، ومأمّ السُّرى ، وموقد نار

(١) مدينة فاس : Fez ، أسسها الأمير إدريس الأول ١٧٢ هـ (٧٨٩ م) . على أن المؤسس الحقيق لهذه المدينة هو ابنه إدريس الثانى باعتراف جميع المؤرخين . فى أوائل عهد هذا الأخير ، هاجر الى المغرب الأقصى عدد كبير من أهل الربض بضواحى قرطبة . وذلك بعد أن ثاروا على أميرهم الأموى الحكم بن هشام واضطر الى طردهم نهائيا من الأندلس .

ولقد رحب الأمير إدريس الثانى بهؤلاء الربضيين اللاجئين ، وعرض عليهم الإقامة فى مدينة فاس الناشئة ، فاستجابوا إلى طلبه وانتقلوا الى عاصمة الأدارسة ونقلوا معهم مظاهر الحضارة الأندلسية الراقية خصوصا وأن معظمهم كانو من أهل الحرف والصناعة والزراعة،فأعطوا المدينة طابعا أندلسيا جميلا سواء فى صناعتها أو فى أبنيتها الأندلسية البيضاء ذات الحدائق الداخلية فى أحواشها (Los Patios) . وهكذا سيطر الأندلسيون على مدينة فاس لدرجة أنها سميت باسمهم وعرفت بمدينة الأندلسيين .

فى ذلك الوقت أيضا كان الأمير إدريس الثانى ، قد أسس لنفسه مدينة مقابلة لمدينة فاس ولا يفصلها عنها سوى نهير صغير ، وأسماها العالية ، وسكنها جماعة من عرب افريقية (المغرب الأدنى) من نواحى مدينة القيروان ولهذا سميت بمدينة القرويين ، (نسبة للقيروان) ، وبمضى الزمن غلب اسم فاس على المدينتين وصارت تشمل عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين . ولايزال جامع القرويين ... الكعبة العلمية التى يؤمها طلاب العلم من سائر انحاء المغرب .

وحينما استولى المرابطون على المغرب ، نزلوا فاس أول الأمر ثم بنوا مدينة مراكش وجعلوها قاعدة لملكهم لقربها من موطنهم الأصلى بالجنوب ، ثم أتى الموحدون بعدهم فنزلوا مدينة مراكش أيضا واتخذوها دارا لملكهم للغرض نفسه . ثم جاء ملوك بنى مرين فاتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم ، وبنى الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى بالقرب منها مدينة فاس الجديدة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) واتخذها عاصمة ملكه وكانت تسمى بالمدينة البيضاء وبالبلد الجديد والمدينة الجديده .

راجع فى هذا الموضوع : E. Lévi - Provençal : La Fondatiôn de Fés, (Paris, Larose 1939)
(Henri Terrasse : Histoire du Maroc I, pp. 116 - 122 ; Juan Leon Africano : Descripcion de Africa, pp. 122 - 148)

أنظر كذلك (ابن أبى زرع الفاسى : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . نشره وترجمه الى اللاتينيه المستشرق طرنبرغ C. Tornberg (Upsala 1843 - 1846)

أنظر أيضا (السلاوى الناصرى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٢ ، ابن خلدون : العبر ج٧ ص ١٩٤ — ١٩٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس (فاس ١٣٠٩) .

راجع كذلك (Enc. Isl. art. Fas, II pp. 72 - 80 وما بها من مراجع).

الوغى ونار القرى ، ومقرّ العز الذى لا يهضم وكرسىّ الخلافة الأعظم ، والحريّة التى شقها ثعبان الوادى فما ارتاعت ، والأبيّة التى ما أذعنت اذعانها للأيالة المرينية ولا أطاعت . أىّ كُلَف وكَلَف ، ومتفق ومختلف ، ومحاباة وذلف ، وقضيم وعلف ، وخلف عن سلف ، انما الدنيا أبو دُلَف . سألتَ عن العالم الثانى ، ومحراب السبع المثانى ، ومعنى المغانى ، ومرقص النادب والغانى ، وإرَم المبانى ، ومصلى القاصى والدانى . هى الحشر الأول ، والقطب الذى عليه المعوّل ، والكتاب الذى لا يتأول ، بل المدارك والمدارس ، والمشايخ والفهارس ، وديوان الراجل والفارس ، والباب الجامع من موطأ المرافق ، ولواء الملك الخافق ، وتنّور الماء الدافق ، ومحشر المؤمن والمنافق ، وسوق الكاسد والنافق ، حيث البُنى التى نظر اليها عطارد فاستجفاها ، وخاف عليها الوجود أن يصيبها بعينه الحسود فسترها بالغورْ[1] وأخفاها . والأسواق التى ثمرات كل شئْ اليها قد جُبيت ، والموارد التى اختصت بالخصر وحُبيت ، والمنازه المخطوبة ، وصفاح الخُلُج المشطوبة ، والغُدُر التى منها أبو طوبة .

بلد أعارته الحمامة طوقها ... وكساه ريش جناحه الطاؤوس
فكأنما الأنهار فيه مدامة ... وكأن ساحات الديار كؤوس

اجتمع بها ما أولده سام وحام ، وعظم الالتئام والالتحام ، فلا يعدم فى مسالكها زحام . فأحجارها طاحنة ، ومخابزها شاحنة ، وألسنتها باللغات المختلفة لاحنة ، ومكاتبها مائجة ، ورحاها متهائجة ، وأوقافها جارية ، والهمم فيها الى الحسنات واضدادها متبارية . بلد نكاح وأكل ، وضرب وركل ، وامتياز من النساء بحسن زى وشكل ، يتنبه بها الباه[2] ، وتتلّ الجباه ،

(١) الماء الغائر ، الكهف ، ما انحدر من الأرض ، القعر من كل شىء .

(٢) من الطريف أننا نجد فى كتاب روض القرطاس المنسوب لابن أبى زرع عبارة تشير الى أن مياه الجداول التى تخترق مدينة فاس تمتاز بخصائص عجيبة من ضمنها أنها تنبه شهوة الجماع اذا شربت على الريق ، وتغسل بها الثياب من غير صابون فتبيضها وتكسوها رونقاً وبصيصاً ورائحة طيبة كما يفعل الصابون . هذا ومن المعروف أن النهر الذى يمر بمدينة فاس متفرع من نهر سبو (Sebû.) .
أنظر (ليڤى بروفنسال : نخب تأريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ص٢٢ ، باريس ١٩٤٨)

وتوجد للأزواج الأشباه ، الى وفور النشب وكثرة الخشب ، ووجود الرقيق وطيب الدقيق ، وامكان الإدام ، وتعدد الخدام ، وعمران المساجد والجوامع وإدامة ذكر الله فى المآذن والصوامع .

وأما مدينة المُلك [1] ، فبيضاء كالصباح ، أفق للغُرَر الصباح ، يحتقر لإيوانها إيوان كسرى ، وترجع العين حسرى ، ومقاعد الحرس ، وملاعب الليث المفترس ، ومنابت الدوح المغترس ، ومدرس من دَرَّس أو درس ، ومجالس الحكم الفصل ، وسقائف التُرس والنصل ، وأهداف الناشبة أولى الخصل ، وأواوين الكتاب ، وخزائن محمولات الاقتاب ، وكراسى الحجّاب ، وعنصر الأمر العجاب . الى الناعورة [2] التى مثلت من الفلك الدوّار مثالا ، وأوحى الماء الى كل سماء منها أمرها فأبدت امتثالا ، ومجّت العذب البرود سلسالا ، وألفت أكوابها الترّفة والترف فاذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى .

وقوراءَ من قوس الغمام ابتغوا لها ... مثالاً أداروها عليه بلا شكٍّ
فبين الثريا والثرى سد جرمها ... وللفلك الدوّار قد أصبحت تحكى
تصوغ لُجين النهر فى الروض دائماً ... دراهم نورٍ قد خلصن من السبك
وترسل من شهبانها ذا ذؤابة ... فتنفى استراق السمع من حوزة الملك
تذكرَت العهد الذى اخترعت به ... وحنّت فما تنفك ساجعة تبكى

ثم قال ، الا أن حرَّ هذه المدينة مذيب ، وساكنها ذيب [3] ، ومسالكها وعرة ، وظهائرها متسعّرة ، وطينها هائل ، وزحامها حرب وائل ، ان نشد الجفاء ناشد ، فهى ضالته المنشودة ، أو حشد أصنافه حاشد ، فهى كتيبته المحشودة . الى بُعد الأقطار ، وعياث الميازب أوقات الأمطار ،

---

(1) يقصد فاس الجديدة .

(2) الناعورة والناعور : آلة لرفع الماء قوامها دولاب كبير وقواديس مركبة على دائرة ، والجمع نواعير .

(3) يقصد ذئب .

والاشتراك فى المساكن والديار ، على الموافقة والاختيار ، وتجهم الوجوه للغريب ، ذى الطرف المريب ، وغفلة الأملس عن الجريب ، ودبيب العقارب ،أرسالا كالقطا[1] القارب[2]،وأهلها يرون لأنفسهم مزيّة الفضل، ويدينون فى مكافأة الصنائع البالغة بالعضل[3]. يلقى الرجل أبا مثواه فلايدعوه الى بيته ، ولا يسمع له ببقله ولا بزيته ، فلا يطرق الضيف حماهم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسماهم ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم . ومقبرتهم غير نابهة ، وأجداثها غير متشابهة ، مشربة حيوان ، ومشبعة جرذان ، غبر وان .

قلت فما تقول فى آقر سلوين ، قال واد عجيب ، وبلد لداع الايناع مجيب ، مخضرّ الوهاد والمتون ، كثير شجر الجوز والزيتون ، كنفته الجبال الشمّ ، وحنا عليه الطود كما تحنو على ولدها الأم ، فهواؤها ملائم ، والعنب على الفصول دائم ؛ الا أن الشمس لا تطرقه بنوال ، ولا ترمقه الا وقت زوال . قد باء بالحظ الموكوس ، وانكمش تحت إبط الظل المنكوس ، فجوُّه عديم الطلاوة ، وعنبه للبرد قليل الحلاوة .

قلت فسجلماسة[4]،فقال تلك كورة وقاعدة مذكورة ، ومدينة محمودة مشكورة . كانت ذات تقديم ، ودار ملك قديم ، وبلد تبر وأديم ، ومنمى تجر ومكسب عديم . معدن التمر ، بحكمة صاحب الخلق والأمر ، تتعدد أنواعه فتعيي الحساب ، وتجمُّ بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب . قد استدار بها لحلق السور الأمر العجاب ، والقطر الذى يحار فى ساحته النجاب ، فضرب منه على عذارها الحجاب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب . يحيط بها مرحلة راكب ، ويُصيّرها سماء مخضرة ذات

---

(١) القطا ومفردها قطاة وهو طائر فى حجم الحمام .

(٢) القارب : الطالب الماء ليلا .

(٣) أى القبيحة .

(٤) سجلماسه ، بكسر السين والجيم وسكون اللام ، مقاطعة ومدينة فى جنوب المغرب تسمى الآن تافيلالت .

أنظر (ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٤١ ، التعريف بابن خلدون ص ٤٠ حاشية ١)

كواكب . فمنازلها لا تنال بهوان ، وفُدُنها ودِمَنها تحت صوان ، ونخلها تطل من خلف الجدار ، وتتبوأ الأيمان والدار ، وحِلالُها مبثوثة بين الدمن ، وضياعها تتملك على مر الزمن ، وسوائمها آلفة للسمن ، موجودة بنزر الثمن ، وفواكهها جميمة ، ونعمها عميمة ، وسورها حصين مشيد ، وجسرها يعجز عن مثله معتصم ورشيد ، وسقيها يخص دار الملك بحظ معلوم ، ويرجع الى وال يكفّ كل ظلوم . وهي أم البلدان ، المجاورة لحدود السودان فتقصدها بالتبر القوافل ، وتهدى الى محرابها النوافل . والرفاهية بها فاشية ، والنشا فى الحلية ناشية ، لكنها معركة غبار ، وقتيل عقربها جُبار[1] ، ولباسها خامل ، والجفاء بها شامل ، والجو يسفر عن الوجه القطوب ، والمطر معدود من الخطوب ، لبناء جدرانها بالطوب ، والقرع برؤوس أهلها عابث ، والعمش فى جفونهم لابث ، والحصا يصيبهم ، ويتوفر منه نصيبهم .

قلت فتازا[2] ، قال بلد امتناع ، وكشف قناع ، ومحل ريع وإيناع ، ووطن طاب ماؤه ، وصح هواؤه ، وبان شرافه واعتلاؤه ، وجلّت فيه مواهب الله وآلاؤه . عصيره مثل ، وأمر الخصب به ممتثل ، وفواكهه لا تحصى ، يُمار بها البلد الأقصى ، وحبوبه تدوم على الخزن ، وفخّاره آية فى لطافة الجرم وخفة الوزن ، الا أن ريحه عاصف ، وبرده لا يصفه واصف ، وأهله فى وبال ، من معرة أهل الجبال ، وليوثه مفترسة ، وأخلاق أهله شرسة .

قلت فَغَساسَة[3] ، قال فريسة وأكيلة ، وحَشف وسوء كيلة ،

---

(١) الجبار : الهدر ، يقال ذهب دمه جبارا أى هدرا دون أن يؤخذ بثأره .

(٢) تازا (تازة) Taza تقع فى شرق مدينة فاس بنحو ١٢٧ ك.م ، وتمتاز هذه المدينة بموقع استراتيجى ممتاز جعلها منذ أقدم العصور مركزاً حربياً له خطورته . ولمكانتها الحربية اتخذها الحسن بن ادريس الثانى مقرا حربياً ، وعنى بها عبد المؤمن الموحدى فجعلها حصناً مانعاً وفى أيام بنى مرين اتخذها أبو يعقوب المرينى قاعدة لغزو تلمسان ولا تزال الى اليوم مركزا حربياً له أهميته . وينسب الى هذه المدينة علماء كثيرون .

أنظر (التعريف بابن خلدون ص ١٣٤ حاشية ٢ ؛ تاج العروس جـ ٤ ص ١٢) .

(٣) غساسه : تقع عند مصب نهر ملويه Muluia بالبحر المتوسط ، وهناك كانت قبائل بطوية Buthoia .

راجع (ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠١ - ١٠٢ ، J. Leon : Op. cit. p.180)

الا أنها مرسى مطروق ، بكل ما يروق ، ومرفأ جارية بحرية ، ومحطّ جباية تجريّة .

ثم لما وصل الى هذا الحد ، نظر الى حاج السوق قد أفاض ، ومزاده أعمل فيه الانفاض ، وعلوّ الأصوات به قد صار الى الانخفاض . فقال وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شئ الى تمام . ومددت يدى الى الوعاء فخرقته ، والى العين فأرّقته ، وقلت له لأحكّمنّك من كرام بنى الأصفر ، فى العدد الأوفر ، ماثلة فى اللباس المزعفر . فلما خضب كفّيه بحنّائها ، وحصلت النفس على استغنائها ، استدنانى ، وشبّك بنانه ببنانى ، وقال لا حبط عملك ، ولا خاب أملك ، ولا عدم المرعى الخصيب هملك ، فلنعم مغلى البضائع ، وحافظ الفضل الضائع ، ومقتنى الفوائد ، ومعوّد العوائد . واستثبتّ مخيلته ، فاذا الشيخ وتلميذه ، وحماره ونبيذه ، وقد تنكر بالخضاب المموّه ، والزى المنوه ، وعاث بخد الغلام الشعر المشوّه . فقلت ، هيه أبت المعارف أن تتنكر ، والصباح أن يُجحد أو ينكر ، كيف الحال بعدى ، وما اعتذارك عن اخلاف وعدى ، فقال :

خذ من زمانك ما تيسّرْ	واترك بجهدك ما تعسّرْ
ولرُبّ مُجْمَل حالة	ترضى به ما لم يُفَسّرْ
والدهر ليس بدائم	لابد أن سيسوء إن سر
واكتم حديثك جاهداً	شمت المحدث أو تحسّرْ
والناس آنية الزجاج	اذا عثرت بـه تكسر
لا تعدم التقوى فمن	عدم التقى فى الناس أعسر
واذا امرؤ خسر الإله	فليس خلق منه أخسر

ثم ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار ، وتركنى اتقرّى الآثار ، وكل نَظْم فالى انتثار .

الرسالة الرابعة

رحلة لسان الدين بن الخطيب

في بلاد المغرب

عن كتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب

رحلة لسان الدين بن الخطيب

فى بلاد المغرب

عن كتاب : نُفاضة الجِراب فى عُلالة الاغتراب

[لوحة رقم ٢] بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله ...

فصل فى ذكر جبل هنتاته(١)

وعملنا على الصعود الى الجبل المطل عليها ، والجارح المرفرف على دُرّاجها مقتصرين على حدود هنتاته ، عنصر الدعوة ، وأولياء الدولة المرينية ، وحلفاء الطاعة المخصوصين برعى الجوار ، والاستماتة من دون الحرمة ،

---

(١) هنتاته : بكسر الهاء وفتحها ، وسكون النون ، وفتح التاء الفوقية ، بعدها ألف ممدوده ثم تاء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص٣٧ حاشية ١)
وهنتاته اسم يطلق على جبل من جبال أطلس كما يطلق على القبيلة المقيمة فيه . ولقد لعبت قبيلة هنتاته دورا كبيرا أيام الموحدين وبنى مرين .
أنظر : (Pierre de Cenival : Les Emirs de Hintata Rois de Marrakech, Hespéris 1937, t. XXIV p. 245.)

وقد اختفى ذكر هنتاته بعد القرن السادس عشر الميلادى ، ومن المصادر الأساسية التى يرجع اليها فى هذا الشأن كتاب Descripcion de Africa أى وصف افريقيا ، الذى كتبه باللغة الإيطاليه فى القرن السادس عشر الميلادى ، الفقيه المغربى الحسن بن محمد الوزان الفاسى . وكان هذا الرجل قد اعتنق المسيحية وسمى نفسه يوحنا ليون الافريقى Juan Leon Africano ، ثم سافر إلى إيطاليا خوفا من أن يغتاله مواطنوه . وهناك اشتغل بتدريس اللغة العربية . وفى آخر حياته عاد إلى تونس حيث اعتنق الإسلام من جديد وتوفى عام ١٥٣٢ م . والكتاب لأهميته العلمية قد ترجم إلى اللغة الإسبانية بواسطة معهد الجنرال فرانكو بتطوان عام ١٩٥٢ كما ترجمه المستشرق ماسينيون إلى الفرنسية : Louis Massignon : Tableau geografique d'aprés Leon l'Africain (Alger 1906)

هذا وقد أشار الوزان إلى جبل هنتاته باسم محرف Hantera هنتيرا وقال إنه جبل مرتفع جدا وأهله مشهورون بالغنى والشجاعة . راجع (الترجمة الاسبانيه ص ٧٦ – ٧٧) راجع كذلك : (Lévi Provençal : Decoments Inedits D'Histoire Almohade p. 62 Note 4)

وشد عروة الوفاء ، وسد الخلّة ، واستحقاق الشُّفوف [1] على غيرهم والمزية ، اذ كان ذلك أقوى بواعث الوجهة ، وأخلص مقاصد الرحلة .

وقدمت بين يدى وصولى الى مراكش ، المخاطبة الى عميد تلك البقعة ، وشاه تلك الرقعة ، صدر هذه الحدود القصوى ، المتميز بالرجاحة والرأى والسياسة ، المتفق فيه على إفاضة العدل ، وكف اليد ، والتجافى عن مال الجباية ، والمستأثر بحمد الجمهور من الرعية ، وحب أولى العفاف والخيرية ، الى النبْل الذى لا يطيش نَبْلُه ، والإدراك الذى لا يُفَلّ حدُّه ، والدهاء الذى لا يُسبَر غوره ، والمعروف الذى لا يتجاوز محالّ الضرورة حكمته ، عامر بن محمد بن على [2] الهنتاتى ، بما نصه [3] :

تقول لىَ الأظعان والشوق فى الحشا ... لـه الحكم يمضى بـين نـاه وآمـر
اذا جبل التوحيد أصبحتَ فارعاً ... فخيِّم قرير [4] العـينَ فى دار عامر
وزُرْ تربها المعصوم [5] إن مزارها ... هو الحجّ يمضى [6] نحوه كل ضامـر

---

(1) الشفوف بمعنى السمو .

(2) عامر بن محمد بن على المكنى بأبى ثابت ، شيخ هنتاته من قبائل المصامدة ؛ تولى أحكام الشرطة بتونس فى عهد السلطان أبى الحسن المرينى ثم ولى الجباية لأبى عنان فارس فكفاه مؤنتها . وكان أبو عنان يقول عنه " وددت لو أصبت رجلا يكفينى ناحية المشرق من سلطانى كما كفانى محمد بن عامر ناحية المغرب ، واتودع " . أنظر (ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٠٠ - ٣١٨) وقد أورد ابن الخطيب ترجمة لهذا الشيخ فى كتاب الاحاطة (لوحة ٣٤٦ — ٣٤٧ اسكوريال) وقد أشار فيها إلى أن السلطان أبا الحسن المرينى عهد الى عامر هذا بحفظ حرمه فى سفن خاصة بجوار الساحل الأندلسى وذلك عندما دخل بجيوشه أرض الأندلس لمحاربة الثالوث المسيحى الاسبانى : قشتالة ، أرغونة ، البرتغال . ومن المعروف أن هذه الحرب انتهت بهزيمة السلطان المرينى فى وقعة طريف Del Salado عام ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) واستشهد عدد كبير من المسلمين من بينهم والد ابن الخطيب وأخيه .

(3) نقل المقرى هذا الخطاب فى كتاب نفح الطيب جـ ٨ ص ٣١٤ — ٣١٥ (طبعة محيى الدين عبد الحميد) .

(4) فى نفح الطيب : قرار .

(5) فى نفح الطيب : تربة المعلوم .

(6) فى نفح الطيب : يفضى .

ستلقى بمثوى عامر بن محمد ثغور الأمانى من ثنـايا البشائر
ولله ما تبلـوه من سعد وجهـة ولله ما تلقـاه من يُمن طـائر
وتستعمل الأمثال فى الدهر منكما بخـير مَزُور أو بأغبـط زائـر

لم يكن همى ، أبقاك الله ، مع فراغ البال ، واسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام والليال ، اذ الشمل جميع ، والزمن كله ربيع ، والدهر مطيع سميع ، الا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان ، وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية ، وكانت اليه العودة ومنه البداية . فلما حُمّ الواقع (وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع)[1] وأصبحت ديار الأندلس وهى البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياى المواقع ، قوى العزم وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسى السفر بسببك فالفيته خفيفاً ، والتمست الإذن حتى لا ترى فى قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزنْد العزم[2] مقدوح ، والله يحقق السول ، ويسهل بمثوى الأماثل المثول ، ويهيئ من قبيل[3] هنتاته القبول بفضله .

فأكرم الوفادة ، وأطرأ[4] بين يدى الإمارة ، واستدعى من محل سكناه بمراكش الى دار الكرامة ، وشرك فى الطعام نبهاء الدولة وعلية الخاصة . وأطرف من استجلاء منزله بقرة العين ، انفساخ خطة ، والتفاف شجرة ، وجرية ماء ، واستبحار بركة . واستكثر من كل طرفة ، ونقل من جلسة الى جلسة ، وحرص على تتميم البر بكل حيلة .

وفى يوم الإثنين المتصل بيوم القدوم ، توجهنا الى الجبل فى كنف أصحابه تحت اغراء بره ، وفى مركب قرة عينه ، فخرجنا نستقبل بين يديه السهل ، ونساير الجهة ، ونشاهد الآثار ، ونتخطى المعاهد ، ونتشق (٣ و)

---

(١) الزياده عن نفح الطيب .
(٢) فى نفح الطيب : للعزم .
(٣) فى نفح الطيب : قبل .
(٤) أطرأه أى بالغ فى مدحه .

النسيم البليل القريب العهد بمادة الثلج وعنصر البرد ، ولما بلغنا درج الجبل ، وانتحينا طريقه من السفح ، وهى تركب ضفة الوادى الملتف بعادى شجر الحور والطَّرْفاء وشجر الخلاف والدردار ، وأمعنا (و)[1] كابدنا عنتا فى اقتحام الوادى ذى الجرية الكثيرة الصبب ، المسوقة المد ، العظيمة التيار ، المجهولة المخاض ، ونقتحم منه أزرق شفافاً عن الحصباء ، كثير الجلبات ، أملس الصفاح ، لذاع البرد ، عبرناه نحوا من ثلاثين مرة فى أماكن يتخللها الدَّوح ، ويعظم الرَّيْع ، وتَخْضُر الحرباء ، وتسمو عن جانبها الجبال الشم ، والشعبات التى تزلُّ بها العُصْم ، وتفضى دروبه الى أقوار[2] فسيحة ، وأجواء رحيبة ، يكتنفها العمران ، ويموج بها السنبل .

ولما كدنا أن نختم عدد نُوَب المجاز ، ونأتى على عَنَتِه ، تلقتنا الخيل راكضة أمام اليعسوب المتبوع عبد العزيز بن محمد الهنتاتى ، صنوه وحافظ سيقته ، وقسيمه فى قعساء عزته ، الحسن الوجه ، الراجح الوقار ، النبيه المركب ، الملوكى البزه ، الظاهر الحياء ، المحكِّم الوَخْط ايثاراً للحشمة ، واستكثاراً من مواد التجلة على القَتَاء والجدَة . فرحَّب وأسهَل ، وارتاح واغتبط ، والطف وقدَّم . وصعدنا الجبل الى حلة سكناه ، المستندة الى سفح الطَّوْد ، وقد هيأ ببعض السهل الموطأ للاعتمار بين يدينا من المضارب كل سامى العماد ، بعيد الطُّنُب ، سوىّ القامة ، مقدَّر التفاصيل ، بديع النقش والصنعة ، ظاهر الجدة ، مصون عن البِذْلة ، يظلل من مراتب الوطاء الرفيع ، ولحف الحرر (٣ ط) ومساند الوشى ، وانطاع مزعفر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجَّبة والأبهاء المنضدة . ولم يكد يقر القرار ، ولا تنزع الخفاف ، حتى غمر من الطعام البحر ، وطما الموج ، ووقع النَّهت ، وأمل الطَّحْو[3] ، ما بين قصاع الشيزى أفعمها الثُّرُد ، وهيل بها السمن ، وتراكبت عليها لِسمان

---

(١) الواو هنا زيادة كى يستقيم المعنى .

(٢) أنظر ما كتبه دوزى فى معنى قور وأقوار فى :

(Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes, II, p. 417 a)

(٣) أى الانبساط والامتلاء .

الحملان الأعجاز ، وأخونة تنوء بالعصبة أولى القوة ، غاصة من الآنية بالمذهب والمحكم ، مهدية كل مختلف الشكل، لذيذ التلعم ، مهان فيه عزيز التابل، محترم عنده سيدة الأحامرة الثلاثة [1]، الى السمك الرضراض والدجاج فاضل أصناف الطيار ، ثم تتاوها صحون نحاسية تشتمل على طعام خاص من الطير والكبّاب والقلاق [2]، يقع منها بعد الفراغ المام ذلك الرئيس فى نفر من خاصته بما يدل على اختصاص ذلك بنفسه . ويتلو ذلك من أصناف الحلواء بين مستنبطات للباب البر، ومعالج بالقند، وأطباق مدخر الفاكهة وأوعية العود المحكم الخلق ، المشتملة على مجاج الشهد. وقد قام السماط من خدام وأساودة أخذتهم الآداب وهذبتهم الدربة، فخففت منهم الحركة ، وسكنت الأصوات ، وانشمرت الأذيال . وقد اعتم من الآنية النحاسية للوضوء والوقود كل ثمين القيمة ، فاضل أجناسه فى الطيب والاحكام والفخامة .

ولم يكد يفرغ من الأكل الا وقد جن الليل ، وتلاحق من الطعام السيل ، مربياً على ما تقدم بالروية وانفساح زمان الاحتفال ، وتفنن أصناف الحلواء ، وتعدى (٤ و) عسليها الى السكر، وكان السمر والمجالسة فى كنف لألاء الشموع الضاحكة فوق المنصات النحاسية ، والأنوار اللاطونية [3] . فاستفيد الكثير من تاريخ القطر وسيره ، وخبر لجأ السلطان المقدس أمير المسلمين أبى الحسن [4] الى قنتة ، والتحرم بمنيع وعز جواره على تقية هيض

(١) عبارة يقصد بها أصلا اللحم والمسك والخمر.

(٢) اللقلق طائر طويل العنق والرجلين ويوصف بالذكاء والفطنة .

(٣) لعلها مشتقة من الكلمة الاسبانية لاطون Laton بمعنى النحاس الأصفر . وقد استعملها المقرى فى (نفحه ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٦٢) . راجع (Dozy : Suppl. II, p. 508 a) .

(٤) أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (٧٣١-٧٤٩هـ) عاشر ملوك بنى مرين بفاس . كان رجلا مجاهدا قويا طموحا ، استطاع أن يوحد المغرب تحت سلطانه ثم يتجه بجيوشه وأساطيله نحو الأندلس لغزو الأراضى المسيحية والسيطرة على مضيق جبل طارق . غير أن الجيوش الإسبانية ومن انضم اليها من جيوش المتطوعين الأوربيين انتصرت عليه فى وقعة بالقرب من مدينة طريف ومن نهر سلادو ؛ ولذا سميت فى المصادر العربية بوقعة طريف=

جناحه ، وتبرّى أثيره عميد العساكر منه ، وإطراق العيون عند نجدته ، وتصام المسامع عند هاء استغاثته ، وقد خذل النصير ، وزلت الأقدام ، وساءت الظنون ، وما كان من اجابة هذا النّدْب عبد العزيز لندائه ، والتبجح بمنعة جبله ، ووفور عدته ، وأصيل وفائه واستصحابه الى مقر أهله ومفزع ولده ، ودفاعه عنه بنفسه وقبيله ورضاه بتغير ما تناله الأيدى بالسهل من نعمته ، فعادت قاعاً صفصفاً بمرآى من عينه ، فعاثت فيها السنة النار بأرض البوار عن طيب من نفسه حتى لكادت الكرة أن تتاح ، والدولة أن تتدول ، والملك أن يثب ، والعثرة أن يقال لها لعاً . لولا طارق الأجل الذى فصّل الخطة ، وأصمت الدعوة ، ورفع المنازعة . فتوفاه الله بين السحر والنحر ، والأنف والعين ، واستأمن من بعده لمن كان خلص اليه من خدامه ، وانحدر طوعاً بين يدى سريره ، وأبقى محل وفاته مرفّهاً عن الابتذال بالسكنى ، مفترشاً الحصباء ، مقصوداً بالابتهال والدعاء ، فتخلفها أى منقبة شمّاء ، ومأثرة بلغت ذوائبها أعنان السماء ، ويداً على (٤ ط) الخلق بيضاء .

ومن الغد كان التوجه الى ذلك المحل المبارك ، فاقتحمنا وعراً نزل فيه الذرّ[1] ، ولا يسلكه مع الحلم الطيف . وتسنّمنا شعاباً تعجز عنها العُصْم ، وتجاوزنا مهاوى مدت فيها أسراط من الخشب ترتفع عند الضرورة الفادحة ،

ـــــ وفى المصادر الاسبانية Salado rio del وذلك فى عام ١٣٤٠م/٧٤١هـ وقد مات فى هذه الوقعة والد ابن الخطيب وأخوه . بعد هذه الهزيمة ثار المغرب الأوسط أو الجزائر على السلطان أبى الحسن يريد الاستقلال عن فاس بزعامة بنى عبد الواد كما ثار عليه ابنه فارس أبو عنان . ولم يتحمل السلطان أبو الحسن هذه الكوارث المتلاحقة ، فمات حزينا شهيدا عام ٧٤٩هـ عند بنى عامر فى جبل هنتاته . ولهذا السلطان آثار معمارية كثيرة بالمغرب الأقصى والأوسط وبالأندلس .

راجع ترجمته فى (ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن فى ماثر مولانا أبى الحسن) وقد نشره المستشرق ليڤى بروفنسال تحت عنوان :

(Un nouveau texte d'histoire mérinide : le musnand d'Ibn Marzuk . Hespéris V 1925)

أنظر كذلك (ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٢٧٨ وما بعدها ؛ السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٠١ — ١٠٢ ؛ المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ٣١٩ — ٣٢٢) .

(١) الذر : صغار النمل .

فتنقطع عمن وراءها الآمال ، الى أن أفضينا ولم نكد الى المحل المقصود وهى دار قورزاء تبهة البنية بالنسبة الى جنسها [1] ... ساذجة بادية ملطخة الجدرات بالطين الأحمر ، متقابلة الأشكال بيوتها ، لاطية السقف غير مهذبة الخشب ، بأعلاها غرف من جنسها ، يدور بداخلها برطال [2] مستعل على أرجل متخذة من اللبن ، والحجر مُلبّس بالطين ، والبيت حيث متوفى السلطان مفترش بالحصباء ، قد ترك فيه دائرة كالقصعة تباشر الثرى ، وتمكن من تربته من يقصد شفاء المرضى وكحل العيون المرهى ، اذ كان رحمه الله آخر ملوك العدل نشأة ، لم تعرف الخبائث ، ولا آثرت الملاذ ، مُغـنياً فى برّ والديه مصرّفاً فى انتساخ الذكر الحكيم يمنى يديه ، محافظاً على الصلاة قيُّوماً عليها بالليل ، كثير الصدقة والصوم ، مجالساً للعلماء ، مستكشفاً أحوال الرعايا ، حانياً على الضعفاء ، معملا فى سبيل الله بيض الظُبا [3] ، صابراً على اللأواء ، محتسباً فى البلوى ، مستشعراً شعار التقوى ، الحقه الله بالرفيق الأعلى . وبازائه مصراع باب غسلت عليه جثته الزكية ، لا تتمالك العين أن (ه و) تنتثر سلوك دموعها ، ولا القلوب أن تأخذ الحسرة بكظمها ، لمّا عضّ ذلك الملك الُحلاحل [4] من الخطب الذى عوضه من نضرة النعيم ، ووجوه الغَرا نقَة [5] الغر ، والتوكؤ على النمارق المصفوفة ، والزرابى المبثوثة ، فى المتبوأ الكريم ، واستثقال طلعة البدر ، واستجفاء هبّة النسيم بقنن الجبال الغُبْر ، وسكنى المحال الخشن ، ومفارقة الأهل والولد عند فراق الروح للجسد . جعلنا الله من الدنيا على حذر وتَوَقٍّ ، وكتبنا ممن قدر قدره ، ولم يأمن مكره . فقعدنا وقرأنا وأفضنا فى الترحم ودعونا .

---

(١) هنا ثلاث كلمات غير مقروءة تماما ورسمها (الآح محق بها) .

(٢) المقصود البرطال أو البرطل : المدخل ويقابلها فى اللغة الاسبانية El Partal وفى الانجليزية Pórtico وفى الفرنسية Portique . أنظر (جمال محرز : الرسوم الجدارية الاسلامية فى البرطل بالحمراء ص ١٣ — ١٤ ، (مدريد ١٩٥١) .

(٣) يقصد السيوف .

(٤) الحلاحل أى العظيم .

(٥) جمع غرنيق وهو طائر مائى أبيض جميل ، ويطلق كذلك على الشاب الأبيض الجميل الصورة .

وكان الانصراف بعد أن المنا فى تلك الحلة بمسجد إمامهم [١] المهدى ودار سكناه ، وأثر مدرسته وسجنه ، كل ذلك من الخمول واللطو واستهجان الآلة على حال شبيهة بمبانى الدَّبْر [٢] ، وقرى النمل ، وأعشاش الخُشاش [٣] من الطير . فعجبنا من مفتاح تلك الدُّوَيْرة المهتضمة ، كيف تملك من القصور العظيمة ما إنّ مفاتحه لتَنُوءُ بالعُصْبَة أولى القوة ؛ ولمنبر ذلك المسجد كيف أخذ على كونه قميء الجلسة ، مصاحباً لبعض القشر ، بريأ من الصنعة بأزمَّة المنابر المتخذة من الأُلوَّة [٤] والصندل المقاصرى فى لونيه ، والأبنوس الحبشى ، وأنياب الفيول ، وأرعاها بعُصَيَّاه ، واستاقها بين يدى طاعته كالذَّوْد الشائل والسائمة الواردة ما بين قُرطُبَة واشبيليَّة وغرناطة وافريقيَّة [٥] والمغرب ، سُنَّة الله فى إدالة الدول ، وتعقيب النِحَل ، « ألم تر أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » .

---

(١) مهدى الموحدين أبو عبد الله محمد بن تومرت ، مؤسس دولة الموحدين بالمغرب عام ٥١٤هـ . قامت هذه الدولة على أكتاف قبائل المصامدة ، نخص بالذكر منها قبيلة هنتاته . وتوفى المهدى عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م) . أما دولة الموحدين فقد انتهت عام ٦٦٨هـ بعد أن امتد سلطانها الى الأندلس من سنة ٥٤٠ إلى ٦٠٩هـ تقريبا .

وكانت دعوة المهدى تقوم على أساس نفى التجسيم الذى آل اليه أهل المغرب الذين تركوا التأويل فى التشابه من النصوص الشرعية وأخذوا بظواهر الأمور . وقد سمى دعوته دعوة أهل التوحيد ، وأتباعه بالموحدين . واستمرت تعاليم المهدى منتشرة بين الناس حتى أواخر العصور الاسلامية بالأندلس . فيقول صاحب الحلل الموشيه (ص٨٩–٩٠– نشر علوش Allouche) " ان ابن تومرت ألف كتابا سماه بالأمانة وآخر سماه بالقواعد – بهما تعاليمه الدينية وما يجب على المسلم وما يستحيل عليه وما يجوز له – دونها بالعربى والبربرى وهما موجودان بأيدى الناس الى هذا العهد " (أى القرن الثامن الهجرى) . راجع ترجمة المهدى فى (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١١٥ – ١٢٥ ؛ ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٥ – ٢٢٦ ؛ التعريف بابن خلدون ص ٢٣٤ حاشية ١ ؛ ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٩٧) أنظر كذلك (Pierre de Cenival : Les emirs des Hintata Rois de Marrakech - Hespéris t. XXIV,1937)

(٢) الدبر : النحل .

(٣) الخشاش أى الضعاف .

(٤) الألوة : شجر العود ، يتبخر به .

(٥) المقصود بافريقية فى المراجع العربية ، مملكة تونس أو المغرب الأدنى .

وانحدرنا عن ذلك المرفق فأسهلنا ببطن الوادي ، وأرحنا بجلسة مُوطَّأة ، مُعدَّة لاستجمام السلطان رحمه الله ، قد ظللتها الأشجار ، تجرى تحتها عين خرّارة كأعظم الأنهار فوق حصىً كدُرِّ النحور ، القريبة العهد بلجج البحور ، أو كثنايا [1] الحور . تركت فى تلك الجلسة أثقاب وخروت [2] تفضى اليه ، تُبجَّل الجعائل [3] على امساك اليد بها برهة معتبرة ، يفتضح متعاطى ذلك لخَصَرها [4] ، وما يؤثّر البرد الشديد فى حسّ عصبها . وجُلب الى ذلك المكان من الطعام والفاكهة والشهد ما يحار فيه الوصف .

ثم انتقلنا الى محل النزول ، ومثوى الكرامة من المضارب ، ودعينا إلى الدور حيث سكنى أولئك الأشراف ، يغمرنا بكل دار منها من الأطعمة ما يحار فيه الفكر ولا تنال منه الا العين . وتشاهد من أجناس الفرش المرفوعة والمراتب المقدرة ، والسُتُر الديباجية المسدولة على الأرائك الممهدة ، والسيوف المعلقة ، تتخللها العدَّة من أصونة مُدْمج [5] القرآن وصحيح الحديث ساكنة منها فى جفون [6] منقوشة محلاة بالإبريز ، مُقلَّدة بمحامل الحرير النسيج .

وعند الانصراف الى المضارب ، أقبلت التحف والهدايا من المقرّبات الكاملة تختال فى الحلية ، والكسا الرفيعة طىّ الأوعية الرقيمة ، فعجز الشكر وبان التقصير .

ثم غمر الطعام وتخلف الشيخ عن المجالسة والمؤاكلة معتذراً عنه بألم مانع نغص لدنيا النعيم ، وكدر (٦ و) الشِّرْب [7] تطيراً من وداعنا إياه حِلْسَ فراش أو رهينَ شكاية . ثم (انه حَدْسنَا أنه ألَمُّ الحَسْبَاء) [8] وتذكرنا قول الأول :

---

(١) الثنايا : أسنان مقدم الفم .
(٢) الخروت : الثقوب الضيقة .
(٣) الجعائل جمع جعيله وهى الأجر أو المكافأة .
(٤) أى لبرودتها .
(٥) أى الملفوفة أو المتقنة الكتابة .
(٦) علب من الجلد .
(٧) الشرب : الحظ والنصيب منه .
(٨) هذه العبارة التى بين القوسين غير واضحة فى المخطوط ، وربما كانت قراءتها كما فى المتن .

اذا غدا الطيِّبُ يجرى فى مفارقهم راحوا كأنهمُ مرضى من الكَرَمِ

فحققَّت الظِّنَّة ، وصدقت المَخيلَة .

ومن الغد كان الانصراف، فشيَّعَ وأبعد ، وتألم للمفارقة وتوجع ، كثَّرَ الله مِثْلَه، وكافأ قوله وفعله، وأورث عز تلك البقعة عَقِبَه .

ولم أبرح يوم زيارة محل وفاة السلطان أمير المسلمين أن قلت [1] :

يا حُسْنَها من أربع وديار أضحت لباغى الأمن دار قرارِ
وجبال عز لا تذِلُّ أنوفُها الا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد وأسُّ خلافة آثارها تنبى عن الأخبار
ما كنت أحسب أن أنهار الندى تجرى بها فى جملة الأنهار
ما كنت أحسب أن أنوار الحجى تلتاح فى قُنَنٍ وفى أحجار
مُحِيَت جوانبها البُرودُ وإن تكن شَبَّت بها الأعداء جَذْوةَ نار
هَدَّتْ بِناها فى سبيل وفائها فكأنها صرعى بغير عُقار
لما توعدها على المجد العدا رضيت بعَيْثِ النار لا بالعار
عَمَرت بحِلَة عامر وأعزها عبد العزيز بمرهف بتار
فرسا رِهان أحرزا قَصَبَ الندى والبأسَ فى طَلَقٍ وفى مضمار
ورثا عن النَّدْب الكريم [2] أبيهما محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهى شبيهة بالأصل فى وَرَقٍ وفى إثمار
أزرت وجوه الصِّيد من هنتاته فى جوها بمطالع الأقمار
لله أى قبيلة تركت لها النُظَ ـراء دعوى الفخر يوم فخار
نصرتْ أمير المسلمين وملكه قد أسلمته عزائم الأنصار
آوت [3] عليا عند ما ذهب الردَى والرَّوْعُ بالأسماع والأبصار
وتخاذل الجيش اللُّهام وأصبح الـ (م) أبطال بين تقاعد وفرار

---

(1) أورد المقرى هذه القصيدة فى كتابه نفح الطيب (جـ٨ ص٣٢٣) ؛ وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٥) .

(2) فى نفح الطيب : الكبير .

(3) فى نفح الطيب : وارت .

كُفِرت صنائعُه فيمَّمَ دارها … مستظهراً منهـا بعـز جـوار
وأقام بين ظهـورها لا يتقى … وقع الرَّدَى وقد ارتمى بشَرار
فكأنهـا الأنصار لمـا آنست (١) … فيما تقـدم غـربة المختـار
لمـا غـدا لحظـا وهم أجفـانه … نابت شفارهم عن الأشفار (٢)
حـتى دعاه الله بين بيوتهـم … فأجاب ممتثلا لأمر البـارى
لو كان يُمنَع من قضاء الله ما … خلَصَت اليه نوافذ الأقدار
قد كان يأمل أن يكافئ بعض مـا … أوْلَوْه لولا قاطـع الأعمـار
ما كان يقنعه لو امتـد المدى … الا القيـامَ بحقهـا من دار
فيعيد ذلك المـاء ذائبَ فضة … ويعيد ذاك التُّرب ذَوْبَ نُضَار
حتى تفوز على النوى أوطانهـا … من ملكه بجلائـل الأوطـار
حتى يلوح على وجوه وجوههم … أثر الرعاية (٣) ساطع الأنوار
ويسوّغ الأمل القصىُّ كِرامها … من غيرِ ما ثُنْيا ولا استقصار
ما كان يرضى الشمس أوبدر الدجى … عن درهم فيه ولا دينـار
أو أن يُتوَّجَ أو يُقلَّدَ هامُها … ونحورها بإهـالة ودوارى
حقٌ على المولى ابنِه إيثار ما … بذلوه من نصر ومن إيثارُ
فلمثلها ذُخِرَ الجزاء ومثلُه … مَنْ لا يُضيع صنائع الأحـرار
وهو الذى يقضى الديون ومثله (٤) … يرضيه فى علن وفى أسـرار
حتى تُحَجَّ محلةٌ رفعوا بها … علم الوفـاء لأعـين النظـار
فيصير منهـا البيتُ بيتاً ثانياً … للطائفين اليه أى بـدار
تُغنى قلوب القوم عن هَدْىٍ بـه … ودموعهم تكفى لرمى جمـار
حُييتِ من دار تكفَّل سعيها الـ … (م) محمود بالزلفى وعقبى الدار
وَضَحَت عليك من الإله عناية … ما كرَّ ليـلٌ فيك إثر نهـار

(١) فى نفح الطيب : لما أن سمت .
(٢) شفارهم : أجفان عيونهم ، والأشفار : أراد بها السيوف .
(٣) فى نفح الطيب : العناية .
(٤) فى نفح الطيب : وبره .

فلا تسل عن حسن موقعه لديه ، وسرور نفسه به . وفى الحين طير به الى أخيه كبيره [1] وهو على سموّ قدره وعلوّ ذروته ، أشد الناس انجاباً لحقه ، وانخفاضاً لبأوه ، وتطامنا بمجلسه ، يقرضه وزان الأب فى إلانة القول ، وانكسار الطرف تتميا لوظائف المجد ، وإقامة لسوق الحرية . فأورى عند لقائنا إياه زنده ، وعقّب الصلة الجزيلة عذره ، وبلغ قصبات السبق فضله .

وانحدرنا من الغد الى مدينة أغمات وُريكة [2] عن درج نزلنا لجرّاه عن الظّهر . وقادنا الدواب قوداً ، فجازت ناحية عن صراط بعد سياط ومياط . واجتزنا على ديار هنتاته بذلك السفح على حدود أضدادهم الوريكيين ، وقد أسهلوا وانبسطوا ، ومثلت لهم الديار الحُمْر ، تحف بها البساتين الخضر ، تخترقها المذانب [3] (٧ ط) الزُّرْق . وأرحنا من تلك الجهة بالمسجد البديع الحافل البنية ، السامى المئذنة [4] ، المقام لصق دار موسى بن على الهنتاتى ، البادى طللها ، المنبئة عن أخبارها آثارها ، تُوسعُه ما شاء من ثناء ورحمة .

ثم أتينا مدينة أغمات فى بسيط سهل مُوطّأ لا تنشز فيه ينال جميعه السّقى الرّغد ، وتركبه الخلجان وقد تموّج به العشب ، وعافته الأيدى وغالت

---

(١) يقصد عامر بن محمد الهنتاتى .

(٢) تقع مدينة أغمات فى جنوب مدينة مراكش على سفوح جبال مدينة أطلس . وكانت فى ذلك الوقت عبارة عن مدينتين متقابلتين : أغمات عيلان ، وأغمات وريكة . وكان بينهما عداء وقتال دائم . وكل فريق كان يصلى فى الجامع منفردا . وقد زال هذا العداء فيما بعد كما زالت أغمات وريكة فى القرن السادس عشر الميلادى .

أنظر (J. Leon Africano : Descipcion de Africa p. 73) .

أنظر كذلك (صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع جـ ١ ص ٩٨)

أنظر كذلك (البكرى ٣٣٩ — ٣٤٠) .

(٣) أى الجداول .

(٤) المأذنة فى الأصل .

أيدي فلاحه الفتنة . وهذه المدينة قد اختطت في الفضاء الأفيح ، فبلغت الغاية من رحب الساحة وانفساح القورة ، مثلت ، قصبتها منها قبله ، وسورها محمرّ التُّرب ، سجيح الجلدة ، مندمل الخندق ، يخترقها واديان اثنان من ذوب الثلج وسور الجبل ، قامت بضفتيها الأرحاء واردة وصادرة ، مرفوعة الأسداء ، منيعة البناء . يمر أحدهما بشرقي المسجد الجامع طامي العباب محكم الجسور ، نظيف الحافة ، نزهة للأبصار وعبرة لأعين النظار . ومسجدها المذكور عتيق عادي كبير الساحة ، رحيب الكنف متجدد الألقاب . ومئذنته [1] لا نظير لها في معمور الأرض . أسسها أولوهم مربعة الشكل وما زالوا يتخسون الذرع ، ويجحدون العرض ، حتى صارت مجسمها كاد يجتمع في زاوية المخروط . وأدير عليه فارز من الخشب يطيف بناء [2] لاط ، وقد أطل سامي جامورها [3] فوقه ، فتقبحت حتى ملحت واستحقت الشهرة والغرابة .

وأهل هذه (٨ و) البلدة ينسب اليهم نوك [4] وغفلة علتها ، إن صدقت الأخبار ، سلامة وسذاجة ، فتعمر بملحهم الأسمار ، وتتجمل بنوادر حكاياتهم الأخبار . فمنها أن ملك المغرب لما عجب من هذه المئذنة ، استأذنوه في نقلها الى بلده على سبيل الهدية ، يجعلونها تحفة قدومه ، وطرفة وفادته .

وبازائها المسجد ، بينه وبين النهر المار بإزائه قبة عظيمة القبو ، فخمة البنية ، ترقص فيها فوارة خرقاء في خصة من الحجر الأدكن مشطوفة الباطن رحيبة القطر ، قد تثلمت بعض حافاتها لمماسة الأيدي ، ومباشرة أجرام الخزف والفخار عند الاغتراف بما ينبئ عن قدم عهد وطول مدة .

(١) ومأذنته في الأصل .

(٢) كذا في الأصل ولعل الصواب ببناء .

(٣) جامور ، وجمعها جوامير أو جامورات ، معناها عامود في أعلا البناء .
أنظر (R. Dozy : Suppi,, t. I, p. 212 b) .

(٤) نوك بمعنى حمق .

وللسلطان بهذه المدينة دورٌ حافلة تدل على همم ومعالى أمم ، واحتفال عوالم درجوا وأمم ، قد ركبها العفا وجذب معاطفها الخراب . فما شئت من خُشُبٍ منقوشة وأُطُمٍ (١) مرقومة .

وبداخل هذه المدينة بساتين وجنات ، ولم يبلغ الخراب من مدينة ما بلغ من هذه الأيِّم (٢) المهتضمة ، فتشعثت محاسنها ، وأخلقت ملابسها وأوحش عمرانها لتتابع الفتن وعيْث الشرار الذين لا تُعبِّدهم الطاعة ولا تَرْعيهم الشريعة . أنقذ الله من لهاة التبار (٣) فريستها واستدرك بمدافعته مسكنها .

وأطرفنى الخطيب بها بأخبار من اعتقل فيها من مخلوع ملوك الأندلس وأمراء طوائفها كالمعتمد بن عبَّاد ، وأبي محمد عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس (٤) أمير وطننا (٨ ط) غرناطة . ووقفنى على تاريخ صدر عنه أيام اعتقاله ، يشرح الحادثة على ملكه فى أسلوب بليغ ختمه بمقطوعات من شعره تشهد بفضله (٥) .

---

(١) أطم بمعنى حصون .

(٢) الأيم : الرجل الذى فقد زوجته أو المرأة التى فقدت زوجها ، وجمعها أيامى وأيامى وأيمون وأيمات .

(٣) التبار يعنى الهلاك .

(٤) الملك المظفر عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى بن مناد الصنهاجى . ملك غرناطة وأحد ملوك الطوائف بالاندلس فى القرن الخامس الهجرى . لم يقتله المرابطون حينما ملكوا الاندلس ، كما فعلوا بمعظم ملوك الطوائف ، واكتفوا بنفيه الى المغرب ، ولعل ذلك راجع إلى أصله البربرى . أنظر (ابن الخطيب : الاحاطة لوحة ٢١٣ - ٢١٤)

(٥) عثر المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال على هذا التاريخ القيم بجامع القرويين بفاس . وقد نشر بعضه تحت عنوان " مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطه " وذلك فى مجلة الاندلس بمدريد عامى ١٩٣٥ — ١٩٣٦

(Lévi Provençal : Les Memoires de Abd Allâh, dernier roi ziride de Grenade. Al Andalus, Vol. III 1935, Vol IV 1936 - 1939)

ولقد عاد الاستاذ المذكور فاخرج النص كاملا فى كتاب مستقل من مجموعة ذخائر العرب عام ١٩٥٥ قبل وفاته بقليل .

وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبى القاسم محمد بن عبّاد ، أمير حمص [1] وقرطبة والجزيرة وما الى ذلك الصقع الغربى رحمه الله ، وهو بالمقبرة القبلية عن يسار الخارج من البلد ، قد توقّل [2] نشزاً غير سام والى جانبه قبر الحرة حظيته وسكن نفسه اعتماد اشراكاً لاسمها فى حروف لقبه ، المنسوبة الى رُمَيْك مولاها ، المتولعة بشأنه معها أخبار القصاص وحكايات الأسمار إلى أجداث من ولدهما . فترحمنا عليه وأنشدته [3] :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات	رأيت ذلك من أوْلى المهمات
لم لا أزورُك يا أندى الملوك يداً	ويا سراج الليالى المدْلهمَّات
وأنت دولى [4] تخطّى الدهر مصرعه	الى حياتى أجادت [5] فيه أبياتى
اناف قبرك فى هضْب يميزه	فتنتحيه حفيّات التحيات
كَرُمْتَ حياً وميْتاً واشْتهرتَ علا	فأنت سلطان أحياء وأموات
ما ريْ مثلك فى ماضٍ ومعتقد [6]	فى أن لا يرى الدهر فى حال ولا آت

(1) أورد المقرى هذه القصيدة فى كتابيه أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٩٧) ونفح الطيب (ج ٥ ص ٢٣٧ ، ج ٩ ص ١٩٨ — ١٩٩) ، وفى مقدمة هذه القصيدة نقل المقرى عن ابن الخطيب فقرة تختلف عن التى هنا فى المتن . يقول : . . . وقفت على قبر المعتمد بالله فى مدينة أغمات فى حركة حاجة أعملتها إلى الجهات المراكشيه باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبعمائة ، وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض وقد حفت به سدره . وإلى جنبه قبر اعتماد حظية مولاه رميك ، وعليها أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها فأنشدت . . .

(2) ورد فى المقرى : وأنت من لو تخطى .

(3) ورد فى المقرى : جادت .

(4) ورد فى المقرى : ومعتقدى .

(5) المقصود بحمص هنا مدينة إشبيليه Sevilla ، وقد جرت عادة المسلمين فى الأندلس أن يشبهوا بعض مدنها بأسماء المدن المشرقية ، فسموا غرناطة دمشق ، ومالقه الأردن ، وتدمير (مرسيه) مصر وهكذا .

(6) توقل : صعد وارتفع .

وزرت أجداثاً لأولياء وصالحين ختمتها بقبر الولى المتبرك بن أبى عبد الله محمد الهَزْمِيرِىّ[1] .

وكان الانصراف عنها من الغد ، وماشينا أدواح الزيتون والأشجار ، تساوقها جَرِيَّاتِ الأنهار ، تتخللها أطلال الحلل والديار نَيِّفاً على شطر البريد لا تنال صفح ثراه الشمس (٩ و) ولا ترتاده الحرباء ، تتجاوب أصوات الحمام المطوّق فوق غصونه . وقد اقتطعت ذلك الجناب الخصيب أيدى الوحشة ، وأخيفت من حلل غابه السابلة ، وسكن ربوعه الآهلة البوم ، فيالها من مدينة غَزُر ماؤها وصح هواؤها ، وأينعت أرحاؤها ، وضفى عليها من المحاسن رداؤها .

وانتهبنا السهل انتهاباً ، فدخلنا المدينة فى مُتَمَكِّنِ الضحى ، والفينا محلّة ولد السلطان مولانا قد استعجل الأمر استقدامها ، فخيمتْ على فرسخين ، فشرعنا فى الأياب ، وانتحينا طريق الساحل لنستدرك بمدينة آسفى[2] زيارة من بها من أولياء الله الصالحين وعباده المقربين .

وكل أخ مفارقه أخـوه لعمر أبيك الا الفرقدان[3].

قلت نعم والفرقدان ، سبحان من استأثر بالبقاء لا اله الا هو .

ولقيت بهذه المدينة جملة من أولى الدين والدنيا ، فن أهل الدنيا الشيخ الجليل كبير القطر ، ومفرغ الرأى ومسيطر خاصة الإمارة ، متصرف وجوه الوجوه أبو ثابت عامر بن محمد ، وأخوه[4] هضبة الوقار ، ونير الأفق ،

---

(١) راجع ترجمة الهزميرى وأخباره فى (Lévi Provençal : Le Musnad d'Ibn Marzuk Hespéris 1925 t. V farc. I p. 46 et notes 3,4)

راجع كذلك (Lévi Provençal : Historiens de Chorfa, p. 223 et note 3 Paris 1922)

(٢) راجع ما سبق أن قلناه فى تعريف هذه المدينة فى (صفحة ١٠٧ حاشية ٢)

(٣) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى يهتدى به ، وبجانبه آخر أقل منه فهما فرقدان .

(٤) عبد العزيز السابق الذكر .

وزهرة روض ذلك الحزن (١) ، وياقوتة ذلك الجبل ؛ وقد مر من التعريف بهما ما يغنى عن الاعادة . ومنهم نائب الملك وحافظ الرسم وجار القصر الشيخ الفقيه على بن العباس بن موسى بن أبى حمو (٢) ، المعتام لكفالة أولياء العهد ، المستظهر بأمانته وصدقه على حفظ الأقطار (٩٨ ط) المستباح الحمى فى سبيل الوفاء ، أجمل الشيوخ وجنة ، وأسناهم شيبة ، وأحسنهم صورة ، الى الخلق السهل واللسان البليل الاطراء والبر ، والذرع الفسيح ، والمخاطبة المفضلة بفرائد التسويد ، تكررت على المدى زيارته ، وانصرفت شطر الوجهة عنايته ؛ واسترخصت فى استجلاب القصور والمعاهد همته ؛ وخففت اليها على الكبر والرقبة حركته .

ثم جمعت بين الغرة العتيقة والمهندة المحلاة والصامت الدثر هديته ، عن خصاصة متقرره ، وحال رقيقه لقصور دخله عن خرجه ، وما جره كف يده . ووازع عفته ؛ وجناه الوفاء من نكبته . أصلح الله حاله ، وزاده من جميل نظر الملك ما يقيم أوده .

ومنهم والى الوطن ومؤمن السبل وجماعة مال الجباية ، الشيخ الرئيس الفقيه أبو عبد الله بن حسون بن أبى العلى وقد مر بعض ذكره (٣) . وهو فريد

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض وقلما يكون إلا مرتفعا ، وجمعها حزن وحزون .

(٢) لعله من أسرة بنى حمو أو بنى عبد الواد أو بنى يغمراسن ، ملوك تلمسان والمغرب الأوسط (الجزائر) ، راجع تاريخهم فى كتاب (أبو زكريا يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد . (نشره وترجمه الى الفرنسية الفرد بل Alfred Bel ، الجزائر ١٩٠٣) أنظر كذلك (J. Bargés : Histoire de Beni Zeiyan, Rois de Tlemcen — نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان — الإمام سيدى أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسى Ouvrage traduite de l'arabe, Paris 1852) ; J. Bargés : Complement de l'Histoire des Beni Zeiyan Rois de Tlemcen, ouvrage du الشيخ محمد عبد الجليل التنسى (Paris 1886)

(٣) لم يرد ذكر هذا الاسم فى الصفحات السابقة من هذا الجزء ، فلعل إشارة ابن الخطيب هنا تعنى الجزء الأول المفقود من نفاضة الجراب . ويؤيد هذا الكلام أن المقرى أورد قصيدة موجهة من ابن الخطيب الى هذا الوالى ابن حسون ، ولم ترد هذه القصيدة فى النسخة التى لدينا . راجع (المقرى : ازهار الرياض جـ ١ ص ٢٨٩) .

العصر بل الدهر في الخلال الُمبرّة والخصال الحرة . من مُذكّرٍ بالبرامكة ، مُتغبّرٍ في وجوه بُسّباقهم انتهازاً لفرص المكارم . وسالكاً في دوى المآثر . ما شئت من مُشْغلٍ لبضائع الحمد : منتقب بورد االتخجيّلة ، مرسل أعنة الاعتذار في أعقاب ملوكي العطية . يهب الكتائب غانمات ؛ والمَهى مستردفات . والجياد عراباً ، يقوم على الأصلين والمنطق ، وهما الفنان المهذبان للعقل ، المستدعيان لكثير من المواد . يُعترف له بالتقدم في ذلك ، مشاركٌ في غيره ، (١٠ و) حسن الصورة . مهيب جَزْلٌ وقور حاسر عن الاطلاع والكفاية . لم يبلغ عندى في البر مداه ، ولا بلغ جناحُ شكر ندى كتَداه . ولقد أقسم بالغموس بعد أن بان رزْحُه من وظائفه الباهظة[1] ، وقعود زمنه عن أمله ، وقصور وُجده عن مرمى همّته أن لو ألفى سَعته التي تعودها ، لتقدنى ثمن ما غُصبْتُه بالأندلس عن يد[2] ، إبلاغاً في المكارمة ونزغاً الى هدف الحرية . واسترقاقاً لرقبة السؤدد . حفظ الله نعمته ، وحاط حفلوته ، ورد عنه النوائب صاغرة ، والحوادث ناكصة . وكثيراً ما خاطبته بعد وداعه من محال كرامته بالطريق من عمالته الفسيحة الخطّة ، وقد الزم من نبلاء لخدامه من تمم الوظائف وكمل المآرب بمثل قولى :

يا خاتمَ الفضل أو يا حاتم الزمن ... ومشترى الحمد بالغالى من الثمن
ومرسل المثل الجارى بكل عُلا ... فوق البسيطة من شام الى يمن
يا من اذا ما حكاه الجلّة افتضحوا ... اذ التوَّرمُ ممتاز من السِمَنِ
يا من تلقيتُ منه الحَلْقَ في رجل ... وقادتُ نافرة الأيام في رسن
لله ماذا رأت عيني وقد لحت ... ذاك الكمال وماذا قلّدت أذنى

(1) رسمت في الأصل باهضة .

(2) من المعروف أن ضياع ابن الخطيب بالأندلس وداره الرخامية بمدينة غرناطه قد صودرت واستولى عليها السلطان المغتصب اسماعيل بن يوسف بن نصر . انظر (نفاضة الجراب لوحة ٣) وهذه الاشارة تدل ضمنا على ان هذا الكتاب قد ألفه ابن الخطيب بالمغرب كما سبق أن بينا .

دع ذكر قيصر أو كسرى وما جمعت ... بـه الحكاية عن سيف بن ذى يزن
ما الفخر الا الملك أنت تخدمه ... فحل[1] منه محل الروح فى البدن
ان لم يفز منه بالغايات مثلك أو ... تعاو الكواكب فى آفاقه فمن ؟
تبأى العلا منك يوم الفخر بابن أب ... جم السيادة عف السر والعلن
ماضى العزيمة ميمون نقيبته ... جار من البر والتقوى على سنن
الى مضاء كنصل السيف يعضده ... رأى يفرق بين الماء واللبن
أفادنى زمنى لقياك معتذراً ... عما جناه فلا أدعو على زمنى
من بعد لقياك لا آسى على وطر ... مهما تعذر أو أبكى على وطن
عقدت صفقة ودى فيك رابحة ... ان حالت الحال لا تخشى من الغبن
فالبس نسيجة ما قدمت معلمة ... من صنعة اليمن تنسى صنعة اليمن
من زار ربعك لم تبرح جوارحه ... تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة ... والقلب عن جابر والأذن عن حسن

ومنهم صاحب الأشغال ملك الحضرة الشيخ الفقيه الموصوف بالسلامة والعفة . الكاسع الى صف الانقباض ، المتحيز الى فئة العافية ، المعفى اليد عن غمسها ، فى كيل[2] الجباية ، أبو الحسين بن الرئيس الصدر ، مؤمل الدول الأولى ، المخصوص باليد الطولى ، أبى محمد عبد الله بن أبى مدين[3]. جالسته فرأيت

(١) مصحوبا تحن منه .

(٢) رسمت كيالو .

(٣) ولد بقصر كتامه (القصر الكبير) ونشأ بمكناسة وتعلم بها وتولى الحجابة ورئاسة الكتاب فى عهد بنى مرين . انظر ترجمته فى كتاب روضة النسرين لاسماعيل بن الأحمر :
(Ismail Ibn Al Ahmar : Rawdat An - Nisrin, p. 71 et note 3, édition et traduction par Gh. Bouali & Georges Marçais, Paris 1917)
كذلك وردت تراجم له ولأسرته فى كتاب نثر الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان لمؤلفه نفسه اسماعيل بن الأحمر (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٨٦٣ أدب لوحة ٧٠ - ٦١) هذا وقد ورد اسمه فى كتاب المسند للخطيب ابن مرزوق كما يأتى :
" الفقيه السرى الماجد الفاضل الشهير الأوحد أبى محمد عبد الله بن أبى مدين شعيب المكناسى "
راجع (Lévi Provençal : Un Noveau Texte D'Histoire Mérenide . . . , Hespéris 1925 Tome V p. 30)

ذكائه متوارثاً فى حجر تغافل . وسذاجة تشف عن ظرف ، وخاطبنى صحبة بَرنْكَانه (١) بما نصه :

أيا سيداً حاز سبْق العلا ... بفضل النُّهى والسجايا الحسان
ويا نخبة الوقت والمقتدى ... به فى فنون علوم اللسان
ويا أوحد العصر فى نثره ... وفى نظم شعر كنظم الجُمان
بَنانٌ تريك بخط اليراع ... بمَهْرقها سحرَ علم البيان
لقد حزت فى العلم أعلامه ... بحفظ النصوص وفهم المعان
وحزت ذُرى كل شأو رفيع ... فلا تسألنْ عن فلٍ أو فلان
وفقتَ ابن أوْس (٢) بنظم بديع ... كما فقت نثراً بديع الزمان
أنار بك القطر لما قدمتَ ... وظرف الزمان وظرف المكان
وآنستَ منا نفوساً لها ... بقربك ما تشتهى من أمان
تَقبَّلْ هدية من لم يزل ... يُحبُّك بالسمع قبل العيان
فلما رأى شخصكم زاده ... ولوعاً بكم حسنُ تلك المعان
سلامٌ زكىٌ كعرفٍ زكى ... يُخصكُمُ ما بدا النَّيِّران

ومن أهل العلم والدين الشيخ الفقيه القاضى أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله المرغى (٣) الزقندرى ، وزَقَنْدر معدن الفضة ببعض تلك الجهات ولذلك ما قلت أداعبه :

= هذا ويروى اسماعيل بن الأحمر أن أبا مدين شعيب والد عبد الله ، ليس هو أبا مدين شعيب ابن الحسين الانصارى الإشبيلى ولى الله تعالى الذى دفن بتلمسان وانما اتفق الإسمان .

أنظر (نثر الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان لوحة ٧١ و)

(١) البرنكان : كلمة ليست عربية معناها الكساء الأسود بالفارسية والجمع برانك . وقد تكلمت به العرب . أنظر (المعرب للجواليقى ص ٥٦ – ٦٩ ، تحقيق احمد محمد شاكر)

(٢) حبيب بن أوس بن الحارث الطائى أبو تمام الشاعر المعروف (١٩٠ – ٢٢٦ ﻫ) .

(٣) كتب على الهامش بخط صغير : هرغة من قبائل السوس .

سألتُك عبدَ الله ايضاحَ مشكل وأنت لكشف المعضلات بمرصَد
زَقَنْدَرُ قالوا عنه معدن فضة فما بالُه أبداك نُدرةَ عسجَد

فاضل متفنن حسَن الهيئة ، راجح الوزان كثير الوقار بعيد عن الدَّخْلة ، متساوى الظاهر والطوية ، مُطَّرِح للهوادة ، ما شئت من رجل غزير الحِفْظ ، جيد المعرفة ، مضطلع بفنون ، سديد النظر ، جَمّ المشاركة فى حديث ورواية وتاريخ وخَبَر وكلام وفقه ونظم ونثر ، الى فضل المجالسة وحسن العشرة والغفلة عن نصيب النفس والاحتطاب (١١ ط) فى حبل الرفيق ، واقطاع ، غبيط السذاجة وفضل الفكاهة ، والجهر بالتلاوة فى سبيل الورد المترتب ناشئةَ الليل ومبادئ الإسحار . رحل وحج ولقى كثيراً من الفضلاء ، وأخذ عن عدد كثير من أهل المغرب دراية ورواية . فمن المراكشيين : أبو العباس الغفائرى ، وأبو الحجاج الدَّغْوى ، وأبو القاسم بن مُعتَنْصِر[١] ، وأبو القاسم بن القشاش ، وأبو عبد الله بن سعود[٢] . ومن أهل أغمات : أبو يحيى الجزولى من حفّاظ المذهب . ومن الفاسيين : أبو محمد عبد العزيز القروى[٣] ، والقاضى أبو عبد الله بن عبد الرزاق[٤] . ومن أهل تازا[٥] :

---

(١) هناك ترجمات عديدة لعلماء مختلفين تحت اسم "ابن معنصر" ، ولكنى لم أعثر من بينها على ترجمة أبى القاسم الوارد اسمه هنا فى المتن . راجع مثلا (ابن القاضى : جذوة الاقتباس حيث ترد فى صفحة ١٤٠ ترجمة أبى الحسين بن معنصر ؛ وفى ص ٢٨١ ترجمة عيسى بن معنصر ؛ وفى ص ٢٥٢ ترجمة أبى العباس بن معنصر) .

(٢) لعله كاتب السلطان أبى الحسن المرينى وإن كان المؤرخون قد اختلفوا فى صيغة اسمه ففى كتاب المسند لابن مرزوق (نفس المرجع ص ٥٩) ورد " أبو الحسن على بن محمد بن مسعود . وفى روضة النسرين لابن الأحمر ص ٨٧ ورد " على بن محمد بن مسعود " .

(٣) راجع ترجمته ونوادره مع السلطان أبى الحسن المرينى فى (ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٦٩) وقد توفى بمدينة فاس سنة ٧٥٠ هـ .

(٤) القاضى الخطيب أبوعبد الله محمد بن على بن عبد الرزاق ؛ أشار اليه ابن القاضى فى كتابه جذوة الاقتباس ص ١٤٨ ، ص ٣٢٩

(٥) تازا Taza : مدينة بالمغرب الأقصى ، تقع فى شرق مدينة فاس بنحو ١٢٧ ك.م. وتمتاز هذه المدينة بموقع استراتيجى ممتاز جعلها منذ أقدم العصور مركزا حربيا له خطورته . راجع (تاج العروس ج ٤ ص ١٢) .

أبو محمد الرّجّالى . ومن التلمسانيين : الشيخ الفقيه النظّار أبو موسى بن الإمام[1] والقاضى أبو العباس المديونى ، والشيخ المحقق نسيج وحده فى العقليات أبو عبد الله الآبلى[2] . ومن التونسيين : أبو عبد الله بن دمعون ، وابن هرون[3] . وابن عبد السلام[4] ، والراوية الرّحّال أبو عبد الله بن جابر[5] ومن أهل الاسكندرية : أبو العباس بن فتوح ، وجمال الدين بن سلامه القضاعى ، والعدل أبو الحسن بن الفرات ، والمشايخ الأربعة محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله[6] ، واسماعيل الضرير ، وأبو الحسن الاقبالى ، وجمال

(١) أبو موسى بن الامام ، أحد علماء المنطق والعلوم العقلية بتلمسان ، درس عليه شيوخ ابن خلدون مثل محمد الآبلى وغيره . راجع (ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٣٥ - ٣٦) .

(٢) أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلى (٦٨١ - ٧٥٧هـ) أحد أساتذة ابن خلدون وابن الخطيب . أصله أندلسى من مدينة آبله Avila فى الشمال الغربى لمدينة مدريد ثم انتقلت عائلته الى تلمسان بالمغرب الأوسط . وهناك عكف على تحصيل العلم وتدريسه مخالفا فى ذلك اتجاه أبيه وأعمامه الذين احترفوا الجندية . رحل الى المشرق وحج ، ولقى كثيرا من العلماء ثم عاد ثانية الى تلمسان ثم اندمج فى طبقة العلماء بمجلس السلطان أبى الحسن المرينى بفاس وظل هناك الى أن مات. راجع ترجمته فى (ابن خلدون : التعريف ص ٣٣ - ٣٨ ؛ ابن القاضى جذوة الاقتباس ص ١٤٤ ، ١٩١ ؛ ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج ٣ ص ٢٨٨ طبعة حيدر أباد بالهند) .

(٣) أبو محمد بن هارون الطائى أحد علماء تونس الذين تتلمذ عليهم ابن خلدون . أنظر ترجمته فى (ابن خلدون التعريف ص ١٩ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٣٨) .

(٤) ابو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف الهوارى التونسى القاضى (٦٧٦ - ٧٤٩ هـ) أنظر ترجمته فى (الحسن النباهى : المرقبة العليا ص ١٦١ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٤٢ ؛ احمد بابا : نيل الابتهاج ص ٢٤٢)

(٥) أبو عبد الله محمد بن جابر بن قاسم بن أحمد . . . القيسى (٦٧٣ - ٧٤٩ هـ) الوادى آشى الأصل التونسى الاستيطان . رحل إلى المشرق مرتين ولذلك سماه تلميذه ابن خلدون صاحب الرحلتين (ابن خلدون : التعريف ص ١٨ وحاشية ٣ ، ابن الخطيب : الإحاطة لوحة ١٤١ - ١٤٢ " اسكوريال" المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ١٢٥ - ١٢٧) .

(٦) تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى المالكى الصوفى الشاذلى ، صحب الشيخ أبا العباس المرسى ، وله مصنفات كثيرة فى التصوف ، توفى بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ وقبره لا يزال موجودا بجبانة سيدى على أبى الوفاء الكائنة تحت جبل المقطم من الجهة =

الدين بن عبد الرزاق الربعى وناصر الدين بن المُنَيِّر[1]. ومن أهل مصر: قاضى المالكية تقى الدين الاحسانى، وأبو الحسن الماردينى. وعز الدين بن جماعه[2]. وجمال الدين الدلاصى، وأبو حامد (١٢ و) السبكى. ومن أهل دمشق: شهاب الدين بن فضل الله[3] كاتب الإنشاء، وشمس الدين بن نباته[4]، وأبو الخير الجريرى، وشمس الدين السلاوى آخر أصحاب ابن عبد الكريم، وتقى الدين بن عبد الكافى، والعلامة الأديب

الشرقية لجبانة الامام الليثى. وقد شرح حكمة الفقيه الأندلسى أبو عبد الله بن عباد الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ. راجع (ابن حجر العسقلانى؛ الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤؛ ابو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٨٠، المقرى: نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٦٦؛ ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٧٠).

(١) احمد بن محمد بن منصور... المنعوت ناصر الدين المعروف بابن المنير الجروى الجذامى الاسكندرى. والمنير (بضم الميم وفتح النون وياء مشددة مكسورة) كان علامة الاسكندرية وفاضلها برع فى الفقه والتفسير وله مؤلفات قيمة فى هذا المضمار. توفى أوائل عام ٦٨٣ هـ وقبره لا يزال يزار بالإسكندرية. راجع ترجمته فى (ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٧١ - ٧٣؛ السيوطى: حسن المحاضره جـ ١ ص ١٤٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٦١؛ فوات الوفيات جـ ١ ص ٧٢؛ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٨).

(٢) عز الدين عبد العزيز بن جماعة (٦٩٤ - ٧٦٧ هـ) قاضى قضاة مصر أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون. راجع ترجمته فى (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنه جـ ٢ ص ٣٧٩ وما بعدها)

(٣) شهاب الدين ابو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى. يتصل نسبه بالخليفة الثانى عمر بن الخطاب ولذلك عرف بالعمرى. ولد بدمشق عام ٧٠٠ هـ ودرس بمصر والحجاز وتوفى بمسقط رأسه سنة ٧٤٩ هـ. وله مؤلفات كثيرة نذكر منها: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار. وهو عبارة عن دائرة معارف تاريخية جغرافية أدبية تقع فى عشرين جزءا. وله كتاب التعريف بالمصطلح الشريف وهو مجموعة رسائل ملكية نقل القلقشندى منها كثيرا؛ وله كتاب «ممالك عباد الصليب». وصف فيه دول الفرنج ونظامها فى عصره وقد طبعه ميشيل أمارى فى روما سنة ١٨٨٣. أما كتاب مسالك الأبصار، فقد نشر الجزء الأول منه المرحوم احمد زكى باشا (دار الكتب المصرية ١٩٢٤) كذلك نشر العالم التونسى حسن حسنى عبد الوهاب الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس (الجزء الثانى عشر) وذلك فى مجلة البدر بجامعة الزيتونة بتونس. أنظر ما كتبه Demombynes عن العمرى فى (La Syrie a l'époque de Mamlouks p. III-IV)

(٤) الشاعر ابن نباته المصرى، جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن ابن صالح بن يحيى (٦٧٦ - ٧٦٨ هـ). أنظر (الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٦ - ٢١٨).

أبو الفضل بن صرايا . ومن الصالحية : عز الدين المقدسى ، والمسند عبد الرحيم التنوخى . ومن أهل مكة : شمس الدين النَوْفرى ، وامام الموسم خليل بن محمد . ومن أهل المدينة : عفيف الدين المطرى من ذرية سعد بن عُباده .

ولى قضاء مَرّاكُش[1] فى منتصف رمضان عام ستين بعد ولايته أغمات وسَبتة . ومولده بمراكش فى سابع عشر ربيع الأول عام خمسة وسبعمائة . وابتدأ لهذا العهد تخريج الأحاديث التى أشار اليها الترمذى .

وأنشدنى من نظمه ولها حكاية تدل على ظرفه وحسن عهده :

ولما تجاوزنا زَلولا وشنَّة ... وطاشت حلوم لم تكن قبل طائشه
تيقنت أن لا منزلا بعـد سبتة ... يَسُرُّ وأن لا إلف من بعد عائشه

توجه موانساً لى متحفياً الى جبل هنتاته ، فامتع ما شاء حفظه الله وأحسن مجازاته .

ومنهم الشيخ العدل القاضى برباط آسفى عبد الرحمن بن على بن أبى العيش القيسى المعروف بطالب عافيه ، من الصدور الجلة وأعلام الطلبة بتلك البلدة فضلا وعدالة وتفنناً ومشاركة ، يخوض فى كل فن ، ويُلقى دَلْوَه الى كل حوض ، أصيل الحفظ (١٢ ط) جيد البحث ، بعيد عن السآمة ، لا يمر له وقت ضياعاً الا عن مذاكرة فى فن أو اجراء طُرفة ، غير مُبال بتهويم نوم ، وهجوم هاجرة ، أو مخالطة كدّ ، لى حُسن العشرة ودماثة الخُلُق ، وإيثار التخلى والعزلة والحَوْم على السلوك والتجريد . شارك القاضى أبا محمد فى كثير ممن ذُكرَ أخذه عنه من أعلام بلده .

---

(١) مراكش : بالفتح ثم التشديد وضم الكاف . مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى . أسسها يوسف بن تاشفين ملك المرابطين عام ٤٥٤هـ (١٠٦٢م) . واستمرت هذه المدينة عاصمة للدولة أيام المرابطين والموحدين ثم قلت مكانتها السياسية فى عهد بنى مرين عند ما صارت مدينة فاس عاصمة للدولة . أنظر (مراصد الاطلاع جـ ٣ ص ١٢٥١) أنظر كذلك (J. Leon : Op. cit p. 67 - 58)

ومنهم الأستاذ المتفنن النظّار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الفخّار[1]، أستاذ المدرسة العظمى من أهل العلم والفضل والمشاركة والتفنن، يقرئ بها علم اللسان والأصلين والفروع، فيُفتح ويَحسُبُ على طرش كدّر رحمه الله الانتفاع به ونغّص الأنس بمجلسه نفعه الله[2]، [3].

وانتابني من الظرفاء والأدباء الشيخ الفقيه المكتّب أبو عبد الله محمد ابن القاسم بن عمر بن عبد الله المشرقي، من أهل النبل والظرف على خُلق زعموا غير سَبْط[4]. كتب عن الأمراء بمراكش، وأبي العباس بن حسين الغفائري، والخطيب المحدّث أبي عبد الله بن رُشَيْد[5]، والقاضي أبي الحجاج الطرطوشي، والمقرئ أبي الحسن بن برني، وأبي العباس الفرقسي، وأبي العباس بن برني، وأبي العباس بن القرّاق، وأنشدني من شعره :

مَنْ لَمْ يُفِدْكَ بنفعه أو جاهه فلأنّما اصْتَصْنَعْتَه تخدُوما
فَلْتَخْدِمِ الله الذي مـن أمّه بضمير صدق يلْقَ منه رحيما

ومن نثره قوله : وأما الكتابة فلفظ نِحْلَةٍ حُذفت تاؤه[6]، ومعقل خُذْلَةٍ

---

(١) أبو عبد الله محمد بن علي بن الفخار الالبيري شيخ النحاة بالأندلس، درس عليه كثير من علماء ذلك العصر أمثال ابن الخطيب، وأبي اسحاق الشاطبي صاحب شرح الألفية، والشاعر الغرناطي المعروف ابن زمرك وغيرهم. راجع (المقري : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٧٥ وما بعدها).

(٢) كذا في الأصل ولعل صحة العبارة نفع الله به .

(٣) كتب على الهامش وبخط مختلف غير واضح العبارة التالية : " هذا الأطرش أعلم واسعد وأرسخ في العلوم وأنفذ في المدارك والظهور ... كان يفتل زجندريك بين أصبعيه ويخادله بفضية للعامة ... والله أعلم . ابن الفخار من أئمة اللسان والأصول " .

(٤) غير سبط أي غير سهل .

(٥) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي . محدث ورحالة شهير (٦٥٩ – ٧٢١هـ) . راجع ترجمته في (ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٨٠ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة (اسكوريال) لوحة ١٣٢ – ١٣٥ ؛ التعريف بابن خلدون ص ٣٩ حاشية ٤) .

(٦) لعل يريد بذلك لفظ الكآبة .

شرع من غير محالة إيتاؤه . وهى خطة استغنى الناس بذيانها[1] عن سحبانها[2] وعن ملاك أزمة آدابها بجهلة طلابها . فمن رأسها معهم من ذوى المروءات والهمم من سائر الأمم ، فقد ارتكب الصعاب وثوا مقعداً من المذلة والهون أنى شاء من سائر الأبواب ، فهو ينشد مسائلة عن حاله بلسان عذر كايل ، وقلب عايل ، معتذراً فى الضرائر بما قد قيل :

ألا قاتل الله الضرار فإنها[3] تعلم خير الناس شر الطبائع
وتحمل ذا الطبع الشريف تكرماً على ذلة فى عيشه وتصانع

وكان السفر من مراكش يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخره وقصدنا باب الرخا من أبوابها غلساً لنصابح تربة الشيخ ، قصد التزود ببركتها ، فتعذر فتح الباب وطال به الوقوف وأعيى علاجه ، فانصرفنا عنه وفى أنفس بعض المشيعين حزازة من ذلك ، فأنشدت منهم الشيخ القاضى أبا محمد الزقندرى بديهة :

يا محلاً لحلتى وانتحاءى لم يبح لى الخروج باب الرخاء
دل أن الرخاء مغتبط بى فبحق تبجحى وانتخاء

فحفظ واستطرف ، وتحول المحزون الى ضده والله الموفق للأقوال والأعمال بفضله .

وحثنا السير على تفية[4] ارتحال الجيش وتوقع (١٣ ط) الفساد فى السبل ، صحبة لمة من أشياخ وراء سكان الصقع ، واستقبلنا حى بنى الحارث من عرب العمود ، جذوة شرار الشرار أولى الحرابة والخرابة . فنزلنا بمحلة من حلل رعاء البهم وقد أوقع فى طريقنا يومئذ بعمرو بن حار أحدهما ونجا ثانيه برأس طمرة ولجام .

(١) الذين : العيوب .

(٢) سحبان بن زفر بن إياس الوائلى ، يضرب به المثل فى البيان . أدرك الإسلام ومات عام ٥٤ هـ . ترجمته فى شرح ابن نباته على رسالة ابن زيدون ص ٧٥

(٣) فى الأصل : إنها ولعل الصواب فإنها ليستقيم وزن البيت .

(٤) تفية وتفيئة الشىء : زمانه .

ورحلنا من الغد فى قفر تنـذر ببعض مهـامه به أبيات نابية للمتسمين .
وبتنا بحلّة من حلل بنى جابر أولى إبل وشاء . ورحلنا من الغد فتجاوزنا غولا[1]، وتخطينا مظنتا اعتراض ، ومسبعة فساق فى حد بين بلاد بنى الحارث وبنى وراء ، يولى كل منهم خطة الملام جاره عند إعداء الرفق المصابة ، واصراخ السلطان لندائهم .

ودخلنا بلاد بنى ماقر ، فكان المبيت بسورها تحت خصب وأمنه ، ومنها صرفنا من صحب من أشياخ تلك الأرض عن شكر واطراء ، وإن كنا فى مظنة الروع ، نرى منهم اخزرار عيون ومخايل فتنة .

ومن الغد سلكنا وطن بنى ماقر وهو كثير العمران ، متعدد الديار والأشجار تسقيه من نطاف عذبه تختزن بها بركات الأمطار فيقع بها أمنهم والاجتزاء الى زمن المطر . وبها كثير من الصالحين وأولى الخير وأرباب التلاوة ، وربما ألفى بها ضدهم ، ولله در القائل :

النـاس كالأرض ومنها هم من خشن فيها ومن لين
مرو[2] تشكى الرجل منه الأذى وإثمد يجعل فى الأعين

ووردنا مدينة آسفى وقد تمكن النهار ، فلقينا موكب أرباب الخطط بارين معدين . ولما شارفنا ، ركب الينا صردوكها أحمد بن يوسف حفيد الولى أبى محمد صالح ، القائم فى ظل صيته ، وأثير الناس من أجله ، رجل أدم اللون ، قد تعجل الوخط منه ، ذقن كث ذو تيقور[3]، جالس السلطان ، وقاد ركب الحجاز ، وجر ببلده دنيا عريضة ، واقتعد غارب غنى جم ، يفد على باب السلطان فى سبيل دالة بقدمه ، ويقفل الى وطنه مجدد الصكوك مستجاد الخلعة . خاطبته بين يدى قدومى بقولى :

---

(1) الغول : بعد المفازة والمشقة .

(2) كتب على الهامش : المرو صغار الأحجار .

(3) كذا فى الأصل ، ولعلها تيفور أو طيفور وهو لفظ كان يدل فى غرناطة الاسلامية على ضرب من الموائد الصغيرة وهذه الكلمة العربية بقيت فى الاسبانية بهذا الشكل Ataifor وكان هذا اللفظ يدل فى العصور الوسطى كذلك على الصحن الكبير العميق الذى يقدم فيه الطعام لاسيما اللحم . أنظر (لويس سيكودى لوثينا : وثائق عربية غرناطية لم تنشر ، صحيفة المعهد المصرى فى مدريد (١٩٥٦) ص ١٧٧ حاشية ١) .

يا حفيدَ الوليّ يا وارثَ الفخـــر الذى نال فى مقام وحـالِ
لك يا أحمد بن يوسف ُجبنـا كل قفر يُعْيِي أكُفَّ الرِّحال[1]

أبقاك الله مثابةَ انتفاع ونوراً بأعلى يَفَاع[2] ، ومتضعاً على علو ارتفاع ، ترى الوِتْرَ فى إشفاع ، وتقابل الوهم بطراد من الحقيقة ودفاع . إن حثَّت على لقاء الأعلام شهرتهم فالك الشهرة ، وأنت العلم والشهاب الذى تُجلى به الظُّلَم . ورباط جَدِّكَ بالغرب الركن المستلم ، فالى أين يذهب عن جنابك الذاهب ، وقد وضحت المذاهب ، والله المانع والواهب . وإنى من لدن اجتليت غرّتك التى تلوح عليها سيما الولاية إرثاً واكتساباً (١٤ ط) وانتماء الى جناب الله وانتساباً جزاء من ربك عطاء حساباً ؛ أؤمل التوسل والتقرب واخطبُ منك الأنس الذى أنْسَى به التغرب الى أن تَهَيّأ بفضل الله وتيسر وتبين مجمل الشوق وتفسَّر ، وشتان ما بين من أثرى وأعسر ، فأنا الآن والحمد لله قد حططتُ بمثوى الولاية رحلى ، وَعَثَرتُ بأزهار أسرار الأبرار نَحْلى ، وأخذت من الدهر ذَحْلى ، وحللت من رباط الشيخ أبى محمد بالحرم الأمين ، وظفرت من ودّ حافده بالذخر الثمين فياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين . عرَّفتك أبقاك الله بقصدى وحركة رَصْدى لتعلم أن هذه الوجهة لقاؤك أقوى دواعيها ، وأنجح مساعيها ، وبركة الشيخ نفع الله به تلاحظها وتراعيها ، فما استَبْعَدَ المرام من قصد الكرام ، وما فقد الإيناس من أمَّل الناس ، وتَنَخَّل الأفراد ، وتخطى الأجناس ، وترك للنص القياس ، وتَملَّك المتن لمَّا أحرز الرياس ، وسيدى بعد وما يظهر له من تأنيس غُربَة وازاحة كُربَة ، ورعى وسيلة وقُرْبَة ، واتحاف باجتلاء حمى مَزُور وتُربَة ، والله عز وجل يبقيه مقصوداً على بعد المكان ، مُرجَّحاً فى الفضل طَرَفِ الإمكان مطمئن القلب بذكر الله رطب اللسان ، مُدْرَجاً فى الوصول لسنام الإسلام والإيمان والإحسان .

---

(١) نقل المقرى هذين البيتين فى كتابيه (نفح الطيب ج ٩ ص ١٩٠ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٩٨) .
(٢) اليفاع كل ما ارتفع من الأرض .

واضْطَبَن[1] من ابن عمه الخطيب بالبلدة ، شاحباً صامتاً مهمهما بِذِكْر ، مُنتبذا عند الأكل (١٥ و) اشعاراً بالإمساك ، أوما[2] مع ذلك ، زعموا ، إلى دنيا عريضة كابن عمه وشُحٍّ مطاع ، فرحب الكل وأطرأ اللقاء . وجئنا الى رباط الشيخ أبي محمد وهو من المشاهد الحافلة والمآلف الجامعة . فضاؤه رَحْبٌ مرصوف بحجر الكذان يدور به ، سقيف نظيف ذو أبواب تفضى الى زوايا ومدافن ، وبطوله عن يمين الوالج مسجد الصلاة وتربة الشيخ في بيت عُميد سَمْكُه لانفساح عرضه بقائم من الخشب ، وقبر الشيخ قبليه عن يمين الداخل اليه ، قد اتخذ له حوض من الخشب من الرفيع اكسبته الأيام دهمة ، فتخاله منحوتاً من الألوّة قد املست من الاستلام حافته ، وسُوى من نظيف الرمل سبَخُه[3] ، وبازائه قبور شبيهة به في الشكل لولده وحفدته ، تتخللها الحصر النظيفة ، فقضى الغرض من القراءة والدعاء ، وحضر الفقهاء والطلبة والصوفية وقد استعرضهم أبو العباس طائفتين ورتبهم للسلام علينا غابطاً إياهم مُطْرباً مؤنساً ، فدعوا وأجملوا ، وعرض علينا طعام الشيخ أبي محمد رحمه الله ، وقرى ضيفه الجارى عليه من بيت المال لنظر حافده المذكور مُحكَّماً في قُلّه وكُثْرِه ، فجلب خوان بهى اشتمل قوره على كل غضارة أثيرة لا تتخلف عن طعام ولا شراب .

وانصرفنا الى المحل المعين للنزول . وهذا البلد فسيح طيب الهواء كريم التربة خصيب الجناب ، وأهله أولو خَيْرية وجنوح الى الصلاح ، وهو (١٥ ظ) لَبِنَةُ التمام للمسوَّرات بالمغرب ، ليس وراءها مدينة جامعة ، ولا محلّة مُسوَّرة ، ودونه أمم تتصل بالسوس الأقصى[4] الى تخوم الحبشة من وراء الصحراء .

---

(١) يقال فلان في ضبن فلان أي في ناحيته وكنفه .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) رسمها سحه ، ولعلها سبخه أي ترابه .

(٤) السوس اقليم واسع خصب ، يقع في جنوب مدينة مراكش وراء جبال الأطلس ، ويحده من الغرب المحيط الاطلنطى كما يتخلله من الشرق واد عظيم يسمى وادى سوس . وينقسم =

ومن ساعة المامنا انزوى عنا الشيخ أبو العباس صردوك ، للهوه ، واشتغل زعموا بعقد نكاح على بكر يلاعبها وتلاعبه ، لم يقسم الله للضيف من مأدبتها بحظ ، وشحّ بإيناسه وتردده ، فحدسنا أن ذلك إبقاءٌ على نفسه لما تكشفُ المجالسة من حال تمدُّ لها أبو حنيفة رجله . وهممت أثناء طريقي أن أخاطبه بسعوط افتتحته بأبيات مطلعها :

اذا لم تهذّبك الأبوةُ والحجج فأنت على فوتِ الجَنَى ثمرٌ فجّ

ثم تصدقتُ على حلْم الشيخ بجهله ، وحرّمت صيد آبده فى حرم محلّه ، أصلحنا الله وإياه .

وصلينا بمسجدها الجامع وهو مبنى عتيق ، ومجمع فسيح متعدد الزيادات والصحون والتعاريج ، سبق منه ما بين يدَيْ المحراب بعضٌ على أيدى قوم من الصالحين ، رفعوا به عمداً تناهز الأربعين ، بادية ضخمة خشنة على سبيل من الجفاء والسذاجة يباشرها سقف لاطئٌ من غير نقش ولا احكام علتْها خُشُبٌ بالية ، وقُضُبٌ ناخرة ، بما يدل على قدَم العهد ، ويُنْبِئُ على اجتناب فضول العمل . فلم تمتد الى تغييرها يد ، ودارت بها الزيادة النبيهة والبلاطات من جهاته . وبصحن هذا المسجد جبابٌ للماء ينتابها الناس لسقيهم ووضوئهم فيحسُبُهُم[1] . ويقابل (١٦ و) القبلة من جوفيّ الصحن زاوية بها فقراء يدعون ذكراً لله ، فيعاطوْن مقام التوكل ، فلا يغبُّ عنهم التفقد .

وبهذه البلدة ، المدرسة والمارستان ، وعليها مسحةٌ من قبول الله . وهواؤها أطيب أهوية البلدان ، يستدعى الدثار فى القيظ لبرده ولطيف مسراه وترددنا بها إلىّ صاحب السوق ومقيم رسم المارستان ، الشيخ الحاج أبو الضياء

= هذا الإقليم إلى قسمين : السوس الأقصى وهو الجزء الممتد من جبال أطلس حتى رمال الصحراء جنوبا . والسوس الأدنى ويقع فى شمال السوس الأقصى ولم يتفق الجغرافيون على تحديد مكانه . أنظر (J. Leon Africano : Op. Cit. p. 60, Nota 1) أنظر كذلك (ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٢٢ حاشية ٣) .

(١) أى يكفيهم .

منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري ، من أهل الظرف والحرية والتمسك بأذيال أهداب الطلاب . حسن الخلق جميل العشرة ، خفيف في سبيل المشاركة . نشأ بالخضراء[1] ، وحضر حصارها ، وحج وخدم الصاحب بدمشق فأحظاه . أنشدني من شعره يخاطب السلطان عند قدومه من الحج قوله :

قدموا عليك عقيب حط حمول ... زوار خير منيء ورسول
شعثاً على حب التحية ترتمي ... بهم لبابك في ذرى وسهول
ليكون خاتمة الكمال ومسكه ... تقبيل كفك في بساط قبول

من قصيدة جارية على هذا الأساوب . مولده بالخضراء عام خمسة وسبعمائة .

وكان الرحيل يوم السبت الخامس والعشرين من الشهر المذكور الى منزل ينسب لأبي خدو فيه رجل من بني المنسوب اليه اسمه يعقوب ، طرف في الجود زعموا جر بذلك المرزأة الى عتاده . فألطف وأجزل ورتب الحراسة وآنس في الليل وطلبني بتذكرة تثبت (١٦ ط) عندي معرفته في الآتي ، فكتبت له[2] :

نزلنا على يعقوب نجل أبي خدو ... فعرفنا الفضل الذي باله جد
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى ... فلم يبق لحم لم تنله ولا زبد
يحق علينا أن نقوم بحقه ... ويلقاه منا البر والشكر والحمد

قيل لبشار بن برد ، بينما أنت تقول :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً

---

(١) المقصود هنا الجزيرة الخضراء وهي بلدة صغيرة بجنوب اسبانيا وتعرف اليوم باسم Algeciras .

(٢) نقل المقري هذه الأبيات في كتابه نفح الطيب ج ٩ ص ١٩٠ مع تحريف في كلمة خدو كتبها حذوا ، بينما أوردها كما في المتن في كتابه أزهار الرياض ج ١ ص ٢٩٨ . هذا ونلاحظ أن ابن الخطيب كتب هذا الاسم فيما بعد هكذا " حدو " . أنظر (صفحة ١٥٦ من هذا الكتاب) .

ثم تقول :

رَبابة ربـةِ البيت تصب الخلّ فى الزيت
لها سبعُ دجاجات وديك حسنُ الصوت

فقال ، قلت ذلك أخاطب امرأة من البادية فى خيمة قرتنى بدجاجة وبيض كانت لديها أحسن من : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل .

ثم سافرنا منه الى سور موسى من مجامع دُكّالَه [١] ، وهو حلْقٌ ذو شرفات وأبراج ، بادى الانثلام والتشعيث غير حرز الغلق لجهل هذه الأمة المُصْحِرَةِ بالتحصين ، وهو بعض ما يلجأ اليه أهل هذا الوطن المتكاثف العمارة ، الجمّ الماشية ، المُنْبَثّ الحلل ، الغاصّ على انفساح مداه بالراغبة والثاغية والصاهلة والناهقة ، البالغ عدد أزواجه لاثارة الأرض ومعالجة الحرث ، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه ، يُتَحَرَّم به عند الغارة الشعواء المُصْمَئِلَّة [٢] يطرقهم بها عدوُّهم من بنى الحارث وأحلافهم من سكان السهل والجبل فيَسُدُّ عندها . (١٧ و)
وعلى ذلك فهم لحم على وَضم [٣] ولقمة بين لَحْيَيْن [٤] ، وبخارجه سوق جامعة يُحْشَر إليها الناس ضحى ، ويتقاطرون من كل مَرْمًى يَمْثُلون فى صعيد واحد ، قد خيمت تجارهم وظللوا ، ولا ينفضّ الجمع الا مع انقضاء بياض يوم .

---

(١) دكالة اسم لقبيلة بربرية وولاية من ولايات المغرب الأقصى ، يحدها من الشمال والغرب المحيط الأطلنطى ، ومن الشرق نهر أم الربيع ، ومن الجنوب ولاية مراكش . وقد تكلم ليون الأفريقى (الوزان) عن أهلها فوصفهم بالجهل وسوء السلوك ، كما أشار الى حصونها ومدنها القليلة المسورة مثل آسفى .
راجع (Descripcion de Africa p. 78-82) راجع كذلك ما كتبه ليفى بروفنسال عن قبيلة دكاله فى كتابه (Lévi Provençal : Documents Inédits D'Histoire Almohade Paris 1982)

(٢) المصمئلة : الداهية .

(٣) الوضم خشبة القصاب التى يقطع عليها اللحم ، ويقال ، تركهم لحما على وضم أى أوقع بهم فذلهم .

(٤) اللحى ، عظم الحنك الذى عليه الاسنان ، والمقصود هنا ، ولقمة بين فكين .

وقد كان رُفع الى السلطان المُغْرى بالبناء وتخليد الآثار أبي عنان[1] رحمه الله، خبَرُ ما عليه الناس من إخافة عدوهم، واهتضام عَرْصَتهم[2] واستهداف عقْوَتهم[3]، فأمر بارتياد محل لتأسيس مدينة، فاختير على غلوات منهم، محلٌ أرضه حجر منطبق على تراب، يتأتى فيه اتخاذ الخندق غير مثلوم الشفا، بعيد المهْوَى، يبني السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدة للاختزان عن أضرار السماء، ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء[4]. فشُرع في البناء واستُبعد الفضاء، ومَثُلت الأبواب الحديدة، والأبراج المشيدة. وعاق عن اتمامها هجوم حمامه وانصرام أيامه، فرغب أهله في التنبيه على تكميل نقيصته واحتياز حسنته.

وتلقانا مشرف المَجْبى بها الشيخ الفقير الخير أبو عبد الله اللَّجائي[5]، قريع الأمانة والفضل، الدف اليد، المقصور عن مساس الجباية، المتحصل الاستهال باستصحاب الحال الرقيقة، وسقوط التهمة من أهل الطلب والسذاجة وحسن العهد وكرم العِشْرة، الجواد على كونه مَنيناً[6] ما، عَدَمَ العتاد في حال الكَبْرة. تلقانا في جملة من أتباع (١٧ ط) الخِدْمة، ثم تلاهم مركب القاضي والعدول، وقاضيها الحاج أبو عبد الله محمد بن سعيد بن

---

(١) هو فارس المكنى بأبي عنان، وكان يلقب بالمتوكل على الله. ولد عام ٧٢٩ ﻫ بفاس من جارية مسيحية سميت شمس الضحى. وثار على أبيه أبي الحسن، بتلمسان عام ٧٤٩ ﻫ واستولى على المغرب الأقصى. وكان مغرما بالعلوم والبناء وتوفى في عام ٧٥٩ ﻫ وقيل مات قتيلا. راجع ترجمته وثورته على أبيه واسبابها في (ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٧٨ - ٢٨٧ ؛ ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩٣ - ٩٥ ؛ ابن الأحمر : روضة النسرين ص ٢٣ - ٢٤).

(٢) العرصة : ساحة الدار وجمعها عراص وأعراص وعرصات.

(٣) العقوه : الساحة والمحلة وجمعها عقاء.

(٤) هذه العبارة تدل على سعة دراية أهل المغرب بهندسة البناء في ذلك العصر.

(٥) لعله من أسرة عبد الرحمن اللجائي (المتوفى ٧٧١ ﻫ) الذى أدخل مختصر ابن الحاجب المصري في الفقه المالكي الى المغرب. أنظر (ابن القاضي : درة الحجال، ج ٢ ص ٣٥٦ رقم ٩٨٦).

(٦) المنين : الضعيف وجمعها منن.

عثمان بن سعيد الصنهاجي الزَّمّوري(١) ، رجل مختصر البنية والثوب قد طرقه الوَخْطُ على حداثة ، يحفظ غثاءً من منقول كتب التفسير وغيرها ، ذاكرٌ لمسائل متعددة ، مسترسل اللسان في أسلوب يفضحه الاعراب عادةً لا جهلاً بقانون النحو . شموسٌ(٢) عند المذاكرة في المسائل العلمية ، أطرفَ بحديث رحلته . ولما نزلنا تخنّس ، فلم نسمع له ذكراً الى أن شيّعنا من الغد ، فسعَّطتُهُ بخردل العتْب ديدني في مقصِّري هذا الصِّنف القَمِنْ(٣)، الأغنياء في البر المستحق لولا رؤية الفضل لنفسه بمزية الفضل ، فزلّة العالم معروفة بعدم لإقالة ، فاستعتب واعترف ، وسألته الإجازة فيما يحمله ، واكتتاب شئ من منظومه الكثير ، وقد سمّى موضوعات ذكرها من تأليفه فوعد بذلك مطيِّراً به إلى محل ، المبيت ليلتئذ . وتلاحق بي رسوله بنزرٍ يتضمن ذكر أشياخ اكثرهم غير مسمّى ، وجلب شيئا من حاله حتى عن القابلة التى التقطته ورؤيتها اياه على هيئة عن المُكَلَّف(٤) المخاطب(٥) بوظائف الشريعة من سجود ورفع يد الى السماء ، الى أمثال هذا . فخاطبته وأعدت الرسول اليه بقولي :

أليس قليلٌ نظرةً إن نظرتُها اليك وكُلاًّ ليس منك قليل(٦)

وصلَتْ أيها الفاضل رُقْعتُكَ التى تضمنت الفوائد ، وَصِلتُكَ التى استصحبت العائد ، وشاهد فضلك الذى بين تصريفه الأصلي والزايد ، متفننة في ضروب لا تجنح شمسها لغروب ، هزت ألحانها مني عِطْفَيْ طروب ، واستقر قراها بين يدى أكول لمثلها وشروب . فلله ما تضمنت من فوائد رحلة حجازية لبستْ من حُسن الحجيّ زيَّه ، وذِكْر أعلام وأركان استلام

(١) راجع ترجمته في (المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٦١ ؛ أحمد بابا : نيل الابتهاج ص ٢٧٧ ؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٤٨ ؛ أنظر كذلك (ابن الأحمر : روضة النسرين ص ٧ من المقدمه) .

(٢) الشموس : الذى يكون عسرا في عداوته ، شديد الخلاف على من عانده .

(٣) القمن : الخليق الجدير .

(٤) المكلف : البالغ العاقل المسئول .

(٥) المخاطب من الله عز وجل لتأدية فروض الدين .

(٦) هذا البيت للشاعر جميل بثينه .

إلا أنها كانت كَلَيْلة الوصل ما عابها الا القِصَر ، فلَوَدِدْتُ أن لو أمدها بسواده من القلبُ أو البصر . يَخَسُ وزنها الاختصار لا بل الاقتصار ، وافتقرت الى شرحٍ يقع به على مُتَعَاصي معانيها الانتصار ، ووعد المجلس القاضوي باكتتاب شيْ من منظومه بعد اعترافه بأنه كثير ومهاد وثير فما كان إلا الوعد ، والاخلافُ من بعد :

يا لُوَاةَ الدَّيْن عن مَيْسَرَةٍ والضنينات وما كنَّ لئاما.

والظن بسيدي أنه دعا عند شربه من بئر الحَرَم ، بأن تُرفَع عنه مؤنةُ الكرم ، فأُجيبَت الدعوة كما ورد ، واستقام العمل واطَّرد ، فكان اللقاء على مسافة قصيرة ، وملاحظة البر بمُقْلةٍ غير بصيرة ، والزيارة مُزْوَرَّة ، وأظنه لاحظ بيت شاعر المعرة :

لو اختصرتم من الاحسان زرتُكُم والعذب يُهجر للإفراط في الخَصَرِ

والقِرى قد كُفي القاضي والحمد لله مؤنته الثقيلة ، ولم يُحْوِج الى (١٨ ط) تشويش النقل واستخدام العقيلة ، وهذا القِسْم غير معدود ولا تقع المشاحة الا في مَوْدود . وَهِمَ بتحفة شعره ثم قال بالبداء وناداه الإنجاز فصمّ عن النداء فاطَّرد بابُ الشُّحِّ حساً ومعنى ، وموحدا ومثنى حتى كأن دُكَّالة ، شرَّابةٌ لسَرْو القضاة أكَّاله ، وبيدها لتحجير أيديهم وكاله . وهذه الحركة كانت لخيبة حركة الفتح ، ووجهة المد والمنح . فلولم يقع فيها بُخْلُه تميمه ، للَقَعَتْها[1] العين وعَسر الحيْن ، والقاضي أعزه الله كمال ، وعيب الكمال لا يُنكر ، والغالب الفضل ، وغير الغالب لا يذكر ، وهو على التّافه يُشكر . داعبته حفظه الله مداعبة من يعتقد خلاف مقاله ، ويَرْجح القناطر المقنطرة بمثقاله ، ولا يقول في حال سَرْوه[2] بانتقاله ، ومع اليوم غد ، ولكل شئ أمد ، ويُرجَّى أن يمنع الله منه بوقت يقع فيه استدراك ، ويرتفع باختصاص النزول لديه اشتراك إن شاء الله .

(١) لقعة العين أي حسدها .

(٢) السرو : الفضل والسخاء في المروءة .

وكان المبيت بحصن أسايس[1] من حصون دكالة شأنه شأن ما قبله بطلل ، دار عادية ملوكية الوضع ، تنسب لأحد أشياخ الوطن ممن غمس يده من الجباية فى الدم والفرث تدل على انسحاب دنيا كانت سحابة صيف ، والله يتجاوز عما جرت من نكير ، فهو الذى يؤاخذ بما كسبت الأيدى ويعفو عن كثير .

ورحلنا من الغد فى سهل اقتحمنا به حدود الصنا هجة[2] ، وبتنا بموضع يعرف باسكاون بازاء رجل منتم للصوفية أعجم اللسان ، قام بالنزول على خصاصة واضطرار ، فأثبنا له واحتسبنا كدحه .

وعدنا من الغد (١٩ و) الى أزمور[3] ، فرأينا صدق المثل فى قولهم العود أحمد ، فتلقينا بها أصناف الفضلاء مصحرين ، واوقائف البر متممين ، وقاهم الله معرات السنين ، وكرم وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فى يوم العرض والدين .

وبرز الينا الحسن بن يحى بن حسون ، فتى الفتيان بالمغرب ، وغاية السرو ، وآية المروءة ، والمثل البعيد فى الإيثار على الخصاصة ، ومخجل الضيف ، وريحانة التلطف ، فأربى الخبر[4] على الخبر والحمد لله .

وكان السفر عن تشييع تتعلق بالأهداب أظفاره ، وفضل عم الخافقين اعتذاره وأوجب ذلك ما خاطبتهم به :

---

(١) أورد الوزان (Descipciòn de Africa p. 153) اسم أسايس Aseis ضمن الحصون الجنوبية لمقاطعة فاس . وإن كان هذا لا يتفق مع خط سير الرحلة .

(٢) الصناهجة قبائل كثيرة من البربر فى المغرب ، وتعرف أيضا باسم صنهاجه بكسر الصاد وإن كان من المعرف فى المغرب فتحها . أنظر (تاج العروس ج ٢ ص ٦٧) أنظر كذلك (Ency. of Islam, art Sanhâya) .

(٣) أزمور : مدينة على ساحل المحيط بالمغرب الأقصى على الحافة اليسرى لمصب نهر أم الربيع . راجع (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٧٢ ، ابن خلدون : التعريف ص ٤٤ حاشية ٤ ؛ الوزان : نفس المصدر ص ٨٣) .

(٤) الخبر : العلم بالشيء ، يقال "صدق الخبر الخبر" أى أن الاختبار بالمشاهدة أثبت الخبر المسموع .

احسانكم يا بنى يحيي بن حسّون … أزرى على كل منثور وموزون
قد جددت زينةَ الدنيا برامكةٌ … منكم مكارِمها لم ترض بالدون
أبناء يحيي وقتْهم كلما وُلدُوا … عناية الله من موسى وهارون
بالأحسن الندب زاد الله بيتكم … حُسناً فأهلا بطلْق الوجه ميمون
ما زال يَكْلَفُ بالعَليا ويُمنْحَضُهَا … هوى يعود على الأموال بالهون
ما زلتُ أسمع عنكم كل مكرَمة … والآنَ كم بين معلوم ومظنون
أثْرَتْ بكم كفٌّ أزمور ديار كم … فأيُّ دُرٍّ بصون المجد مكنون
ابقاكم الله فى سعد عقائله … تبدى لكم غرر الأبكار والعون[1]
وردّنى لبلادى شاكراً لكُمُ … بأمر ربى بين الكاف والنون[2]

الى مدينة آنفا[3] ، واستدرك استدعاءنا منهم الى كل احتفاء واحتفال ، (١٩ ط) أفاضل ذهبوا من البر كلَّ مذهب كالقاضي بها الشيخ الفقيه الحاج البادى القشف والسذاجة أبي بكر عثمان بن صالح المسْراتى المراكشيّ النشأة . قرأ بمراكش على أبي الحسن المُرسى وأبي عبد الله العَبْدَرى ؛ وبحاحة[4] ، على أبي زكريا يحيي بن سعيد ، وأبي زيد بن عبد الله وأخيه أبي بكر . وبأغمات[5] : على أبي العباس المعروف بأيتّزْم . وحج سنة أربع

(١) العون : المرأة النصف .

(٢) أى كن فيكون .

(٣) آنفا Anfa وهى المعروفة اليوم باسم الدار البيضاء Casablanca ، وهى مدينة كبيرة على ساحل المحيط بالمغرب الأقصى ، وتقع على مسافة ستين ميلا شرق أزمور ، وهى مشهورة بمنتجاتها الزراعية ولا سيما أشجار الفاكهة . وكانت هذه المدينة فى الماضى تنافس ثغر قادس البرتغالى وقد نتج عن هذا التنافس التجارى أن دمرتها الأساطيل البرتغالية عام ١٤٦٥ ثم أعيد بناؤها سنة ١٩١٥ .

أنظر (J. Leon Africano: Descripcion de Africa p. 107-108)

(٤) حاحه Hea ، مدينة وولاية بمراكش يحدها من الشمال والغرب المحيط الاطلنطى من الجنوب جبال أطلس . أنظر (J. Leon Africano : Op. Cit. p. 4 y nota) .

(٥) أنظر ما سبق صفحة (١٣٠) حاشية (٢) .

وثلاثين وسبعمائة ، وولّى القضاء بقصر كتامة [1] ، وحصن القاهرة [2] وأزمور وآنفا . وأقرأ بمدرستها كتاب أبي عمرو بن الحاجب [3] . مولده في حدود عشرة وسبعمائة . والعدل السَّري أبي العباس أحمد بن شرف بن علي السّلي من أهل تامسنا [4] ، نبيه المسكن ، فَعْم الخوان ، مُنْجِب غلمان . والعدل الفاضل أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن موسى البرغواطي خير منقبض متحلٍّ بسكينه . والشيخ الخطيب الخيّر أبو الحسن علي بن أبي حدّو [5] الأصيل البيت النابه الأبوّة المحمول عليه في سبيل بغي زعموا . والنجباء السراة أولاد الفقيه القاضي الرائق الخط ، الجمّاعة للدفاتر ، الموسوم بالرجاحة أبي علي عمر ابن محمد الزناتي ، كافأ الله ما بذلوا من رغبة ، وخطوا من إلمام .

ثم كان الارتحال الى التربة المَوْلَوِيّة المحترمة بشالة ، فالقيت بها البرك وحططت الرَّحْل وفصّلتُ الخُطّة .

---

(1) قصر كتامة هو اليوم القصر الكبير ويسمى أيضا قصر عبد الكريم ، وهي بلدة معروفة بالمنطقة الخليفية بالمغرب الأقصى ، وتبعد عن ساحل المحيط بنحو ٣٦ ك.م. راجع بعض التفاصيل عن تاريخ هذه المدينة في (Allouche La Revolte des Banu Askilula contre le sultan Muhammad II. Hespéris, tone XXV, 1938, fasc. I, p. 2 Note 2)

(2) لم أتمكن من تحقيق هذا المكان رغم أهمية تسميته بالنسبة لعاصمة الجمهورية العربية المتحدة مدينة القاهرة .

(3) عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب المصري (٥٧٠ - ٦٤٦ هـ) . له مختصر في الفقه المالكي يسمى المختصر الفقهي ، والفرعي ، والجامع بين الأمهات . أدخله الى المغرب عبد الرحمن بن سليمان اللجائي (المتوفى سنة ٧٧١ هـ) وعني بشرحه كثير من المغاربة كالقاضي ابن عبد السلام التونسي شيخ ابن خلدون ، وعيسى بن مسعود بن منصور المنكلاتي . وشرحه من المصريين الشيخ خليل المالكي وسمى شرحه "التوضيح" . وكل هذه الشروح موجودة في دار الكتب المصرية . ولابن الحاجب مختصر آخر في أصول الفقه ويعرف عند القدماء بالمختصر الأصلي . أنظر (ابن خلدون : التعريف ص ١٧ حاشية ١ ، ابن القاضي : درة الحجال ج ٢ ص ٣٥٦ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٥) .

(4) تامسنا مدينة وولاية في غرب فاس بالمغرب الأقصى يخترقها نهر أم الربيع ، وكذلك نهر ابو الرقراق (بوالرجراج) الذي يصب في المحيط بين مدينتي سلا والرباط .
أنظر (J. Leon Africano : Op. Cit. p. II y Nota)

(5) راجع ما قيل ، حول هذا الأسم في صفحة (١٤٩) حاشية (٢) .

الفهارس*

١ — فهرس الموضوعات .

٢ — فهرس البلدان والجبال .

٣ — المصطلحات أو الألفاظ التي لها دلالات خاصة .

٤ — فهرس الأعلام والقبائل والجماعات .

٥ — مراجع التحقيق .

* يلاحظ أن أرقام الصفحات التي بين الأقواس قد وردت في حواشيها بعض الشروح والتعليقات .

١ ــ فهرس موضوعات الكتاب

٢ ـ فهرس البلدان والجبال والأنهار

(هـ)

(و)

(ى)

٣ — فهرس المصطلحات

أو الألفاظ التى لها دلالات خاصة

٤ – فهرس الأعلام والقبائل والجماعات

٥ — مراجع التحقيق

(١) المصادر العربية

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد . . . القضاعى البلنسى)

(ت ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م)

(ا) كتاب التكملة لكتاب الصلة (الجزءان الخامس والسادس من مجموعة المكتبة الاندلسية العربية) نشر كوديرا Codera (مدريد ١٨٨٧)

(ب) المعجم (الجزء الرابع من مجموعة المكتبة الأندلسيه) (مدريد ١٨٨٦)

ابن أبى زرع (أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم)

(ت ٧٢٦ هـ — ١٣٢٥ م)

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . (جزءان) .

نشره وترجمه إلى اللاتينية كارلوس طرنبرغ C. Tornberg (ابساليا ١٨٤٢)

ابن الأحمر (الأمير أبو الوليد اسماعيل بن يوسف النصرى)

(ت ٨١٠ هـ — ١٤٠٧ م)

(ا) نثر الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٦٣ — أدب) .

(ب) روضة النسرين فى ملوك بنى مرين نشره الأستاذان G. Marçais, Gh. Bouali (باريس ١٩١٧) .

ابن بسام (أبو الحسن على بن بسام الشنترينى)

(ت ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م)

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .

القسم الأول فى جزئين والقسم الرابع الجزء الأول (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥) القسم الثالث مخطوط بالاكاديمية التاريخية بمدريد رقم ١٢

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)

(ت ٥٧٨ هـ — ١١٨٣ م)

كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس (نشره كوديرا فى الجزئين الأول والثانى من مجموعة المكتبة الأندلسية مدريد ١٨٨٣)

ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد عبد الله الطنجي)
(ت ٧٧٩ هـ - ١٣٧٧ م)
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢ جـ (القاهرة ١٩٣٨)

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن علي)
(ت ٨٥٢ هـ - ١٤٤٨ م)
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٤ أجزاء (الهند ١٣٥٠ هـ)

ابن حوقل (أبو القاسم محمد)
عاش فى القرن الرابع الهجري
كتاب صورة الأرض، ٢ جـ (ليدن ١٩٣٩)

ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد)
ت ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م

(ا) الإحاطة فى أخبار غرناطة
نسخة خطية بالاسكوريال رقم ١٦٧٣ ونسختان خطيتان بالاكاديمية الملكية التاريخية بمدريد تحت رقمى ٣٤، ١٤٢. وتوجد نسخة مطبوعة فى جزئين (القاهرة ١٣١٩) كما توجد نسخة خطية أخرى برواق المغاربة بالأزهر. هذا وقد نشر الاستاذ عبد الله عنان الجزء الأول من كتاب الإحاطة فى مجموعة ذخائر العرب.

(ب) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٧٥٠)

(ج) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٨٢٥)
قد نشر جزءا كبيرا منه العالم الاسبانى جاسبار ريميرو تحت عنوان:
Gaspar Remiro: Correspondencia diplomatica entre Granada y Fez en el siglo XIV (Granada 1916).

(د) أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. نشره ليفى بروفنسال فى طبعتين (رباط ١٩٣٤)، (بيروت ١٩٥٦).

(و) كناسة الدكان بعد انتقال السكان (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٧١٢)

(هـ) اللمحة البدرية فى الدولة النصريه (القاهرة ١٣٤٧ هـ).

(ى) رقم الحلل فى نظم الدول (تونس ١٣١٧).

ابن خلدون (أبو زكريا يحيى بن محمد)
(ت ٧٨٠ هـ - ١٣٧٩ م)

بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد (نشره وترجمه الى الفرنسية الفرد بل Alfred Bel) (الجزائر ١٩٠٣).

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)

ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م

(ا) المقدمة (نشر مصطفى محمد)

(ب) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ أجزاء بما فى ذلك المقدمة) (القاهرة ١٢٨٤) .

(جـ) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . نشر محمد بن تاويت الطنجى (القاهرة ١٩٥١) .

الإدريسى :

صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . عن (نزهة المشتاق) نشر دوزى ودى خويه (ليدن ١٨٦٦)

ابن الزبير (أبو جعفر أحمد)

ت ٧٠٨ هـ - ١٣٠٨ م

صلة الصلة . نشره ليفى بروفنسال (رباط ١٩٣٨) .

ابن عذارى المراكشى

عاش فى القرن السابع الهجرى

البيان المغرب فى أخبار المغرب

والجزءان الأول والثانى نشرهما دوزى (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥١) والجزء الثالث نشره ليفى بروفنسال (باريس ١٩٣٠) هذا وتوجد طبعة لبنانية من جزئين (بيروت ١٩٥٠) كما توجد ترجمة فرنسية للكتاب من عمل Fagnan وأخرى اسبانية لفرناندث جونثالث Fernandez y Gonzalez

ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم ابن على اليعمرى)

ت ٧٩٩هـ - ١٣٩٦م

الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب (القاهرة ١٣٢٩)

ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى)

ت ٤٠٣ هـ - ١٠١٣ م

تاريخ علماء الأندلس . نشره كوديرا فى الجزئين السابع والثامن من مجموعة المكتبة الاندلسية (مدريد ١٨٩١) .

ابن القاضى (أحمد بن محمد بن أحمد)

عاش فى القرن السابع عشر الميلادى

(ا) جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس (فاس ١٣٠٩)

(ب) درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ٢ جـ (نشر علوش ، رباط ١٩٣٤)

ابن مرزوق (الخطيب ابو عبد الله محمد بن احمد التلمساني)
ت ٧٨١هـ - ١٣٧٩م

المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن
نشره ليفى بروفنسال فى مجلة Hespéris V 1925 .

ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن أحمد)

البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان
نشر محمد بن أبى شنب (الجزائر ١٩٠٨) .

ابن هذيل (على بن عبد الرحمن)
عاش فى القرن الثامن الهجرى

(ا) حلية الفرسان وشعار الشجعان . نشر عبد الغنى حسن (القاهرة ١٩٥١)

(ب) تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس . نشره وترجمه الى الفرنسية Louis Mercier بعنوان L'Ornement des Ames et la devise des habitants d'el Andalus (Paris 1936) 2 tomes.

ابن عبد الملك (محمد بن القاسم الانصارى السبتى)
(عاش فى القرن التاسع الهجرى)

وصف مدينة سبتة ، نشره ليفى بروفنسال فى مجلة Hespéris t. XII 1931

التنبكتى (أبو العباس احمد بابا)
ت ١٠٣٦هـ - ١٦٢٧م

نيل الابتهاج بتطريز الديباج
كتب على هامش كتاب الديباج المذهب لابن فرحون (القاهرة ١٣٢٩ هـ)

جمال عرز

الرسوم الجدارية الاسلامية فى البرطل بالحمراء (مدريد ١٩٥١)

الجواليقى (أبو منصور بن أحمد الخضر)

المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم
تحقيق أحمد محمد شاكر (دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٦١)

حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله كاتب جلبى)
ت ١٠٧٥هـ - ١٦٥٦م

كشف الظنون فى أسامى الكتاب والفنون (استنبول ١٣٦٠ هـ)

الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول

نشر علوش (رباط ١٩٣٦)

الحميرى (ابن عبد المنعم)

عاش فى القرن الثامن الهجرى

الروض المعطار فى خبر الأقطار . نشره ليڤى بروفنسال (ليدن ١٩٣٨)

الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول

نشر محمد بن أبي شنب (الجزائر ١٩٢٠)

زكى محمد حسن

الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٥)

زيادة (محمد مصطفى)

رحلة أبن جبير ورحلة أبن بطوطة .

(لجنة التأليف والنشر ١٩٣٩)

السلاوى (شهاب الدين محمد بن خالد الناصرى)

ت ١٣١٩ هـ -- ١٩٠١ م

الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى (٤ أجزاء فى مجلدين)

(القاهرة ١٨٩٤)

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر محمد)

ت ٩١١ هـ — ١٥٠٥ م

(ا) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين (القاهرة ١٣٥١ هـ)

(ب) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

صفى الدين عبد المؤمن البغدادى

ت ٧٣٩ هـ — ١٣٣٨ م

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (مختصر معجم البلدان لياقوت)

تحقيق على محمد البجاوى (القاهرة ١٩٥٤)

العبادى (عبد الحميد)

(ا) صور من التاريخ الاسلامى .

جزءان (١٩٤٨ - ١٩٥٣)

(ب) حديث الفتية المغررين من أهل اشبونه .
مجلة الثقافة عدد ١٣٦ (١٩٤١)

العبادى (أحمد مختار)

(أ) الصقالبة فى اسبانيا ، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية .
(مدريد ١٩٥٣)

(ب) لسان الدين بن الخطيب ونزعاته الاقتصادية
(مجلة لسان الدين الجزء التاسع والعاشر سبتمبر - أكتوبر ١٩٥٤ تطوان.)

(ج) مقامة العيد لأبى محمد عبد الله الأزدى الغرناطى (صحيفة المعهد المصرى ١٩٥٤)

عبد الله (الأمير عبد الله بن زيرى الصنهاجى)

آخر ملوك غرناطة أيام ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى (٤٦٩-٤٨٣ هـ)
مذكرات الامير عبد الله المسماة بكتاب التبيان . نشر ليڤى بروفنسال فى مجموعة ذخائر العرب (القاهرة ١٩٥٥)

عبد العزيز الأهوانى

ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمى فى لحن العامة
(مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الثالث الجزء الثانى ١٩٥٧)

عبد العزيز عبد المجيد

ابن الأبار ، حياته وكتبه (معهد مولاى الحسن ، تطوان ١٩٥١)

عبد الواحد المراكشى (محيى الدين ابو محمد)

عاش فى القرن السابع الهجرى
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . (القاهرة ١٣٣٢ هـ) وتوجد طبعة أخرى لدوزى (ليدن ١٨٤٥) وترجمه الى الفرنسية فاجنان
(Fagnan : Histoire des Almohades, alger 1893)

العمرى (أبو العباس بن فضل الله شهاب الدين محمد)

ت ٧٤٩ هـ - ١٣٥٠ م

(أ) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . نشر الجزء الخاص بالمغرب والأندلس ، حسن حسنى عبد الوهاب فى مجلة البدر بجامعة الزيتون بتونس .

(ب) التعريف بالمصطلح الشريف ، (القاهرة ١٣١٢)

(ج) ممالك عباد الصليب . نشر أمارى (روما ١٨٨٣)

القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على)

(ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م)

صبح الأعشى فى صناعة الانشا ١٤ ج (القاهرة ١٢١٢ - ١٢١٩)

المقرى (أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى)

(ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣٣ م)

(ا) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
نشر الشيخ محيى الدين عبد الحميد ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٤٩)

(ب) أزهار الرياض ، ٣ أجزاء نشر مصطفى السقا وابراهيم الابيارى
وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٧)

النباهى (أبو الحسن بن عبد الله)

توفى فى أواخر القرن الثامن الهجرى

(ا) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . نشر ليفى بروفنسال
(القاهرة ١٩٤٨)

(ب) نزهة البصائر والأبصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣)

نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر لمؤلف مجهول

نشره الفريد بستانى وترجمه الى اللغة الاسبانية الأب كارلوس كيروس
(العرائش ١٩٤٠)

ياقوت : (شهاب الدين ابو عبد الله الحموى)

(ت ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م)

معجم البلدان (١٢ جزء فى ٤ مجلدات) (القاهرة ١٣٢٣ - ١٩٠٦)

(ب) المصادر الأوروبية

Alarcon M. y Garcia de Linares R. :
Los documentos arabes diplomáticos del archivo de la Carona de aragon. (Madrid — Granada, 1940)

Antuña; P. Melchor Martinez :
El poligrafo granadino Ibn al Jatib en la Real Biblioteca del Escorial. (Imprenta del Real Monasterio, 1926)

Asin; Miguel Asin y Palacios :
Contribución a la Toponimia Arabe de España. (Madrid — Granada, 1944)

Ballesteros, A. :
Historia de Espana, Tomo III. (Barcelona — Buenos Aires 1948)

Bargés, l'Abbé I. J. L. :
— Histoire de Beni Zeiyan Róis de Tlemecen. , Ouvrage traduite de l'arabe. (Paris 1852)
(نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان للإمام سيدي أبي عبد الله محمد ابن عبد الجليل التنسي)
— Complement de l'Histoire des Beni Zeiyan Róis de Telemecen, ouvrage du Cheikh Muhammad Ibn abd al Galil al Tenessy. (Paris 1887)

Brockelmann, Carl :
Geschichte der Arabischen Litterature, 2 Vols. (Weimer — Berlin, 1898—1902)

Brunschvig, Robert :
La Berberie Oriental sous les Hafsides : des origines a la fin du XV siecle, 2 tomes (Paris 1940 — 1947)

Carlos de Luna, José :
Historia de Gibraltar. (Madrid 1944)

Cossio, José Maria :
Los Toros : Tratado técnico e historico, 3 tomos. (Madrid 1945—1947)

Cuartero Larrea, Miguel :
El Salado.
Revista "Ejercito" 1941, No. 13.

De Cenival, Pierre :
Les Emirs des Hintata "Rois de Marrakech". Hespéris, 1937, tome XXIV.

De las Cagigas, Isidoro :
- Andalucia musulmana. (Madrid 1950)
- Un Viajero Egipcio del siglo XIV en el Reino de Granada. (Madrid 1950)

Demombynes, Gaudefroy :
Ibn Fadl Allah al Umari : Masalik al Absar fi Mamalik al Amsar. (Paris 1927)

De Ros Masia; Angel :
La Corona de Aragon y los Estados del norte de Africa. (Barcelona. 1951)

Diccionario de Historia de Espana : 2 tomos. (Madrid 1952)

Dozy, R. :
- Scriptorum arabum loci de Abbadidis, (Leyde 1846—63).
- Supplement aux diccionnaires arabes, 2 tomes. (Leiden — Paris 1927)

Encyclopaedia of Islam.

Fernandez y Gonzalez; Francisco :
Estado social y politico de los mudejares de Castilla. (Madrid 1886)

Garcia Gómez; Emilio :
- Elogio del Islam espanol. Traduccion castellana de Risalat al Shaqundi. (Madrid — Granada, 1934)
- El parangón entre Malage y Salé. (al Andalus, II, 1934)
- El supuesto sepulcro de Mu tamid de Sevilla en Agmat. (Al Andalus, Vol. XVIII, 1953)
- Cinco poetas musulmanes. (Cólleccíón Austral n. 513)
- Poemas arâbigoadnaluces. (Collección Austral, n. 162).

Gayangos, Pascual de Gayangos :
The history of the Mohammedan dynastics in Spain. Extracted by Ahmad al Maqqari. 2 Vols. (London 1840—1843)

Guillen Rôbles, D. F. :
- Historia de Malaga y su Provincia. (Malaga 1873)

Gaspar Remiro, M. :
- Historia de Murcia Musulmana. (Zaragoza 1905)
- Correspondencia diplomática entre Granada y Fez (siglo XIV). Extratos de la Raihanat al Kuttab de Ibn al jatib. (Granada 1916)

Gimenez Soler, Andrés, :

Expedición de JaimeII a la ciudad de Almeria, o el sitio de Almeria (1309).
(B. R. A. B. L. B. 1904, no. 14)

Levi Provencal, E. :

— La Peninsule Ibérique du Moyen-Age d'apres le Kitab Ar-Rawd al Mi,tar; D'Ibn Abd al Munim al Himyari. (Leiden 1938)

— Las ciudades y las instituciones urbanas del Occidente musulman en la Edad Media. (Tetuan 1950)

— Le voyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Grenade (1350). Melanges afferts a William Marçais. (Paris 1950)

— Un Zaŷal hispanique sur l'expedition aragonaise de 1309 contre Almeria. (Al Andalus Vol. VI, 1941 facs. 2)

— Une descriptión de Ceuta musulmane au XV siecle. (Hespéris 1931, tome XII)

Leon Africano, Juan (Al Hasan Ibn Muhammad al Wazzan al-Fasi) :

— Descripción de Africa y de las cósas natables que en ella se encuentran. (Instituto General Franco-Tetuan 1952)

Lopez de Ayala, Pedro, :

Crónicas de los Reyes de Castilla, 2 tomos. (Madrid 1779)

Lafuente Alcantara, Emilio :

Inscripciones arabes de Granada : precedida de una resena historica y de la genealogia detallada de los reyes alhmares. (Madrid 1860)

Lafuente Alcantra, Miguel :

Historia de Granada, 4 tomos. (Granada 1843—1846)

Longas, Pedro :

Vida religiosa de los Moriscos. (Madrid 1915)

Muller, Marcus Joseph. :

Beiträge Zur Geschichte der Westlichen araber. (Munchen1866)

Menendez Pidal, Ramon :

— Poesia juglaresca y juglares. (Coleccion Austral No. 300)

Mercier, Ernest :

Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés Jusqu'a la conquete francaise (1830). 2 tomos. (Paris 1888)

Mariana P. :
Historia general de Espana. (Madrid 1948)

Nykel A. R. :
Hispano-Arabic Poetry and its relations with the old Provencal Troubadours. (Baltimore 1946)

Ocana, Manuel Jiménez :
Tablas de conversion de datas islamicas a cristianas y viceversa. (Madrid — Granada 1946)

Pedraza, Francisco :
Antiguedad y Excelencias de Granada. (Madrid 1608)

Perez de Hita, Ginés :
Guerras Civiles de Granada; publicada por Paula Blanchard-Demouge, 2 tomos. (Madrid 1913—1915)

Palencia, Angel Gonzalez :
— Historia de la Espana musulmana. (Colección Labor III — 1945)
— Historia de la Literatura arabigo-espanala. (Coleccion Labor III — 1945)
— Moros y Cristianos en Espana medieval. (Madrid 1945)

Pons Boigues, Francisco :
Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles (Madrid 1898)

Prieto y Vives, Antonio :
— Los Reyes de Taifas. (Madrid 1926)
— Farmación del Reino de Granada. (Madrid 1927)

Prescott, William H., :
— History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic. (London 1895)

Sanchez Albornoz, Claudio :
La Espana musulmana según los autores ilsamitas y cristianos medievales, 2 tomos. (Buenos Aires 1946)

Seco De Lucena, Louis :
— La Alhambra. (Granada 1919)
— Sobre el viaje de Ibn Battuta al Reino de Granada. (Al Andalus, Vol. XVI 1951)

Simonet, Francisco Javier :

— Descripción del Reino de Granada bajo la dominación de los Nascritas. (Madrid 1860)

— Historia de los Mozarabes de España. (Madrid 1897—1903)

— Glosario de Voces ibéricas y latinas usadas entre los mozarabes. (Madrid 1888)

Torres Balbas, Leopoldo :

Arte Almohade, Arte Nazari,, Arte Mudejar. (Ars Hispaniae, tomo IV)

Zurita, Geronimo :

— Los anales de la Corona de Aragon. (Zaragoza, 1688)